عَبد الرحمن الرافعى

عصر إسماعيل

الجزء الأول



دار المعارف





بقلم



الجزء الأول

يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد اسماعيل

الطبعة الرابعة



الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .



عبد الرحمن الرافعي

ولد في ٨ من فبراير سنة ١٨٨٩ - وتوفي في ٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٦

مقدمة الطبعة الرابعة

نشكره سبحانه وتعالى وها هى دار المعارف بنشاط أبنائها تعيد طبع هذا الكتاب بعد أن أقبل عليه الباحثون والمثقفون والله ولى التوفيق.

كريمات المؤلف
عبدالرحمن الرافعى

سنة ١٩٨٧

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله . فهذا الكتاب سبق طبعه الطبعه الأولى سنة ١٩٣٢ والطبعة الثانية سنة ١٩٤٨ وهو يتناول عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل .

والله ولى التوفيق

كريمات المؤلف
عبد الرحمن الرافعى

سنة ١٩٨١

مقدمة الطبعة الثانية

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب فى ديسمبر سنة ١٩٣٢ . وشغلتُ بعدها بإخراج الحلقات التالية من هذه المجموعة ، وقد أفدت من الانتظار هذه السنين قبل إخراج الطبعة الثانية ، إذ تسنى لى أن أطلع على ما ظهر خلالها من كتب وتراجم ، ومؤلفات ووثائق عن عصر إسماعيل ، يتفق بعضها مع وجهة نظرى فى الكتابة عنه ، وبعضها يعارضها ، وقد يكون رداً عليها ، ثم أمعنت النظر أيضاً فى البحوث والمقالات والخطب التى ألقيت سنة ١٩٤٥ فى دار الأوبرا الملكية . وفى غيرها من المحافل والمعاهد ، لمناسبة مرور خمسين عاما على وفاة الخديو إسماعيل ، وأعدت النظر فيما كتبت عنه سنة ١٩٣٢ ، لعلى أكون قد أخطأت فى موضع من المواضع ، فأصحح خطئى ، أو انحرفت عن الرأى الصواب ، فأعدل عن رأيى ، ولا غضاضة على الإنسان فى أن يعدل عن رأيه إذا تبين له خطؤه فالحقيقة بنت البحث ، والعصمة لله وحده ، على أنى بعد أن استكملت هذه الدراسة ازددت اطمئناناً إلى صحة ما كتبتُ ودوّنتُ عن عصر إسماعيل ، واعتقدت أكثر مما كنت أعتقد أنى لم أتجاوز فيما ذكرت له أو عليه ، وهذا هو واجب المؤرخ فى التراجم ، فعليه أن يذكر ما للمترجم وما عليه ، أما أن يذكر الحسنات دون السيئات ، أو يقتصر على هذه ويغفل الحسنات ، فهذا ليس من التاريخ الصحيح ، وما لا ينبغى أن يكون أساس البحث والتدوين ، والتاريخ الصحيح يقتضى ذكر الحقائق بأكملها ، لتكون الصور التى يعرضها المؤرخ عن الحوادث والشخصيات صوراً صحيحة ، لا تشويه فيها ولا إبهام .

وعلى ذلك فإنى أعيد طبع هذا الكتاب ، دون أن أغير أو أنقص منه شيئاً .

فالطبعة الثانية هى ذات الطبعة الأولى . لا تغيير فيها ولا تبديل ، ولم أزد عليها سوى إضافات يسيرة بالجزء الثانى ، لا تتجاوز ثلاثاً ، وقد حرصتُ على أن أجعلها فى هامش الكتاب ، لكى يبقى الأصل كما أخرجته أول مرة ، وأضفت إلى الوثائق التاريخية النص الكامل للائحة تأسيس مجلس شورى النواب ولائحته النظامية ، وكنتُ قد لخصت أحكامها فى الطبعة

الأولى ، فأبقيت التلخيص كما هو ، وأضفت إليه نصوص اللائحتين ، وأردت من نشرها استكمال الوثائق التاريخية الهامة عن هذا العصر ، ولم أزد على ذلك شيئاً .

والله أسأل أن يلهمنا قول الحق ، ويجنّبنا مواطن الزلل ، ويهدينا سواء السبيل .

أكتوبر سنة ١٩٤٨

عبد الرحمن الرافعي



مقدمة الطبعة الأولى

بهذا الكتاب ندخل فى غمار العصر الحديث من تاريخ الحركة القومية . إذ كان عهد الخديو إسماعيل أكثر العهود صلةً بعصرنا الحاضر ، وأقربها منا أثراً .

أخرجنا قبل الآن ثلاثة أجزاء من هذا التاريخ . بسطنا فى الأول منها منشأ الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث . وكشفنا عن الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، واشتمل الثانى على تتمة المقاومة الشعبية ووقائعها إلى انتهاء الحملة الفرنسية ، وتطور الحياة القومية من بعد ذلك إلى ارتقاء محمد على أريكة مصر بإرادة الشعب ، ثم أفردنا الجزء الثالث لعصر محمد على ، وفصلنا الكلام فيه عن ظهور الدولة المصرية الحديثة . وتحقيق استقلالها ، وتأليف وحدتها القومية بفتح السودان وضمه إلى حظيرة الوطن ، وماتم فى ذلك من جلائل الأعمال .

وكتابنا اليوم يتضمن الحديث عن خلفاء محمد على و « عصر إسماعيل » ، وقد جعلناه فى جزأين ، كتابا مستقلا ، لإشتماله على صفحة قائمة بذاتها فى تاريخ مصر القومى ، وسنحدو هذا الحذو فيما نخرجه بمشيئة الله من سلسلة تاريخ الحركة القومية فنجعل لكل عهد منا كتابا مجتمعًا ، فالكتاب الآتى فى (الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى) . والذى يليه عن (مصطفى كامل) ، وهلم جراً .

* * *

إن الحقبة من الزمن التى تولى الحكم فيها عباس الأول . ثم سعيد . ثم إسماعيل ، هى صفحة هامة من تاريخ مصر القومى ، لأنها بمثابة دور الانتقال من عصر محمد على إلى الثورة العرابية .

انقضى عصر محمد على وابراهيم بعد أن توطدت دعائم الدولة المصرية المستقلة وتأسيس

الجيش المصرى ، والأسطول المصرى ، والثقافة المصرية ، ووضعت قواعد النهضة العلمية والاقتصادية فى البلاد :

ثم جاء عهد عباس الأول ، ويصح إعتباره عهد الرجعية والنكسة ، لأن فيه وقفت حركة التقدم وفترت النهضة التى ظهرت على عهد محمد على .

ثم كان عهد سعيد ، ويمتاز بظهور نهضة وطنية جديرة بأن تعد من أدوار الحركة القومية ، ترجع إلى نزعة سعيد الوطنية ، وميله إلى خير المصريين ورفاهيتهم ، والعمل على تحريرهم من نير المظالم ، وبث روح القومية فى نفوسهم ، والنهوض بهم للمناصب العالية فى الجيش والإدارة ، ولكن إلى جانب هذه المحامد ، بدأت على عهده ثغرات التدخل الأجنبى فى شئون مصر ، بإقراره إنشاء قناة السويس على يد شركة أوروبية ، مخالفاً فى ذلك تعاليم أبيه العظيم ، وافتتاحه عهد القروض الأجنبية التى جرت الكوارث على البلاد ، وكانت سلاسلها وأغلالها .

ثم جاء عهد إسماعيل ، وهو عصر طويل ، يتمثل فيه تاريخ مصر القومى والسياسى فى إبان النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ويعد عصراً هاماً ، له أثره النافع ، كما له أثره الضار ، فى تطور الحركة القومية ، ذلك لما تفتحت فيه من آمال ، وما قام فيه من نهضة ورقى وعمران ، ثم ما تخلله واقترن به من أخطاء وأرزاء أدت إلى التدخل الأجنبى ، وإذا كانت مصر تشعر إلى اليوم بنتائج النهضة التى قامت فى ذلك العهد ، وتجنى من ثمارها وتلمس آثارها بيديها ، فإنها أيضاً تعانى عواقب الأغلاط التى وقعت فيه ، وتدفع ثمنها غالياً ، من مالها وحقوقها ومرافقها ، هذا إلى أن معظم القيود والنظم التى تقررت فى ذلك العصر لا تزال قائمة إلى اليوم (١٩٣٢) ، فالتشريع المختلط ، وتغلغل الأجانب فى مرافق مصر والديون التى كبلت البلاد حكومة وشعباً ، والتدخل الأجنبى فى شئون مصر المالية والسياسية ، كل هذه القيود ترجع إلى عهد إسماعيل .

* * *

كان هذا العهد عصر تقدم ونهضة ، إذ نال الخديو إسماعيل من تركيا أقصى ما يمكن من الحقوق والمزايا توصلا بمصر إلى الاستقلال التام ، وأكمل فتح السودان ، ومد حدود الدولة المصرية إلى منابع النيل . وشواطىء المحيط الهندى ، أى إلى تخومها الطبيعية ، فكان عمله من هذه الناحية عظيماً مجيداً . وعنى بتنظيم الجيش وترقية التعليم الحربى ، وإنهاض البحرية المصرية ، وإقامة أعمال العمران فى مختلف النواحى ، وبعث النهضة العلمية والفكرية من

مرقدها ، بإنشاء المدارس والمعاهد ، وتأسيس الجمعيات العلمية ، وتشجيع التأليف والصحافة ، ورعاية العلوم والآداب والفنون ، وأسس نوعاً من الحياة النيابية بإنشائه مجلساً محدود السلطة يعرف بمجلس شورى النواب ، كان له الأثر البالغ فى تطور الحركة الوطنية .

ففى عصر إسماعيل حدثت نهضة زاهرة ، يزدان بها تاريخه ، ولكن هذه النهضة قد تعثرت فى سيرها لما شابها من إسراف الخديو وبذخه ، وركونه إلى الأوروبيين ، وشديد ثقته بهم ، واعتماده عليهم ، فأدت هذه العوامل مجتمعة إلى تورطه فى القروض الباهظة التى ناءت البلاد بحملها ، من حيث لم تكن فى حاجة إليها ، فكانت الذريعة التى توسلت بها الدولة الأجنبية لتعبث بحقوق مصر الخالدة ، فوقع هذا العبث ، وتعددت مظاهره ، فمن إنشاء صندوق الدين ، إلى فرض الرقابة الثنائية على مالية مصر ، إلى تأليف لجنة تحقيق أجنبية لفحص شئون الحكومة المالية ، إلى تعيين وزيرين أوروبيين فى الوزارة المصرية ، إلى تغلغل نفوذ الأجانب عامة فى مرافق البلاد ، فهذه الأحداث الجسام قد تصدع لها صَرْح الاستقلال الذى نالته مصر بجهودها وتضحياتها العظيمة من عهد محمد على .

* * *

أثارت هذه الكوارث سخط الأحرار من ذوى الرأى والمكانة فى البلاد ، فظهرت فى صفوفهم حركة وطنية تردد صداها فى الصحف وفى مجلس شورى النواب . واتجهت غايتها إلى إنقاذ مصر من التدخل الأجنبى ، وتقرير النظام الدستورى أساساً للحكم فيها ، وتبادل زعماؤها الرأى فى اجتماعات عقدوها بدار السيد على البكرى ومنزل إسماعيل راغب باشا ، واجتمعت كلمتهم فى (الجمعية الوطنية) على المطالبة بتأليف وزارة وطنية خالصة للمصريين ، خالية من الوزراء الأوروبيين ، وتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس شورى النواب ، فاستجاب الخديو إسماعيل لمطالب الأحرار ، وعهد إلى شريف باشا الوزير المشهور تأليف الوزارة الوطنية ، على أن تكون خالية من العنصر الأوروبى مسئولة أمام مجلس الأمة (وثيقة ٧ أبريل سنة ١٨٧٩) . فألف شريف باشا الوزارة على هذا الأساس ، فكانت أول وزارة مسئولة أنجبتها الحركة الوطنية فى تاريخ مصر الحديث ، وكان من أعظم أعمالها وأجلها أنها وضعت دستوراً على أحدث المبادىء العصرية وقدمته إلى مجلس شورى النواب لينال إقراره ، وخولت ذلك المجلس سلطة « جمعية تأسيسية » تملك حق إقرار الدستور وتعديله .

على أن الدول الاستعمارية لم تنظر بعين الرضا إلى ظهور هذه الحركة واطرادها واشتداد

ساعدها ، بجمع كلمة الأمة حولها ، ومناصرة الخديو لها ، فسعت لإحباطها وبدأت مؤامرتها بالاعتراض على أول مشروع مالى للوزارة الوطنية ، ثم عملت على أن تخلع الخديو ، وكانت تركيا من الضعف وسوء النية نحو مصر بحيث أجابت طلب الدول ، وأعلنت خلع إسماعيل وإسناد منصب الخديوية إلى توفيق باشا (يونيه سنة ١٨٧٩) .

ثم استمرت المصادمة بين الحركة القومية والمطامع الأوروبية ، إلى أن بلغت طوراً جديداً ، هو المعروف بالثورة العرابية ، فالثورة من هذه الناحية تعدردّ فعل للتدخل الأجنبى الذى وقع فى عهد إسماعيل ، فالثورة الأساسية هى فى جوهرها المطالب التى اجتمعت عليها كلمة الأحرار فى (الجمعية الوطنية) ، والدستور الذى تمخضت عنه الثورة سنة ١٨٨٢ ، مقتبس من دستور سنة ١٨٧٩ .

* * *

فإلى عهد إسماعيل ترجع إذن مقدمات الثورة العرابية ، وهى تطور للحركة الوطنية التى ظهرت فى ذلك العهد ، وعندى أن هذه الحركة كانت أسلم عاقبةً وأدعى إلى الإعجاب والتقدير من الثورة العرابية ، ذلك أن الحركة الأولى كان قوامها نهضة الأفكار والآراء ، ونضج العقول والقرائح ، وتبادل الرأى والمشورة ، على حين جاءت الحركة العرابية وقوامها الاعتداد بقوة الجيش وحسب ، فتضاءل العامل الفكرى والمعنوى . فى طورها الأخير ، وخَفَتَ صوت الحكمة والتعقل ، إلى جانب صوت السيف المدفع . ومن ثَمّ تنكبت الحركة سبيل الرشاد ، وركبت متن الشطط ، وانفسح المجال للدسائس الأجنبية تنصب أشراكها ، والمطامع الاستعمارية تدبر مكايدها ، حتى إنتهت الثورة بالاحتلال الانجليزى الذى ما زلنا نعانيه إلى اليوم (سنة ١٩٣٢) .

فلبيان التطورات التى تعاقبت على البلاد فى عهد خلفاء محمد على إلى انتهاء عصر إسماعيل ؛ قد خصصتُ هذا الكتاب ، جاعلا وجهتى السعى إلى استخلاص الحقائق والعظات ، من الحوادث وملابساتها . لنتعرف الحاضر على ضوء الماضى . ونصل الأسباب بمسبباتها ، والنتائج بمقدماتها . عسى أن يكون لنا فى ذلك ما نسترشد به فى حياتنا القومية ، أو نستظهر به على ما نحن بسبيله من جهاد فى سبيل الوطن .

أسأل الله أن يعصمنا من الزلل ، ويلهمنا السداد فى القول والعمل ، ويوفقنا إلى ما فيه تحقق الأمل ، إنه نعم المولى ونعم المصير .

للذكرى

اليومَ ختام العام الخامس لوفاة فقيد الوطن المرحوم أمين بك الرافعى .

اليوم يطوى الزمان خمس سنوات على احتجابك عنا يا أمين ! وذكراك باقية فى النفوس مائلة فى الأذهان . يجددها مر الليالى وكر الأعوام.

فإلى روحك الطاهرة الثاوية فى دار الأبدية ، أبعث بتحيات الذكرى ، يرسلها القلب وتفيض بها المشاعر ، ويحملها الرجاء إلى عالم الأرواح .

وإلى بارىء تلك النفس الكريمة ، أتوجه بالدعاء ، أن يسبغ عليها آية السكينة والطمأنينة ، فيانفس أمين ! ، اسكنى إلى جوار ربك راضية مرضية ، ويا روح أمين ! سلام ، وريحان ، وجنة ونعيم ،

٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٢

عبد الرحمن الرافعى

الفصل الأول

الرجعية فى عهد عباس باشا الأول

(١٨٤٨ – ١٨٥٤)

يصح اعتبار عصر عباس باشا الأول عهد رجعية، ففيه وقفت حركة التقدم والنهضة التى ظهرت فى عهد محمد على .

ولى عباس حلمى الحكم بعد وفاة إبراهيم ، وفى حياة محمد على باشا ، وهو ابن طوسون بن محمد على ، لم يرث عن جده مواهبه وعبقريته ، ولم يشبه عمه إبراهيم فى عظمته وبطولته ، بل كان قبل ولايته الحكم وبعد أن تولاه خلواً من المزايا والصفات التى تجعل منه ملكا عظيما يضطلع بأعباء الحكم ويسلك بالبلاد سبيل التقدم والنهضة .

نشأة عباس

بذل محمد على شيئا من العناية فى تعويد عباس ولاية الحكم إذ كان أكبر أفراد الأسرة العلوية سنا ، وبالتالى أحقهم بولاية الحكم بعد إبراهيم باشا ، فعهد إليه بالمناصب الإدارية والحربية . فتقلد من المناصب الإدارية منصب مدير الغربية . ثم منصب الكتخدائية التى كانت بمنزلة رآسة النظار . ولم يكن فى إدارته مثالا للحاكم البار ، بل كان له من التصرفات ما ينم عن القسوة ، وكان يبلغ جده نبأ بعض هذه التصرفات ، فينهاه عنها ، ويحذره من عواقبها . ولكن طبيعته كانت تتغلب على نصائح جده وأوامره .

وأما من الوجهة الحربية فقد اشترك مع إبراهيم باشا فى الحرب السورية ، وقاد فيها أحد الفيالق ، ولكنه لم يتميز فيها بعمل يدل على البطولة أو الكفاءة الممتازة .

وبالجملة فلم تكن له ميزة تلفت النظر ، سوى أنه حفيد رجل عظيم أسس ملكا كبيرًا . فصار إليه هذا الملك ، دون أن تؤول إليه مواهب مؤسسة ، فكان شأنه شأن الوارث

لتركة ضخمة جمعها مورثه بكفاءته وحسن تدبيره وتركها لمن هو خلو من المواهب والمزايا .

وكان إبراهيم باشا لا يرضيه من عباس سلوكه وميله إلى القسوة وكثيراً ما نقم عليه نزعته إلى إرهاق الأهلين ، حتى اضطره إلى الهجرة للحجاز ، وبقى هناك إلى أن داهم الموت عمه العظيم .

ولايته الحكم

كان عباس باشا متغيباً بالحجاز لما عاجلت المنية إبراهيم باشا ، فاستدعى إلى مصر ليخلفه على دست الأحكام تنفيذاً لنظام التوارث القديم الذى يجعل ولاية الحكم للأرشد فالأرشد من نسل محمد على ، وتولى الحكم فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ (٢٧ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ) .

أخلاقه

بقى عباس فى الحكم خمس سنوات ونصفاً ، كان يبدو فى خلالها غريب الأطوار ، شاذاً فى حياته ، كثير التطير ، فيه ميل إلى القسوة ، سيء الظن بالناس ، ولهذا كان كثيراً ما يأوى إلى العزلة ، ويحتجب بين جدران قصوره . وكان يتخير لبنائها الجهات الموغلة فى الصحراء ، أو البعيدة عن الإنس ، ففيما عدا سراى الخرنفش ، وسراى الحلمية بالقاهرة ، قد بنى قصراً فخماً بالعباسية (التى سميت من ذلك الحين باسمه) ، وكانت إذ ذاك فى جوف الصحراء ، وقد شاهد المسيو فردينان دلسبس هذا القصر سنة ١٨٥٥ ، فراعته ضخامته ، وذكر أن نوافذه بلغت ٢٠٠٠ نافذة ، وهذا وحده يعطينا فكرة عن عظم القصر واتساعه ، فكأنه بنى لنفسه مدينة فى الصحراء ، وبنى قصراً آخر نائياً فى الدار البيضاء ، الواقعة بالجبل على طريق السويس المقفر ، ولا تزال آثاره باقية إلى اليوم ، وقصراً بالعطف (ذكره على باشا مبارك فى الخطط ج ٧ ص ٦٣) . وقصراً فى بنها على ضفاف النيل ، بعيداً عن المدينة . وهو الذى قتل فيه كما سيجيء بيانه .

وقد أساء الظن بأفراد أسرته ، وبكثير من رجالات محمد على وإبراهيم ، وخيل له الوهم

أنهم يأتمرون به ، فأساء معاملتهم ، وخشى الكثير منهم على حياتهم ، فرحل بعضهم إلى الأستانة ، والبعض إلى أوروبا . خوفا من بطشه ، واشتد العداء بين الفريقين طول مدة حكمه ، وبلغ به حقده على من يستهدفون لغضبه أنه حاول قتل عمته الأميرة نازلى هانم ، واشتدت العداوة بينهما حتى هاجرت إلى الأستانة خوفا من بطشه .

وسعى فى أن يغير نظام وراثة العرش ليجعل إبنه إلهامى باشا خليفته فى الحكم ، بدلا من سعيد باشا ، ولكنه لم يفلح فى مسعاه ، ونقم على سعيد الذى كان بحكم سنه ولى العهد . واتهمه بالتآمر عليه ، واشتدت بينهما العداوة حتى اضطره أن يلزم الاسكندرية ، وأقام هناك بسرايه (بالقبارى) .

وانتشرت الجاسوسية فى عهده انتشاراً مخيفا ، فصار الرجل لا يأمن على نفسه من صاحبه وصديقه ، ومن يغضب عليه ينفيه إلى السودان ويصادر أملاكه . وكان نفى المغضوب عليهم إلى أقاصى السودان من الأمور المألوفة فى ذلك العصر.

وكان عباس مولعا بركوب الخيل والهجن ، يقطع بها المسافات البعيدة فى الصحراء ، وله ولع شديد باقتناء الجياد الكريمة ، يجلبها من مختلف البلاد ، ويعنى بتربيتها عناية كبرى ، ويبنى لها الاصطبلات الضخمة ، وينفق عليها بسخاء ، شأن هواة الخيل .

أعماله

سياسته العامة

يختلف عهد عباس عن عصر محمد على ، فإن حركة النهضة والتقدم والنشاط التى امتاز بها هذا العصر قد تراجعت كما قلنا فى عهد عباس ، وهناك ظاهرة أخرى للفرق بين العهدين ؛ ذلك أن محمد على كان يستعين بذوى العلم والخبرة من الفرنسيين فى معظم مشاريع الإصلاح ، لكن « عباس » لكونه لم يفكر فى تعهد هذه الاصلاحات أقصى معظم هؤلاء الخبراء واستغنى عنهم ، وقد تضاءل النفوذ الفرنسى فى عهده ، ولم يعد إلى الظهور إلا فى عهد سعيد باشا ، ومن هنا نعرف سببا لتحامل كثير من المؤرخين والمؤلفين الفرنسيين على عباس ، فإنه وإن كانت أعماله لا تدعو إلى الإطراء ، لكنا نعتقد أن أحكام الفرنسيين عليه لا تخلو من التحامل ، لتأثرهم من تضاؤل النفود الفرنسى فى عهده ، والفرنسيون لما اتصفوا به من الوطنية

يكرهون كل ملك أو أمير يقترن عهده بتضاؤل النفوذ الفرنسى فى بلاده ، من أجل ذلك نراهم يكيلون المدح جزافًا لسعيد باشا ، ونعتقد أن هذا راجع إلى ميوله الفرنسية وعودة النفوذ الفرنسى إلى مصر فى عهده ، على يد المسيو فردينان دلسبس وأمثاله ممن اتخذهم سعيد بطانته وأولياءه .

فعباس إذن قد أقصى عنه الخبراء من كبار رجال الموظفين الفرنسيين ، فلم يعد لهم نفوذ لديه ، بل لم يكن يعاملهم معاملة عطف واحترام ، واستغنى عن خدمة بعضهم .

وعلى العكس ، بدأ النفوذ الإنجليزى فى عهده على يد المستر (مرى) القنصل البريطانى فى مصر وقتئذ ، فقد كان له عليه تأثير كبير ، وله عنده كلمة مسموعة .

ولا يعرف السبب الحقيقى لهذه المنزلة ، سوى أنها نتيجة المصادفة ، فإن الملوك والأمراء المستبدين ليس لهم قاعدة مستقرة ، ولا تصدر أعمالهم عن برنامج أو تفكير ، بل يتبعون الهوى فى كثير من أعمالهم ، وقد يكون لكفاءة المستر مرى دخل فيما ناله عند عباس من النفوذ ، وقيل إنه كان يستعين به فى السعى لدى حكومة الاستانة بوساطة سفير إنكلترا لتغيير نظام وراثة العرش ، كى يؤول إلى إبنه إلهامى ، وفى رواية أخرى إنه كان يستعين به وبالحكومة الإنجليزية ليمنع تدخل حكومة الاستانة فى شئون مصر إذ كانت تبغى تطبيق القانون الأساسى المعروف بالتنظيمات على مصر .

إصلاح الطريق بين القاهرة والسويس

ومهما يكن من السبب فالمستر مرى كان له أثر ظاهر فى اتجاه أفكار عباس ، ويتبين هذا النفوذ من أن أول أعماله بعد ولايته الحكم هو إصلاح طريق القاهرة إلى السويس ورصفه بالحجارة ، فجعله معبدا ، تسير فيه العربات بسهولة ، فهذه الفكرة وإن كانت فى ذاتها فكرة عمرانية سديدة إلا أن الموعز بها هو المستر مرى ، وغرضه منها تسهيل سبيل المواصلات البرية إلى الهند عن طريق مصر ، وسرعة نقل البريد البريطانى والسياح بين الهند وانجلترا .

وكانت السياسة الانجليزية ترمى إلى تعبيد طرق المواصلات بين انجلترا والهند فى مصر بواسطة إنشاء سكة حديدية ، تصل الإسكندرية بالقاهرة . ومنها إلى السويس ، وكانت تعارض فى أن تنشأ بمصر طريق بحرية للمواصلات ، ولذلك عارضت فى شق القناة البحرية



عباسِ باشا الأول والى مصر
من سنة ١٨٤٨ إلى سنة ١٨٥٤

فى برزخ السويس ؛ وحبذت مد السكة الحديدية بين الإسكندرية والسويس ، وحجتها أن شق القناة يسهل على الدول البحرية المنافسة لها فى الاستعمار طريق الوصول بسفنها الحربية إلى البحر الأحمر ؛ ثم إلى الهند ، فيتعرض سلطانها هناك للخطر ، أما فرنسا فكانت على العكس تحبذ فتح القناة ، وتعارض فى مشروع السكة الحديدية ؛ لأنه مشروع انجليزى .

السكة الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة

ولقد فازت السياسة الانجليزية بضم عباس إلى وجهة نظرها ، فتم على يده إصلاح طريق السويس . ثم شرع فى مد السكة الحديدية من الإسكندرية إلى القاهرة سنة ١٨٥٢ ، وعهد بتخطيط العمل إلى المهندس الانجليزى الشهير بوبرت ستفنسن Stephenson ، يعاونه مهندسون مصريون . لكن المهندسين المصريين هم الذين تم على أيديهم إنشاء الخط كما يقول المسيو مريو[١] Merruau . ومنهم من صار لهم فيما بعد شأن كبير وتقلدوا كبرى المناصب ، مثل سلامة باشا إبراهيم ، وثاقب باشا . ومظهر باشا . وبهجت باشا ، واستخدم عباس فى تعبيد الطريق وتركيب القضبان الجنود والبحارة المصريين ، وانشىء من سكة الحديد فى عهده الخط الموصل بين الإسكندرية وكفر الزيات (سنة ١٨٥٤) ، وتم الخط بأكمله فى عهد سعيد ، ويئس المسيو فردينان دلسبس من نجاح مشروع شق القناة ، ولم يعاوده الأمل إلا بعد أن تولى سعيد باشا الحكم كما سيجىء بيانه .

وإذا نحن صرفنا النظر عن التزاحم السياسى بين انجلترا وفرنسا ، فما لا شك فيه ، من وجهة النظر المصرية ، أن مشروع السكة الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة وبين هذه والسويس أنفع للبلاد ، وأبعد عن الضرر من مشروع القناة . فإن مصر لم تستفد شيئا من فتح قناة السويس ، بل كانت القناة شؤما عليها كما سنفصله فى موضعه ، ولأن السكة الحديدية قد نهضت بعمران البلاد التى مرت بها ، بخلاف القناة .

فإصلاح طريق السويس ، والشروع فى مد السكة الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة ، هما من أول ما فكر فيه عباس ، وهما من المشاريع الجليلة ، ولعل هذا العمل الوحيد الإنشائى

---

(١) فى كتابه (مصر الحديثة) ص ١٠٢ ، والمسيو مريو معاصر لعباس وسعيد وإسماعيل

الذى يذكر لعباس ، لأنه لا يخفى أن السكك الحديدية هى من أعظم دعائم العمران والتقدّم ، وكانت هذه السكة أول خط حديدى أنشىء فى مصر ، بل فى الشرق قاطبة ، فمصر قد سبقت دول الشرق فى أعمال العمران ، ولا يخفى أن تركيا وهى أقوى دول الشرق وقتئذ تأخرت عن مصر فى مد السكك الحديدية واستخدام القطارات البخارية ، وإنك لتلمح تقدم مصر وسبقها تركيا فى ميادين العمران حينما زار السلطان عبد العزيز مصر سنة ١٨٦٣ ، فانه ركب القطار من الاسكندرية إلى القاهرة تملكه العجب ، لأنه لم يكن رأى القطارات البخارية فى حياته من قبل[٢] .

ضبط الأمن

وعُنى عباس باستتباب الأمن ، فضرب على أيدى الأشقياء وقطاع الطرق ، وطاردهم وعاملهم بالقسوة ، فخشوا بأسه ، وانقطع دابرهم ، وأمن الناس شرورهم ، فاستتب الأمن فى عهده ، وهذا من خير أعماله .

المدارس والمصانع

أما المدارس ، فقد ساءتْ حالتها في عهده . فألغى معظمها (بعد الذى عطل منها فى أواخر عهد محمد على) ، واقفلت أبوابها ، بين عالية وثانوية وابتدائية ، ولم يبق منها إلا النزر اليسير ، وكأنما كان عباس يكره العلم والتعليم . فإنه لم يكتف بإغلاق معظم المدارس ، بل أنفذ إلى السودان طائفة من كبار علماء مصر فى ذلك العهد ، مثال رفاعة بك رافع . ومحمد بيومى أفندى ، ودقلة أفندى ؛ بحجة إنشاء مدرسة ابتدائية بالخرطوم ، والسبب الحقيقى هو إبعادهم ونفيهم من مصر ، وقد ساءت حالتهم كما بينا ذلك تفصيلا فى ترجمة رفاعة بك رافع[٣] ، ومات منهم هناك محمد بيومى كبير أساتذة الهندسة والرياضيات فى مدرسة المهندسخانة .

---

(٢) انظر كتاب ، « سياحة السلطان عبد العزيز من الآستانة إلى القاهرة » للمسيو جاردى ص ٤٩ و٥٣ و ٦٠

(٣) راجع كتابنا « عصر محمد على » ص ٤٨٨ (من الطبعة الأولى)

وانتقى من تلاميذ المدارس التى ألغاها عدداً منهم أدخلهم مدرسة أنشأها ١٨٤٩ ، ودعاها « المفروزة » إشارة إلى أنه أفرز تلاميذها من بين طلبة المدارس ، وكانت هذه المدرسة بمثابة مدرسة تجهيزية حربية .

وأقفل ما بقى من المعامل والمصانع التى أنشأها جده بحجة الاقتصاد فى النفقات .

البعثات

وأرسل إلى أوروبا ١٩ طالباً من تلاميذ المدارس المصرية لإتمام دروسهم بالمدارس الأوروبية ، على أنه استدعى معظم أعضاء البعثات الذين كانوا يتلقون العلم فى فرنسا منذ عهد محمد على .

السودان

لم يعن عباس بالسودان عناية جده به ، ولم يفكر يوما فى زيارة ذلك الإقليم العظيم الذى يعد الجزء المكمل لمصر ، ليشاهد بنفسه شئون البلاد وأهلها ، ويتعرف أحوالها كما فعل محمد على الذى لم تمنعه شيخوخته ومشاغله العديدة من أن يجوب السودان باحثا مستطلعاً .

الجيش والبحرية

أنفذ عباس بعض الإصلاحات الحربية التى فكر فيها إبراهيم باشا قبل وفاته ، كتجديد الإستحكامات ، وإنشاء الطرق الحربية ، وفيما عدا ذلك فإن الجيش فى الجملة لم يكن موضع عنايته ، وقد تسرب إلى إدارته الخلل وسوء النظام . بعد أن كان مضرب الأمثال فى النظام والكفاية على عهد محمد على ، وزاد فى اضمحلاله أنه أدمج فيه نحو ستة آلاف من الأرناءود ، جعلهم خاصة جنده ، وسلحهم بالمسدسات ، فكانت لهم فى عهده الصولة والسطوة ، وشمخوا بأنوفهم على المصريين ، جنوداً وأفراداً ، وجرد عباس الأهلين من السلاح ؛ وحظر عليهم حمله ، فعاث الإرناءود فى الأرض فساداً ، بما اشتهر عنهم من الظلم

والعسف والإرهاق ، وبقى هؤلاء الاخلاط قوام الجيش فى عهده .

وظل سليمان باشا الفرنساوى القائد العام للجيش المصرى ، ولكن يده غلت عن النهوض به، وإصلاح شئونه .

وساءت حالة البحرية بعد أن كانت زاهرة ، وأخذت فى الاضمحلال . ويرجع ذلك إلى إهمال عباس أعمال العمران عامة ، ثم إلى سبب خاص ، وهو كراهيته لعمه سعيد باشا ومعلوم أن سعيد كانت نشأته فى البحرية ، وكان قائدا عاما للأسطول فى عهد محمد على ، فلما تولى عباس الحكم حقد على البحرية جملة واحدة ، لحقده على سعيد باشا . فأهمل شأنها ، وتعطلت أعمال الترسانة ، ووقف إصلاح السفن ، فسرى إليها العطب والتلف .

إشتراك مصر فى حرب القرم

بقى الجيش المصرى رغم ما أصابه من الخلل قوة لا يستهان بها ، وظهرت بسالته فى حرب القرم ، وهى الحرب الوحيدة التى خاضت مصر غمارها فى عهد عباس .

شبت نار القتال بين تركيا والروسيا سنة ١٨٥٣ ، فطلب السلطان عبد المجيد إلى عباس باشا أن يمده بالجند والأساطيل . فلبى عباس طلبه ، وكانت دار الصناعة (الترسانة) فى ذلك الحين معطلة كما قدمنا ، فعاد إليها النشاط العمل ، واستدعى إليها العمال الذين كانوا مصروفين عنها ، وجهز الأسطول المصرى ، وعهد بقيادته إلى الأميرال حسن باشا الاسكندرانى ، أحد خريجى البعثات فى عهد محمد على[٤] .

وأعد حملة مؤلفة فى بدء الحرب من نحو ٢٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة سليم باشا فتحى أحد القواد الذين حاربوا تحت لواء إبراهيم باشا فى حروب سوريا والأناضول ، فأقلعت الحملة على ظهر العمارة المصرية ووصلت إلى الاستانة ، ومضت إلى ميدان القتال على نهر الدانوب ، ورابط معظم الجيش المصرى فى (ساسترِيا) وكان الروس يهاجمونها ، فأبلى المصريون بلاء حسنا فى المدافعة عنها ، وأقاموا بها حصنا عرف بطابية العرب ، كان له فضل كبير فى الدفاع ، فاستطاع الجيش المصرى أن يكسر هجمات الروس سنة ١٨٥٤ ، واستمرت الحرب إلى عهد

---

(٤) ترجمنا له فى الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (عصر محمد على ص ٥٣١ من الطبعة الأولى)

سعيد باشا كما سيجىء بيانه .

وقد ساهم الأسطول المصرى فى الحرب البحرية ، فسار قسم منه إلى شواطىء الأناضول الشمالية بالبحر الأسود ، ولكن السفن الروسية أوقعت به ، واشتركت بقية السفن فى نقل القوات الحربية إلى ثغور البحر الأسود ، وبقيت تؤدى واجبها إلى انتهاء الحملة .

مقتل عباس

اتفقت الروايات على أن عباس مات مقتولا فى قصره ببنها ، وهذا أمر مقطوع بصحته ، ولكن الخلاف فى رواية مقتله ، وليس عجيبا أن يختلف الرواة فى ذلك ، فإن قتل عباس كان نتيجة مؤامرة من مؤامرات القصور ، وهذه المؤامرات لا يسهل اكتساب حقيقتها ، أو الاتفاق على روايتها ؛ لما يكتنفها من الأسرار ، ولأنها تقع فى جنح الظلام ؛ بعيدة عن الأنظار ، فلا يعرف الناس عنها إلا ما تتناقله الألسنة بعد وقوعها ؛ ومن هنا ينشأ الاختلاف فى الرواية ؛ ولدينا عن مقتل عباس روايتان ، إحداهما ذكرها إسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٦٥) والأخرى ذكرتها مدام أولمب ادوار كما سمعتها بمصر فى أوائل عهد إسماعيل ودونتها فى كتابها (كشف الستار عن أسرار مصر ص ١٤٣) .

ويؤخذ من رواية إسماعيل باشا سرهنك ، أن (عباس) كانت له حاشية من المماليك يقربهم إليه ويصطفيهم ، ويتخذ منهم خواص خدمه ، ولهم عنده من المنزلة ما جعله يغدق عليهم الرتب العسكرية العالية ، على غير كفاءة يستحقونها ، حتى حاز أكثرهم رتبة قائمقام وكان لهم كبير من خاصة غلمانه ، يسمى خليل درويش بك ، وعرف فيما بعد بحسين بك الصغير ، وقد أساء هذا الرئيس معاملة أولئك المماليك ، فاستطالوا عليه بالغمز واللمز ، وخاصة لأنه كان صغير السن . فاتخذوا من حداثته مغمز الأقاويل . فسخط عليهم ، وشكاهم إلى مولاه ، فأمر بجلدهم ، فجلدوا ؛ وجردوا من ثيابهم العسكرية . وألبسهم خشن اللباس . وأرسلهم إلى الإصطبلات لخدمة الخيل . فعز ذلك على « مصطفى باشا » أمين خزانة عباس ، لأنهم كانوا من أتباعه المقربين إليه . فسعى جهده لدى سيده ليعفو عنهم . فلم ينل بادىء الأمر بغيته ، فلما ذهب عباس باشا إلى قصره ببنها يصحبه أحمد باشا يكن وإبراهيم باشا الألفى محافظ العاصمة ، رجاهما مصطفى باشا أن يطلبا العفو عنهم ، فطلبا ذلك إلى عباس . فأجاب

ملتمسها . وأصدر أمرا بالعفو عنهم . وردهم إلى مناصبهم . فجاءوا إلى بنها ليرفعوا واجب الشكر للأمير . ولكنهم أضمروا الفتك به انتقاما لما أوقع بهم . فائتمروا به مع غلامين من خدمة السراى . يدعى أحدهما عمر وصفى والآخر شاكر حسين . واتفق الجميع على قتله . وكان من عادة عباس عند نومه أن يقوم على حراسته غلامان من مماليكه . فنى ليلة ١٨ شوال سنة ١٢٧٠ (١٤ يوليه سنة ١٨٥٤م) كان الغلامان المذكوران يتوليان حراسته ، فجاء المؤتمرون فى غسق الليل على اتفاق معهما . وفتحا لهم الباب ، فدخلوا غرفة الأمير . وهو نائم ، ولما أرادوا الفتك به استيقظ وحاول النجاة ، فصده عمر وصفى ، وتكاثر عليه المؤتمرون ، وقتلوه ، ثم أوعزوا إلى الغلامين بالهرب فهربا ، وكتم المتآمرون الخبر إلى اليوم التالى ولما لم يستيقظ الأمير فى موعده دخل عليه أحمد باشا يكن وإبراهيم باشا الألفى فوجداه مقتولا ، فذعرا لهذه الفاجعة ، واتفقا على إخفاء الخبر حتى نقل الأمير القتيل إلى القاهرة فى عربة ، ووصلا به إلى قصره بالحلمية ، وهناك ذاع خبر قتله .

وأراد جماعة من أنصار عباس . وعلى رأسهم إبراهيم باشا الألفى أن يجعلوا الحكم من بعده لنجله إبراهيم إلهامى باشا الذى كان وقتئذ بأوروبا . فاتفقوا على استدعائه ليولوه الحكم ، ويمنعوا عنه عمه سعيد باشا أكبر أنجال محمد على وأحق الأمراء بالولاية طبقا للنظام القديم . وكان سعيد باشا وقتئذ بالإسكندرية ، يقيم بسرايه بالقبارى . فكتبوا سراً إلى محافظ الإسكندرية إسماعيل سليم باشا . وأبلغوه بما اتفقوا عليه . وطلبوا إليه القيام على الثغر حتى يحضر إلهامى باشا . فلما تلا الرسالة لم يشاطرهم رأيهم . لعلمه أن الحكم من حق سعيد باشا ، فقصد إليه من فوره . وأنهى إليه فحوى الرسالة . فشكره سعيد باشا على إخلاصه . وذهب صحبته إلى سراى رأس التين . وأعلن اعتلاءه العرش . وأجريت حفلة الجلوس . وأطلقوا المدافع . ثم سافر سعيد باشا إلى القاهرة يصحبه أمراء الأسرة الحاكمة الذين كانوا مبتعدين عن العاصمة لما بينهم وبين عباس من العداء والنفور ، فلما وصلوا إلى القاهرة ذهب سعيد إلى القلعة وتولى زمام الحكم .

تلك خلاصة رواية إسماعيل باشا سرهنك .

أما رواية مدام أولمب إدوار فخلاصتها ، أن الأميرة نازلى هانم عمة عباس هى التى ائتمرت به وهى فى الاستانة ، وأنفذت مملوكين من أتباعها لقتله ، واتفقت وإياهما ، على أن يعرضا أنفسهما فى سوق الرقيق بالقاهرة ؛ كى يشتريهما عباس ويدخلهما فى خدمته . وكان

المملوكان على جانب من الجمال ، مما يرغب وكيل الأمير فى شرائهما ، فجاءا القاهرة فعلا ، ونزلا سوق الرقيق ، إلى أن رآهما يوما وكيل الأمير ، فراقه جمالها ، فاشتراهما وأدخلهما سراى مولاه ببنها ، فأعجب بهما عباس ، وعهد إليهما بحراسته ليلاً ، قالت مادام ألومب إدوار ، فلما كانت الليلة الأولى لم يجرؤ المملوكان على ارتكاب القتل ، لأنهما خشيا بأس عباس ، إذ كان قوى البنية ، شديد البطش ، وخافا أن يقاومهما وينجو من فتكهما ، فينكل بهما شر تنكيل ، ويوردهما موارد الهلاك المحتوم ، فانقضت الليلة الأولى بسلام ، ومرت أيام عدة وهما يستجمعان قوتهما لإنفاذ القتل عند سنوح الفرصة . حتى جاءتهما النوبة ثانية لحراسة مولاهما ، فاعتزما أن يكونا أكثر شجاعة من قبل ، فلم يكد يستغرق عباس فى النوم حتى انقضا عليه وقتلاه ، ولم يدعا له الوقت ليصيح أو يقاوم ، ولما أرتكبا الجريمة نزلا اصطبلات الخيل الملحقة بالسراى ، وطلبا إلى السائس أن يجهز لهما فورا جوادين بحجة أن الباشا يطلب حاجة له من قصره بالعباسية ، فلم يشك الخادم فى الأمر ، وجهز لهما الجوادين فسارا بهما عدواً إلى القاهرة ؛ ومن هناك فرا إلى الاستانة ، حيث نقدتهما الأميرة نازلى مكافأة سخية على إنفاذ المؤامرة .

وتقول مدام أولمب أدوار إن إلهامى باشا تعقب المملوكين القاتلين ليثأر لأبيه ، فالتقى بأحدهما فى الاستانة ، فقتله رميا برصاص مسدسه ، ولم يستطع اللحاق بالثانى ولم يعثر له على مكان ، وقيل أنه أوى إلى بلاد الأرناءود فراراً من القتل (٥) .

فالروايتان ، مع إختلافهما فى بيان المحرضين على القتل وطريقة إرتكاب الجريمة متفقتان كما ترى فى أن عباس مات مقتولا إثر مؤامرة دبرت لقتله وأنفذت فى قصره ببنها .

ميزة عباس

كان عهد عباس كما ترى خلوا من أعمال النهضة والعمران ، اللهم ماكان من إنشاء سكة الحديد بين القاهرة والإسكندرية ، وإصلاح سكة السويس الحجرية .

على أن لعباس ميزة يجب أن يذكرها له التاريخ ، وهى أنه لم يفتح على مصر أبواب التدخل الأجنبى ، فلم يمكن للأجانب فى البلاد ، ولم يمد يده إلى الاستدانة منهم ، بل ترك

---

(٥) كشف الستار عن أسرار مصر لمدام أولمب ادوار.

Les mysteres de Egypte devoiles par Mme olympe Audouar.

خزانة مصر حرة من أثقال الديون الأجنبية التى كبلها بها خلفاؤه من بعده ، وكان يجتهد دائماً فى سد عجز الميزانية . دون أن يلجأ إلى القروض ، ولم يكن يميل إلى منح الأوروبين إمتيازات باستثمار مرافق البلاد ، فهذه ميزة يجب أن تذكر له بالخير ، ويمتاز (من هذه الناحية) على سعيد وإسماعيل ، فخطأ سعيد باشا أنه منح المسيو فردينان دلسبس إمتياز حفره قناة السويس ، وافتتح عهد الاقتراض من الخارج ؛ وخطأ إسماعيل أنه كبل مصر بالديون الجسيمة التى اقترضها من البيوت الأوروبية .

* * *

الفصل الثانى

النهضة الوطنية فى عهد سعيد باشا

(١٨٥٤ – ١٨٦٣)

من النهضات الوطنية ما يصدر عن الشعب وزعمائه ، ومنها ما يكون مصدره الملوك والحكام ، ويمتاز عصر سعيد باشا بظهور نهضة وطنية جديرة بأن تعد دورا من أدوار الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث .

وترجع هذه النهضة إلى ميول سعيد باشا ذاته ؛ فقد كان ذا نزعة وطنية ممدوحة ، نشأت فيه قبل أن يتولى الحكم ؛ ولازمته بعد أن تولاه ، وظهرت آثارها فى كثير من إصلاحاته وأعماله ، وقوام هذه النزعة أنه كان يميل بجوارحه إلى خير المصريين ورفاهيتهم ويعمل على تحريرهم من نير المظالم التى أصابتهم ؛ ويخفف عنهم عبء الضرائب التى ينوءون بها ؛ ويبث فيهم روح الوطنية . ويشجعهم على تقلد المناصب العالية فى الجيش والإدارة بعد أن كانت من قبل وقفا على الترك والشراكسة .

نشأته

هو ابن محمد على الكبير . ولد سنة ١٨٢٢ ؛ ونشأ فى حجر أبيه . محوطا بعطفه ورعايته . وكان أبوه يعزه ويعتنى بتربيته وتثقيفه ، وتنشئته النشأة الحسنة . واختار له السلك البحرى فدربه على فنون البحرية وجعل شأنه شأن تلاميذها . ولعل هذه النشأة مما حبب إلى نفسه مبادىء الديمقراطية . فقد كان أثناء دراسته ومرانه زميلا لطائفة من التلاميذ . ممن خصصهم أبوه لدراسة الفنون البحرية . يعيش عيشتهم . ويسير على نهجهم . وينظر إليهم كما ينظر الطالب إلى أقرانه وأصدقائه . ولما أتم دراسته انتظم فى خدمة الاسطول قومندانا لإحدى البوارج التى كانت ترفع علم مصر فوق ظهر البحار . واعتاد النظام الذى هو أساس الحياة العسكرية . فكان

يحترم رؤساءه ويتساوى فى ذلك وزملاؤه ضباط الاسطول ، ومما يذكر عنه أنه لما نال حظًا من الفنون البحرية ، وكان وقتئذ « سعيد بك » جعله أبوه معاونًا لمطوش باشا ناظر البحرية وقومندان الاسطول ، وأصدر أمره إليه بأن يمتثل لأوامره ، ويؤدى إليه التعظيم العسكرى ، بوصف كونه رئيسًا له ، وكان ذلك من سداد رأى محمد على ، إذ عود ابنه ، إحترام النظام ، وارتقى سعيد فى المراتب البحرية حتى وصل فى أواخر عهد أبيه إلى منصب « سر عسكر الدوننمة » أى القائد العام للأسطول .

فهذه النشأة كان لها أثرها فى إيلافه المبادىء الديموقراطية ، مما جعله عندما تولى العرش يميل إلى المصريين ؛ ويعمل على ترقيتهم وتقدمهم ورفاهيتهم .

أخلاق سعيد

أهم الصفات البارزة فى أخلاق سعيد ، طيبة قلبه . وسلامة قصده وكرمه ، وشجاعته وصراحته . وميله للخير . وتسامحه . وحبه للعدل . ونفوره من الظلم والإرهاق .

ولكنه إلى جانب ذلك . كان ضعيف الإرادة كثير التردد ، لا يستقر على رأى واحد . ومن هنا جاءت تقلباته فى الخطط والبرامج والأعمال . وانصياعه لآراء خلطائه من الأوروبيين . وسرعة تأثره بما يسمعه . ثم سرعة غضبه . ورجوعه عن غضبه لأوهى الأسباب . وكانت نقطة الضعف فيه إسرافه . والتجاءه إلى الاستدانة من البيوت المالية الأوروبية . وحسن ظنه بالأوروبيين . وشدة ركونه إليهم . وميوله الفرنسية التى جعلته يسترسل فى الإصغاء لتأثيرات المسيو فردينان دلسبس وأضرابه . وفى عهده أخذ الأجانب يبسطون أيديهم على مرافق البلاد . ويستطيلون على سلطة الحكومة وسيادتها . ويشمخون بأنوفهم . وصار للقناصل نفوذ لم يكن لهم من قبل فى عهد محمد على وإبراهيم وعباس .

إصلاحاته الزراعية واللائحة السعيدية

بذل سعيد باشا جهوداً موفقة لإصلاح حالة الفلاحين والترفيه عنهم ، فخولهم حق الملكية العقارية للأراضى الزراعية . وسن لهذا الغرض قانونه المشهور باللائحة السعيدية الصادرة فى

٥ أغسطس سنة ١٨٥٨ (٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٧٤ هـ)[١] . وهى من أعظم إصلاحاته ، لأنها أساس التشريع الخاص بملكية الأطيان فى القطر المصرى ، وهى من آثاره الخالدة التى تذكر له بالخير ، لأن الملكية هى من الدعائم الأساسية للهيئة الاجتماعيه ، وكان الفلاح محروما حق التملك فى عهد محمد على .

وألغى أيضاً نظام إحتكار الحاصلات الزراعية ، ذلك النظام الذى كان معمولا به فى عهد أبيه ، وأخذ فى الاضمحلال فى عهد عباس ، وصار للفلاح حرية التصرف فى حاصلاته ، وحرية اختيار أنواع الزراعة التى يبتغيها .

وخفف عن الأهالى عبء الضرائب ، فقد كان عليهم متأخرات من السنين الماضية تجاوز عنها جملة واحدة ، ولم تكن هذه المتأخرات بالشىء اليسير ، فقد بلغ مقدارها كما يقول المسيو مريو[٢] ٨٠٠,٠٠٠ جنيه ، وهو مبلغ ضخم إذا قيس بثروة ذلك العصر ، فاستراح الفلاحون من أعباء المتأخرات القديمة التى كان عمال الجباية يرهقونهم للحصول عليها ، ويستولون على حاصلاتهم الزراعية ليستوفوا ما تأخر عليهم منها .

ورغب إلى الأهلين سداد الضريبة نقداً لا عيناً ، وهذا التعديل متفرع عن إلغاء نظام احتكار الحاصلات الزراعية ، فبعد أن كانت الحكومة تضع يدها على الحاصلات وتتصرف فيها وتحاسب الفلاح على السعر الذى تقرره هى بمطلق إرادتها ، صار للفلاحين حق إمتلاك حاصلاتهم ، والتصرف فيها بالبيع بالسعر الذى يرتضونه ، وأداء الضريبة نقداً ، وبذلك نالوا حق الملكية العقارية وملكية الحاصلات ، وحرية التصرف فيها ، وحيازة ثمنها ، وصار للفلاح وجود اقتصادى مستقل عن الحكومة ، وبعد أن كان مستعبداً لها ، فكان هذا الإصلاح من أسباب نهضة الفلاح من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية .

واقترن تنفيذ هذا الإصلاح بمصاعب جمة ، لأن الفلاحين لسبق استيلاء الحكومة كل سنة على حاصلاتهم ، لم يكن بأيديهم النقد الذى يستطيعون أن يؤدوا منه الضريبة بحسب النظام الجديد ، فقرر سعيد إمهالهم فى الدفع ، حتى يتسنى لهم بيع حاصلاتهم الجديدة وأداء

---

(١) منشورة فى القاموس العام للإدارة والقضاء لفيليب جلاد ج ١ ص ١١٨ وفى كتاب الأطيان والضرائب لجرجس بك حنين ص ٣٨٨ .

(٢) فى كتابه (مصر الحديثة) ص ٦٤ .

الضريبة من ثمنها ، فشعر الفلاحون بالراحة والطمأنينة والرخاء وحسن المعاملة ، ووقف تيار الهجرة من القرى .

وقد ألغى أيضاً ضريبة الدخولية التى كانت تجبى على الحاصلات والمتاجر بما تتبادله المدن والقرى فى داخلية البلاد ، وهذه الضريبة مصدر إعنات وإرهاق للأهالى ، كما أنها عقبة تحول دون حرية التجارة الداخلية ، إذكانت الحكومة تقتضى على المتاجر ١٢ فى المائة من قيمتها عند دخولها أى مدينة أو قرية ، وهذا يؤدى إلى إرتفاع الأسعار واشتداد الغلاء ، ويضعف حركة المعاملات ، كما أن طريقة تحصيل هذه الضريبة تنطوى على نوع آخر من الإرهاق ، إذ كانت جبايتها موكولة إلى ملتزمين يبتزون الأهالى أكثر من قيمتها ، فألغاوءها فيه تخفيف عن الأهلين وتحرير للتجارة الداخلية مما كان يعترضها من العقبات والعراقيل .

لائحة المعاشات

ومن أعماله الاجتماعية سنة لائحة المعاشات للموظفين المتقاعدين ، وهى الأساس الذى بنى عليه نظام المعاشات المتبع فى مصر لموظفى الحكومة .

أعمال العمران

تطهير ترعة المحمودية

عنى سعيد باشا بتطهير ترعة المحمودية ، ذلك أنها منذ إنشائها فى عهد محمد على لم تعن الحكومة بتطهيرها ، وانقضى عهد عباس دون أن يفكر فى أمرها . فلما تولى سعيد كاد الطمى المتراكم على مدى السنين يطمرها ويفسد استعمالها ، فلا تعود صالحة لمرور السفن ، ولا تجرى فيها مياه الرى بالمقادير التى يتطلبها العمران .

فاعتزم سعيد باشا أن يطهرها ، ويكاد تطهيرها فى هذه الظروف يشبه أن يكون احتفاراً لها من جديد ، لأن الطمى كان قد سد قاعها ، وقد استشار المسيو موجيل بك كبير المهندسين فيما يلزم من العمال والجهود لإجراء هذا العمل العظيم ، فحسب مقدار ما يجب رفعه من الأتربة من قاعها ، فبلغ ثلاثة ملايين متر مكعب ، على طول الترعة الذى يبلغ ثمانين كيلو متراً ، وقدر

أن العامل يرفع متراً ونصف متر فى اليوم ، فالعمل يقتضى سبعة وستين ألف عامل ، وبذلك يتم تطهير الترعة على أيديهم فى ثلاثين يوماً .

فأصدر سعيد أمره إلى المديريات بإرسال هذا العدد من الفلاحين ، ولم تكتف المديريات بإرسال العدد المطلوب ، بل ضاعفت الهمة ، وأرسلت ١١٥ ألف عامل ، فوزع هذا العدد على طول الترعة ، ووزعت عليهم الفؤوس ، بمعدل فأس لكل خمسة من العمال ، واحد منهم يحفر الأرض بفأسه ، والثانى يملأ الغلقان من الردم ، والثلاثة الآخرون يحملونها إلى جانب الترعة ، حيث أمر سعيد باشا بإنشاء طريق زراعى معبد ، عرضه عشرة أمتار ، وقد سار العمل على هذه الوتيرة ، وعنى سعيد باشا بالسهر على صحة العمال ، فأحضر أطباء يلاحظون حالتهم الصحية طول مدة العمل ، وتم تطهير الترعة وإنشاء الطريق فى إثنين وعشرين يوما ، دون أن يموت أحد من العمال ، بخلاف ما وقع حين إنشائها فى عهد محمد على ، ولم يزد عدد المرضى الذين أعياهم العمل عن خمسة فى الألف[٣] .

فكان هذا العمل الضخم وإتمامه فى هذه المدة القصيرة مدعاة للإعجاب ، لما تجلى فيه من مقدرة الفلاح المصرى على إنشاء أعمال العمران التى تنوء بها الجماعات من الشعوب الأخرى .

وقد كان نجاح هذا المشروع مما شجع المسيو فردينان دلسبس على إغراء سعيد باشا بتسخير الآلاف من الفلاحين فى احتفار قناة السويس ، فرضى بتأثير هذه الإغراء أن يسخر الألوف المؤلفة منهم فى عمل عاد بالضرر الوبيل على مصر والمصريين .

السكك الحديدية والتلغرافات

توفى عباس قبل إتمام الخط الحديدى بين القاهرة والإسكندرية ، فأتمه سعيد باشا سنة ١٨٥٦ وسار الخط عن طريق كفر الزيات وبنها حتى وصل إلى العاصمة ، ولم تكن « الكبارى » بنيت على النيل ، فكان القطار عند اجتيازه الفرعين ينقل على مراكب خاصة تسير به من بر إلى آخر .

(٣) مريو ، مصر الحديثة ص ١٢٣ .

وأنشأ خطوطا تلغرافية على الطريقة الحديثة من الإسكندرية والقاهرة والسويس بعد أن كان الموجود منها فى عهد محمد على على طريقة (شاب) القديمة .

ومد الخط الحديدى بين القاهرة والسويس ، كتتمة لخط الإسكندرية والقاهرة ، وفتح للمواصلات سنة ١٨٥٨ ، فعاد على ميناء السويس وعمرانها بالفوائد الجمة ، لأنه كان سبباً فى زيادة ورود السفن التجارية إلى هذا الثغر لنقل متاجرها وركابها إلى القاهرة ثم إلى الإسكندرية بطريق السكة الحديدية ، فنشطت حركة العمران والتجارة فيها ، ولما كثر توارد السفن إليها شرع سعيد باشا فى إصلاح مينائها .

ومن أعماله فى العمران الاحتفاظ بالآثار المصرية وجمعها فى مخازن أعدت لها فى بولاق ، وعهد بهذه المهمة إلى العالم الأثرى ما رييت (باشا) كما سيجىء بيانه ، وعهد إلى العلامة محمود بك (باشا) الفلكى الرحلة إلى دنقلة لرصد كسوف الشمس بها ، فقام بهذه المهمة واغتنم هذه الرحلة لتحقيق ٤٢ موقعاً من المواقع الفلكية بين أسوان ودنقلة .

وبعد عودته كلفه سعيد باشا وضع خريطة مفصلة للقطر المصرى ، فقام بهذا العمل خير قيام ، واشترك معه فى أدائه طائفة من المهندسين المصريين .

إصلاحاته الحربية وبثه الروح القومية فى الجيش

إشتهر سعيد باشا بميله إلى الجيش ، ولعل نشأته الأولى على ظهر الأسطول حببت إليه الحياة الحربية ، برية كانت أم بحرية ، فعنى بعد أن ولى الحكم بترقية شئون الجند . وكثيراً ما كان يصرف أيامه فى معسكر الجيش ، وتعرض عليه شئون الحكومة وهو وسط جنوده ، ويطيب له أن يسير متنقلا فى أنحاء البلاد .

ولقد بذل جهداً كبيراً فى سبيل ترقية الجيش من الوجهتين المادية والمعنوية ، وصبغه بالصبغة الوطنية . وذلك أن الجيش كان قد اضمحل فى عهد عباس الأول ، كما تقدم بيانه . وفقد الروح التى كانت تفيض عليه صفات العظمة والبطولة فى عهد محمد على وإبراهيم ، فعمل سعيد على أن يرد إلى الجيش صبغته الوطنية ، وبذل جهداً كبيراً فى إصلاح حالته . فقرر تقصير مدة الخدمة العسكرية ، وجعلها فى الوقت نفسه إجبارية للجميع ، وكان لهذا الإصلاح أثر حسن فى ترغيب الانتظام فى سلك الجندية إلى الأهلين ، لأن التجنيد بحسب

النظام القديم كان مقصوراً على الطبقات الفقيرة (وهو الآن كذلك مع الأسف – سنة ١٩٣٢ –) ، فوقر فى أذهان الناس أن الخدمة العسكرية سخرة تبتلى بها تلك الطبقات ، ومما زاد فى نفور الأهلين منها طول مدة التجنيد ، فكان المجندون تطول غيبتهم عن أهلهم ، وكثير منهم كانوا يلقون حتفهم فى الحروب المتواصلة التى حدثت فى عصر محمد على ، فيجهل أقرباؤهم مضيرهم .

فلإصلاح هذه العيوب قصر سعيد باشا مدة الخدمة العسكرية ، ثم عممها على جميع الشبان ، على اختلاف طبقاتهم . فجعل متوسط الخدمة سنة واحدة ، وبذلك أدخل فى نفوس الناس الطمأنينة على مصير أبنائهم المجندين ، وأخذوا يشعرون بأنهم سيعودون قريباً إلى قراهم وعائلاتهم ، وأمر أن تعمم الخدمة العسكرية ، بحيث يقترع أبناء المشايخ والعمد وأقاربهم كسائر الفلاحين ، ولا شك أن هذه الوسيلة من شأنها أن تنهض بمستوى الجندية ، وترغب الشبان فى الخدمة العسكرية ، لأن العمد والمشايخ هم فى الجملة خلاصة أعيان البلاد ، فدخول أبنائهم فى سلك الجيش تكريم للجندية ، وتقويم لنفوس الشبان إذ يشعرون أن التجنيد واجب عام ، يشترك فيه الأغنياء والفقراء على السواء .

وعلاوة على ما تقدم ، فان سعيد باشا عنى بترقية حالة الجنود والترفيه عليهم من جهة الغذاء والمسكن والملبس وحسن المعاملة ، حتى أخذوا يشعرون أنهم تحت لواء الجيش أحسن حالا مما كانوا عليه فى قراهم ، طعاماً ، ومسكناً ، وملبساً ومظهراً .

وكان لهذا الإصلاح أثره فى إيلاف الأهالى الخدمة العسكرية ، وفى تقدم حالة البلاد الاجتماعية ، لأن المجندين إذ يعودون إلى القرى بعد انتهاء مدة خدمتهم كانوا ينقلون إليها مبادىء النظام والتقدم والنظافة التى تعودوها فى ظل الجندية .

ولو استمر العمل بهذا النظام طويلا لألفت الأمة الخدمة العسكرية ، ولاعتادها الشبان من مختلف الطبقات .

وكان سعيد باشا ميالاً إلى ترقية الضباط المصريين وإعطائهم حقهم فى التقدم ، وفى عهده ارتقى كثير منهم إلى المراتب العسكرية العالية ، بعد أن كانت منحصرة فى الترك والشراكسة ، وقد نقل عنه عرابى باشا خطبة ألقاها فى مأدبة بقصر النيل ، تدل على عواطف وطنية شريفة ، قال مخاطباً الحاضرين من العلماء والرؤساء الروحانيين وأفراد الأسرة الحاكمة ، وكبار رجال الحكومة الملكيين والعسكريين .

« أيها الأخوان ، إنى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ ، فوجدته مظلوماً مستعبداً لغيره من أمم الأرض ، فقد توالت عليه دول ظالمة له كثيرة ، كالعرب الرعاة (الهكسوس) والأشوريين ، والفرس ، حتى أهل ليبيا والسودان واليونان ، والرومان ، وهذا قبل الإسلام ، وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة ، كالأمويين ، والعباسيين ، والفاطميين من العرب ، والترك ، والأكراد ، والشركس ؛ وكثيراً ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها فى أوائل هذا القرن فى زمن (بونابرت) ؛ وحيث أنى أعتبر نفسى مصريا ، فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب ، وأهذبه تهذيباً ، حتى أجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الأجانب ، وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى من الفكر إلى العمل »[٤] .

ويقول عرابى باشا فى مذكراته تعليقًا على هذه الخطبة ، إنه لما انتهى سعيد باشا من إلقائها خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين ، حانقين ، مدهوشين مما سمعوا ، وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحاً واستبشاراً . ويقول إنه اعتبر هذه الخطبة أول حجر فى أساس مبدأ (مصر للمصريين) . قال : « وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع أساس هذه النهضة الوطنية الشريفة فى قلوب الأمة المصرية الكريمة » .

هذا ما يقوله عرابى باشا ، وهو قول لا غبار عليه ، ونضيف إليه أنه لو بقيت هذه الروح سائدة فى عهد خلفاء سعيد باشا لما كانت البلاد فى حاجة إلى شبوب الثورة العرابية ، لأن هذه الثورة قامت لتحقيق المبدأ الذى إتبعه سعيد باشا ، فلو سار خلفاؤه على هذا المبدأ لتم الغرض الذى دعا إليه العرابيون فى سكينة وسلام ، ولكانت البلاد فى غنى عن قيام تلك الثورة ، التى مهما قيل لها أو عليها ، فلا نستطيع أن نغفل تلك الحقيقة المؤلمة ، وهى أنها أفضت بالبلاد إلى الإحتلال الانجليزى ، وليس يخفى أن الاستقلال والاحتلال ضدان لا يجتمعان .

ومن أعماله الحربية إنشاء (القلعة السعيدية) بالقناطر الخيرية . وكان يقيم بها أحياناً وجعلها بحيث تستطيع صد هجمات الأعداء عن القاهرة إذا جاءوا من طريق النيل .

على أن سعيد باشا كان لا يستقر على وتيرة واحدة فى اهتمامه بشئون الجيش . ومرجع ذلك إلى ضعف إرادته ، وقلة حزمه . وتقلبه فى الرأى . وقد كان هذا الخلق من مواضع ضعفه ، فكثيراً ما لوحظ عليه أنه يرى فى يومه نقيض ما رآه بالأمس . ولا يثبت على رأى واحد . فبينما

---

(٤) مذكرات عرابى (كشف الستار عن سر الأسرار) ص ١٦ .

هو يعنى بزيادة عدد الجيش إذا به يصرفه فلا يبقى منه إلا النزر اليسير.

ففى سنة ١٨٥٦ صرف معظم الجيش. ولم يبق منه إلا ست أورط من المنشأة. وثلاثة بلوكات من الفرسان. وبلوكين من المدفعية. ولما سافر فى رحلة إلى السودان أواخر سنة ١٨٥٦ اصطحب أورطتين من الجيش وأبقى الأورط الأربع الأخرى بالقاهرة والإسكندرية وبنى سويف. ثم جمع الضباط وجعل منهم مدرسة بالقلعة السعيدية بالقناطر الخيرية. وذلك لخوفه من أن يقوم الجيش بثورة فى البلاد أثناء غيابه بالسودان.

وفى سنة ١٨٦٠ اعاد الجيش ثانياً. وأعاد إليه الضباط، ونظم فيالقه. وكان غرضه الاستعداد للقتال حينما توترت العلاقات بينه وبين تركيا. بسبب مسألة قناة السويس. وقاد بنفسه هذا الجيش وعسكر به فى مريوط. وأقام هناك ثلاثة أشهر. كان لا ينفك خلالها يجرى المناورات الحربية. وكان عدد الجيش وقتئذ ٦٤,٠٠٠ مقاتل كما أحصاه إسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (ج ٢ ص ٢٧٥) ثم صرف معظم هذا الجيش بعد أن عادت العلاقات الودية بينه وبين تركيا.

وفى سنة ١٨٦٢ أعاد تنظيم بعض الفرق، وكان لا يقر له قرار إلا بين جنده ويلازمهم فى معظم أوقاته.

وذكر عنه المسيوفردينان دلسبس أنه نقص الجيش من ستين ألفاً إلى ثمانية آلاف أو عشرة آلاف مقاتل. وذلك لكى يخصص أكبر عدد من المقترعين لأعمال الحفر فى قناة السويس (٥) ومن هذا يتبين لك أن القناة. علاوة على ما جلبته لمصر من المضار كما سيجىء بيانه، كانت من أسباب اضمحلال الجيش المصرى.

البحرية

قلنا أن سعيد باشا نشأ نشأة بحرية، وانتظم فى سلك الأسطول قبل أن يتولى الحكم، فكان ميالا بطبيعة نشأته إلى إحياء البحرية المصرية، بعد ما أصابها من الاضمحلال والإهمال فى عهد عباس.

(٥) وثائق عن تاريخ القناة للمسيو فردينان دلسبس ج ٤ ص ٣٣٣

وقد وجه عنايته فعلا إلى ترقية شأن الأسطول . فلما عادت السفن الحربية المصرية من حرب القرم أمر بإصلاحها وإنشاء سفن أخرى جديدة ، ولكن انجلترا خشيت أن تعود إلى مصر قوتها البحرية ، التى كانت لها فى عهد محمد على ، فأوعزت إلى الحكومة التركية أن تمنع سعيد باشا من تجديد الأسطول ، وزينت للسلطان هذا العمل موهمة إياه أن الأسطول إذا قوى شأنه يصبح خطراً يتهدد تركيا كما كان فى عهد محمد على ، فاستمع السلطان لدسائس انجلترا ، وأصدر أمره إلى سعيد باشا بالكف عن إصلاح سفن الأسطول وإنشاء سفن جديدة إلا بأمره ، فكان ذلك سبباً لاضمحلال قوة مصر البحرية ، وقد ذكر إسماعيل باشا سرهنك فى كتابه حقائق الأخبار (ج ٢ ص ٢٧١) أن سعيد باشا إذ رأى أن معظم السفن الراسية أمام دار الصناعة بالإسكندرية لا تصلح للقتال إلا بعد إصلاح جسيم وإنها إذا تركت وشأنها أصابها التلف ، أمر بتكسيرها وبيع أخشابها وإحراق ما لا يصلح منها ، وسرح معظم ضباطها ، وأدخل الكثيرين منهم فى الوظائف الملكية ، وخاصة فى مطابخه الواسعة ، ولما أنشأ إدارة للملاحة النيلية ، وهى التى دعيت مصلحة (الانجرارية) ابتاع لها كثيرا من البواخر النيلية ، واستخدم فيها بعض أولئك الضباط والجنود ، وهناك سبب آخر لاضمحلال البحرية فى عهد سعيد ، ذلك أن الدول الأوروبية أخذت تستبدل بالسفن الحربية الشراعية السفن الجديدة البخارية التى صارت الأساطيل الحربية تتألف منها ، ولكن مصر قصرت عن مجاراة الأساطيل الأوروبية فى هذا المضمار ، ومن هنا أمعنت البحرية المصرية فى الضعف وآلت حالتها إلى الاضمحلال .

ولو كان سعيد باشا على شىء من العزيمة التى امتاز بها أبوه العظيم لما ترك الأسطول الضخم الذى بذلت مصر فى سبيل إنشائه ما بذلت من الجهود يتبدد ويتكسر ، ولما صدع أوامر السلطان فى هذا الصدد ، بل كان عليه أن يتعهد الأسطول ، فيصلح ما يعطب من سفنه ، ويجدده بإنشاء السفن الحربية البخارية بدلا من السفن الشراعية ، لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، وهو الذى كان يجدر به أن يقدر قيمة الأسطول إذ نشأ فى البحرية ومارس فنونها وعرف مبلغها من الجلال وخطر الشأن .

أهمل إذن سعيد شأن البحرية الحربية ، على أنه عنى بالملاحة التجارية الداخلية والخارجية ، فأنشأ شركتين للملاحة ، إحداهما بحرية ، والأخرى نيلية .

شركة الملاحة النيلية

فالشركة الأولى للملاحة النيلية ، أسست سنة ١٨٥٤ . والغرض منها نقل الحاصلات والمسافرين بطريق النيل على البواخر .

والسبب الذى دعا سعيد باشا إلى تأسيس هذه الشركة أن المراكب الشراعية التى تنقل الغلال والمتاجر من داخلية البلاد إلى الإسكندرية عن طريق النيل وترعة المحمودية كانت تتأخر فى سيرها ، لمعاكسة الريح . فكانت تقطع المسافة بين القاهرة والإسكندرية فى خمسة عشر يوما . فى حين أن البواخر تقطعها فى ست وثلاثين ساعة . ولما كانت الإسكندرية تستمد أقواتها ومواد الغذاء من الداخل . فتأخر السفن الشراعية يؤدى إلى أزمة فى الأقوات . وخاصة بعد أن زاد عدد سكانها . هذا إلى ما فى استخدام المراكب الشراعية من تعطيل المواصلات التجارية عامة . فأسس سعيد باشا هذه الشركة لتسهيل سبل المواصلات النيلية .

غير أن عيب هذه الشركة أنها شركة أجنبية ، مؤسسوها من الأوروبيين . ومعظم رءوس أموالها أجنبية . ولعل هذه أول شركة أجنبية أسست فى عهد سعيد باشا .

ولم يكن من أعضائها من المصريين سوى رئيسها الفخرى (الذى لم يكن له عمل ما) وهو ذو الفقار باشا وزير المالية ، أما أصحاب الامتياز فهم فيما عدا ذو الفقار باشا جماعة من الماليين الأجانب من مختلف الأجناس ، وهم المسيو رويسنر Ruyssenaers قنصل هولندا العام فى مصر ، والمسيو بولانى popolani ، وكونيج بك Koenig Bey سكرتير سعيد باشا الأوروبى ، وموجيل بك Mougel Bey كبير مهندسى الرى ، وأيدى Aide. وليونيداس ليغونس Lyghounes ، ومدة إمتياز هذه الشركة ١٥ سنة ، ومن شروط عقد تأسيسها ، أنه عند وقوع خلاف بينها وبين الحكومة فلا يرفع الخلاف إلى القنصليات بل يحسم بواسطة التحكيم ، وأن بواخر الشركة ترفع العلم المصرى باعتبارها تابعة لشركة مصرية .

سميت هذه الشركة (الشركة المصرية للملاحة البخارية) ، ولم تكن مصرية إلا بالاسم وكان فى إمكان الحكومة أن تشترى البواخر من مالها بدلا من الالتجاء إلى رءوس الأموال الأجنبية ، وقد سوغ أنصار سعيد باشا إعطاء هذا الأمتياز لشركة أوروبية بقولهم أن الحكومة عهدت إلى الشركة بالقيام ببعض أعمال الإصلاح فى ترعة المحمودية دون تكليف الخزانة المصرية نفقاتها ،

كتوسيع مأخذ الترعة من النيل ، وتوسيع مصبها فى البحر الأبيض المتوسط ، وتطهيرها ، وإنشاء طلمبات عند العطف لتغذيتها .

شركة الملاحة البحرية (الشركة المجيدية)

أما الشركة الثانية فهى شركة مساهمة للملاحة البحرية ، أسست سنة ١٨٥٧ رئيسها الأمير مصطفى فاضل بن إبراهيم باشا . ومجلس إدارتها خليط من الوطنيين والأجانب . وهم نوبار باشا (وكان لم يزل بك) نائبا للرئيس . وله فى غيبته أن يقوم بأعمال الرآسة . وعبد الله بك ، والمسيو دمريكر Dumreicher وحسن كامل بك . وإسماعيل فوزى بك . والمسيو ليفى . ومختار بك . والمسيو باسترى Pastre ، والمسيو رويسنر . وسعيد افندى ، وهوج توربرن Huge Thurburn والمسيو زكالى zaccali .

وسميت (القومبانية المجيدية) . نسبة إلى إسم السلطان عبد المجيد الذى كان يتولى عرش السلطنة العثمانية وقتئذ . والغرض منها تسيير البواخر فى البحر الأحمر . ومنه إلى المحيط الهندى ثم الخليج الفارسى . وفى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تقوم بالملاحة بين السويس وثغور الحجاز واليمن والقصير وسواكن ومصوع وتنقل الحجاج ذهابا وإيابا إلى ثغور الحجاز . ولها بواخر أخرى بالبحر الأبيض المتوسط . ومدة إمتيازها ثلاثون سنة . وبواخرها ترفع الراية المصرية . ومنازاعتها لا ترفع أمام محاكم القنصليات بل أمام المحاكم التجارية المصرية . ولها مستودعات ومحطات فى السويس والقصير ومصوع .

ولكن هذه الشركة قد سرى اليها الاضمحلال فى أواخر عهد سعيد . لفساد إدارتها ، فحلتها الحكومة . وتولت تصفيتها على عهد إسماعيل وأعادت الاسهم إلى أصحابها مقسطة على عشر سنوات فبلغت مع فوائدها ٣٤٠,٠٠٠ جنيه ، وحلت محلها الشركة العزيزية التى أنشأها إسماعيل كما سيجىء بيانه ..

إصلاح ميناء السويس

نشطت حركة التجارة والعمران فى السويس بعد إنشاء السكة الحديدية التى تصلها بالقاهرة . وبعد إنشاء الشركة المجيدية للبواخر . واتخاذ السويس ميناء لخطوط الملاحة فى البحر

الأحمر . فعزم سعيد باشا على إصلاح مرفئها وتوسيعه ، وعهد بذلك إلى شركة فرنسية تعرف بشركة (ديسو) Dussau . وتعاقد وإياها على إنشاء حوض عائم بالميناء لإصلاح السفن . تم على توسيع الميناء . وقد كملت أعمال الإصلاح فى عهد الخديوى إسماعيل .

حروب مصر فى عهد سعيد باشا

اشتركت مصر على عهد سعيد باشا فى حربين :

الأولى : حرب القرم .

والثانية : حرب المكسيك .

١ – حرب القرم

تقدم الكلام عن اشتراك مصر فى هذه الحرب على عهد عباس باشا . وحسن بلاء الجيش المصرى فى الدفاع عن (سلستريا) .

وقد استمرت الحرب بعد وفاة عباس ، وأرسل سعيد باشا نجدة إلى الجيش المصرى فيها .

ومما يذكر عن هذه الحرب أن المصريين عانوا فيها الشدائد والأهوال ، إذ كانوا يقاتلون فى شدة البرد خلال شتاء عامى ١٨٥٤ و ١٨٥٥ . ولقى الكثير منهم منيتهم فى ميادين القتال ، أو من فتك الأمراض ، وقد دافعوا دفاعاً مجيداً عن (ايباتوريا) . وهى مدينة من ثغور شبه جزيرة القرم ، إحتلها الحلفاء لمهاجمة مواقع الروس الحصينة فى شبه الجزيرة .

واستشهد سليم باشا (فتحى) القائد العام للجيش المصرى فى حصار (ايباتوريا) ، ذلك أن الروس هاجموا المدينة بغتة ، وكان سليم باشا يتولى قيادة المصريين فيها . فبينما هو قائم بأعباء القيادة أصابته رصاصة فى جبهته أردته قتيلا ، ومع أن الروس ارتدوا عن المدينة ، لكن مقتل سليم باشا كان خسارة كبرى أصابت الجيش ، ووقعت وقعا أليما فى نفوس الجند والضباط .

ذكر المسيو (فانترينييه) Vingtrinier نبأ مقتله فى كتابه (سليمان باشا) قال : « إن مصر شعرت بالألم الشديد لوفاته . إذ فقدت قائداً فذاً فى الكفاءة الحربية ، ورجلا نزيها محباً للخير . اكتسب بشجاعته إعجاب رؤسائه ومحبة زملائه » .

ولما قتل سليم باشا فتحى ، جعل سعيد باشا على القيادة العامة أحمد باشا المنكلى والأميرالاى على بك مبارك (باشا) من أركان حربه ، وكان وقتئذ ناظراً لمدرسة المهندسخانة ، واشترك فى الحرب كما تراه فى ترجمته بالفصل التاسع .

ونال الجيش المصرى فى حرب القرم ثناء مستطابا ممن شهدوا حسن بلائه فى القتال

نقل المسيو فانترينييه فى كتابه (سليمان باشا) ما ذكرته فى هذا الصدد جريدة المونيتور الفرنسية . قالت :

« أثبت المصريون أنهم خير الجنود الذين دافعوا عن أيباتوريا . ونالوا هذه المكانة ذاتها فى حرب الدانوب . واحتملوا وحدهم معظم العبء فى الدفاع عن سلستريا » .

وقالت فى مواطن آخر : « إن المصريين يعرفون فى الجيش التركى وفى البلاد التركية بالعرب . وطريقتهم فى القتال تشبه طريقة تلك الشعوب الحربية التى تجمع إلى الشجاعة والاقدام . الذكاء والنظام[٦]

وشهد الجنرال اسمونت Osmont أحد قواد الجيش الفرنسى فى حرب القرم شهادة قيمة للجيش المصرى . قال (ص ٥٧٤ من الكتاب المتقدم ذكره) : « لقد اشترك قسم من الجيش المصرى معنا فى حرب القرم . وحينما كنت محافظًا لاباتوريا شاهدت فرقة من ذلك الجيش يبلغ عددها ١٢ ألف جندى . يؤلفون جزءًا من جيش عمر باشا ، ورأيتُ هذه الفرقة فى المناورات الحربية ، كما رأيتها وهى تخوض غمار الحرب . بجانب فرقتين من الترك ، وأشهد إنها كانت تفوق الفرقتين التركيتين فى كل المزايا » .

وقال المسيو مريو فى كتابه مصر الحديثة يصف الجيش المصرى فى عهد سعيد باشا لمناسبة حرب القرم :

« إن كفاءة الفلاح المصرى فى فهم النظام الحربى ، واتباعه إياه ، وما اشتهر به من الثبات والشجاعة فى مواجهة الأعداء ؛ كل هذه المزايا قامت عليها البينات ، لا فى ميادين القتال بجزيرة العرب وسوريا فى عصر محمد على فحسب ، بل يحسن دفاع الجيش المصرى عن سلستريا وابباتوريا فى حرب القرم الأخيرة »[٧] .

وقد غرق الأميرال حسن باشا الاسكندرانى قائد الأسطول المصرى فى تلك الحرب ،

---

(٦) سليمان باشا للمسيو فانترينييه ص ٥٧٢ .

(٧) مصر الحديثة للمسيو مريوص ٤٢ .

وذلك أنه كان عائداً باسطوله إلى الاستانة لإصلاح بعض السفن ، فهبت على الأسطول ريح عاصفة ، وتكاثر عليه الضباب ، فحال دون اجتيازه بوغاز البوسفور بسلام ، واشتدت العاصفة عند مدخل البوغاز ، فاصطدمت السفينتان (مفتاح جهاد) (والبحيرة) فانكسرتا ، وغرق من بهما من الجنود والصباط ، وعددهم ١٩٢٠ مقاتل ، لم ينج منهم سوى ١٣٠ ، وكان من الغرقى حسن باشا الإسكندرانى وسنان بك من قواد الأسطول المصرى .

وانتهت حرب القرم بفوز تركيا وحلفائها على الروس وسقوط قلعة سباستبول ؛ وأبرم الصلح سنة ١٨٥٦ فى مؤتمر باريس الذى سلمت فيه الروسيا بمطالب الحلفاء .

٢ – حرب المكسيك

والحرب الثانية هى حرب المكسيك ، وقد تأخذك الدهشة من اشتراك مصر فى حرب المكسيك بأمريكا ، إذ لا ناقة لها فيها ولا جمل ، ولكن كذلك شاعت ميول سعيد نحو نابليون الثالث إمبراطور فرنسا فى ذلك العهد وصداقته له أن يلبى دعوته حينما طلب إليه أن يمده بقوة حربية مصرية تعاون الجيش الفرنسى بها .

كانت المكسيك جمهورية تتخللها الفتن والثورات ، كما هو شأنها إلى اليوم ، وكان يتولى رآسة جمهوريتها سنة ١٨٦١ المسيو جوارز Juarez ، فقامت بالبلاد فتنة بقصد إسقاطه وانتزاع السلطة من يده ، فصادفت هذه الحركة هوى فى نفس الإمبراطور نابليون الثالث ، واعتزم أن يعضدها ليبسط نفوذه على المكسيك ويؤسس بها إمبراطورية تحت رعايته . وتذرع بما لحق الرعايا الأوروبيين فى الحرب الأهلية من المضار ، فطالب الحكومة المكسيكية بتعويض هذه الخسائر . فلما رفضت ألب عليها انجلترا وأسبانيا ، ثم ما لبثت هاتان الدولتان أن نفضتا أيديهما من المسألة ، أما نابليون فقد جرد على المكسيك جيشاً كان مصيره إلى الهزيمة ، واستنجد فى خلال الحرب بصديقه سعيد باشا فسرعان ما أمده بكتيبة من الجنود السودانيين عددهم ١٢٠٠ مقاتل ، يقودهم البكباشى جبرة الله محمد السودانى ، والصاغ محمد افندى ألماس ، فأبحرت هذه القوة إلى المكسيك سنة ١٨٦٢ ، وأبلت فى الحرب هناك بلاء حسناً ، وشهد لها المارشال فورى Forey قائد الجيش الفرنسى بالشجاعة إذ قال عن جنودها : « إن هؤلاء

ليسوا من الجنود ، بل هم أسود[٨] » واستمرت الحرب سجالا بين الجيش الفرنسى وقوات الثورة ، وأعلنت الامبراطورية فى عاصمة المكسيك فترة من الزمن ، واعتلى عرشها الأرشيدوق مكسيمليان النمسوى سنة ١٨٦٤ ، ثم كانت الغلبة لقوات الثورة ، فجلا الفرنسيون عن البلاد ، وقتل الإمبراطور مكسيمليان رمياً بالرصاص سنة ١٨٦٧ ، وفى غضون ذلك ظلت الكتيبة المصرية تكافح فى تلك البلاد السحيقة نيفاً وأربع سنوات ، قتل فى خلالها البكباشى جبرة الله ، فخلفه ألماس افندى ، وفنى معظم رجالها ، ولم يبق منهم بعد إنتهاء الحرب سوى بقية من ضباطها ، ونحو ثلثمائة من جنودها ، ولما جلا الجيش الفرنسى عن المكسيك عادت الكتيبة إلى فرنسا ، فاستعرضها الأمبراطور نابليون الثالث ، يصحبه القائد المصرى شاهين باشا ، الذى كان يزور باريس وقتئذ ، فهنأ الأمبراطور ألماس أفندى على شجاعة الكتيبة وحسن نظامها ، ووزع الأوسمة على بعض المميزين من رجالها ، ورجعت إلى مصر فى مايو سنة ١٨٦٧ ، فاستعرضها الخديوى إسماعيل بسراى رأس التين بالإسكندرية ، وأمر بترقية طائفة منها ، وأقام لطيف باشا وزير البحرية مأدبة لضباطها تكريماً لهم ولسائر رجال الكتيبة .

السودان

مر عهد عباس الأول دون أن ينال السودان منه التفاتاً ما . ولم يحدث فى عهده مما يسترعى النظر سوى إنشاء المدرسة الابتدائية بالخرطوم ، وقد فصلنا الكلام عنها فى كتاب « عصر محمد على » (ص ٤٨٨ من الطبعة الأولى) .

وتولى منصب الحاكم العام للسودان فى عهد عباس خالد باشا الذى كان يشغله من عهد محمد على ، ثم عبد اللطيف باشا الذى أنشئت فى عهده مدرسة الخرطوم الابتدائية . ثم رستم باشا وقد مات بالخرطوم ، ثم إسماعيل باشا أبو جبل ، ثم سليم باشا ، ثم على باشا سرى .

ولما توفى عباس الأول وخلفه سعيد باشا نال السودان نصيباً من اهتمامه ، فقد اقتبس من أبيه فضيلة العناية بهذا الإقليم العظيم المتمم لمصر ، وفى أول عهده جعل على باشا شركس حكمداراً للسودان ، وأوفد أخاه الأمير عبد الحليم باشا للتفتيش على إدارته ، وإصلاح

---

(٨) راجع تاريخ هذه الكتيبة فى البحث المسهب المنشور فى مجلة مصر Revue d'Egypte بالسنة الأولى (١٨٩٤) ص ١٠٤ وما بعدها ، وما ذكره إسماعيل باشا سرهنك فى كتابه حقائق الأخبار ج ٢ ص ٢٧٦ .

شئونه ، ولكن الأمير لم يطل البقاء فيه ، لظهور وباء جعله يعجل بالعودة إلى مصر .

ثم اعتزم سعيد أن يزور السودان بنفسه ليتفقد أحواله كما فعل أبوه من قبل ، فذهب إليه يصحبه طائفة من خاصة رجاله وأصدقائه ، مثل راغب باشا . وذو الفقار باشا ، وإبراهيم بك النبراوى ، والمسيو فردينان دلسبس ، والدكتور أباته باشا ، وأراكيل بك أخى نوبار باشا وغيرهم ، ووصل إلى الخرطوم فى ١٦ يناير سنة ١٨٥٧ والتقى بأعيان الأهلين ، فقدموا له عرائض يشكون فيها من فداحة الضرائب ، ومظالم الحكام ، فاستمع لشكاياتهم ، وتألم لحالتهم ، وساورته يوماً فكرة إخلاء السودان ، ولكن أعيان البلاد ومشايخها توسلوا إليه أن يعدل عن رأيه ، محتجين بأن إخلاء السودان يؤدى لا محالة إلى تفاقم الحالة فيه ، إذ تعمه الفوضى . فعدل سعيد عن رأيه ، واعتزم إصلاح حالته ، فأمر بإعفاء الأهالى من المتأخر عليهم من الأموال ، وخفض الضرائب تخفيضاً عظيماً ووضع قاعدة ثابتة لتقدير قيمتها بأن جعلها تتبع عدد السواقى فى الأطيان ، لأن السواقى تبين مبلغ خصب الأرض ، ودرجة إنتاجها ، فجعل على مجموع الأرض التى تروى من ساقية واحدة ٢٠٠ قرش ، وأما الأطيان التى تروى من غير حاجة إلى السواقى فجعل على الفدان الواحد منها ضريبة تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ قرشاً .

وقرر عزل الموظفين الترك الذين كان الأهالى يشكون من سوء معاملتهم ، واعتزم تعويد الأهلين حكم أنفسهم بإنشاء مجالس محلية مؤلفة من أعضاء يختارون من رؤساء العشائر والعائلات[٩] ، ورفع المظالم عن الأهلين ، وفك أسار الكثيرين منهم ، ورسم بإلغاء السخرة ، وأمر مديرى الأقاليم السودانية بأن يحسنوا معاملة الأهلين ، وألا يرهقونهم فى جباية الضرائب ، وقضى ألا يعهد إلى الجنود فى تحصيل الضرائب لما اشتهر عنهم من القسوة .

ومن إصلاحاته بالسودان أنه أنشأ محطات فى صحراء (كروسكو) . لتسهيل نقل البريد والمسافرين بين مصر والسودان ، ونظم البريد بين مختلف أنحاء السودان ، وأنشأ نقطة عسكرية على نهر سوباط لمنع تجارة الرقيق ومطاردة النخاسين .

ولما عاد إلى مصر عهد إلى موجيل بك كبير المهندسين تسهيل سبيل المواصلات بين وادى حلفا والخرطوم ، فرأى موجيل بك أن خير وسيلة لإدراك هذا الغرض إنشاء سكة حديد ووضع مشروعاً لذلك ، ولكنه لم ينفذ لكثرة ما يقتضيه من النفقات ، وقد أبطل منصب الحاكم العام (حكمدار السودان) ، وجعل من السودان خمس مديريات مستقلة فى إدارتها

---

(٩) ذكر ذلك المسيو فردينان دلسبس فى كتابه (ذكريات أربعين سنة) ج ٢ ص ٤٨٨ .

بعضها عن بعض ، ترجع كل منها فى شئونها إلى وزارة الداخلية ، شأن مديريات القطر المصرى ، وجعل من الخرطوم وسنار مديرية واحدة وعين أراكيل بك نوبار مديراً لها ، لكى يشرف على الإصلاحات التى قررها ، وقد بقى يتولى منصبه إلى أن توفى سنة ١٨٥٨ ، ثم خلفه حسن بك سلامة حتى عزل ، وخلفه محمد بك راسخ .

ثم رأى سعيد باشا أن استقلال مديرى الأقاليم جعلهم يجنحون إلى الاستبداد والظلم ، ويسيئون إلى الأهلين ، فألغى استقلالهم ، وأعاد منصب حكمدار السودان ، وقلد موسى باشا حمدى هذا المنصب ، فكان من أعظم ولاة السودان شأناً ، وله فيه إصلاحات جمة ، منها أنه عين من الأهلين نظار أقسام (مأمورى مراكز) ، ومعاونين ، وعقد ورؤساءهم مجلساً ، وسن قوانين جديدة لتنظيم الضرائب ، وتسهيل جبايتها .

وقد عضد سعيد الرحلات والاكتشافات الجغرافية فى أنحاء السودان ، فكثر عدد المكتشفين فى عهده ، ولكنه لم يحذ حذو أبيه فى إيفاد بعثات مصرية كالبعثة التى أنفذها محمد على إلى السودان بقيادة البكباشى سليم بك قبطان أحد ضباط البحرية المصرية ، بل ترك أمر هذه الرحلات للمكتشفين الأجانب ، وهى ناحية ضعف وقع فيها هو وإسماعيل من بعده .

رحلة سعيد باشا إلى الحجاز

قصد سعيد إلى الحجاز فى أوائل سنة ١٨٦١ ، وتدل ملابسات هذه الرحلة على أن لها غرضًا سياسيًا ، فإنه لم يذهب إلى الحجاز فى موسم الحج واقتصر على زيارة المدينة المنورة ، وكانت الرحلة أشبه بتجريدة عسكرية ، إذكان يصحبه من الجند والحاشية نحو ألفى رجل من مشاة وفرسان ومدفعية وأتباع ، واختلفت الآراء فى الباعث لسعيد على هذه الرحلة ، ويؤخذ من رواية محمد بك صادق (باشا)[١٠] الذى رافق الأمير فى رحلته أن لها سببًا سياسيًا ، وهو استدعاء الحكومة التركية إياه للحضور إلى الآستانة ، فرفض الذهاب إليها ، واعتزم زيارة المدينة لكى يتمحل الأعذار ويجد مسوغًا للرفض ، وبدأ سعيد باشا رحلته فى ١١ رجب سنة ١٢٧٧ هـ (٢٣ يناير سنة ١٨٦١) فقصد من القاهرة فإلى السويس ، ومنها إلى (الوجه)

(١٠) فى بحثه المنشور بمجلة الجمعية الجغرافية عدد مايو سنة ١٨٨٠ ص ١٩ تحت عنوان المدينة منذ عشرين عاما Medine il y a vingt ans



سعيد باشا والى مصر

من سنة ١٨٥٤ إلى ١٨٦٣

من ثغور الحجاز ، ثم سارت الحملة براً إلى المدينة المنورة ، وصلتها فى أول شعبان (١٢ فبراير) ، وبعد أن زار سعيد باشا قبر المصطفى ﷺ غادر المدينة فى اليوم السادس منه ، وسار إلى ينبع ، ومنها استقل الباخرة (نجد) إلى السويس فوصل إليها فى ١٧ منه (٢٨ فبراير) .

التعليم

لم يوجه سعيد باشا عنايته إلى إحياء النهضة العلمية ، واستمر الجمود الذى أصابها فى عهد عباس ، وهذا موضع نقد شديد فى تاريخه .

وقد حاول المسيو (مريو) ، وهو من المعجبين بسعيد ، أن يتلمس مسوغاً لهذا التقصير المعيب ، فلم يجد ما ينهض بدفاعه ، قال فى كتابه (مصر الحديثة) :

« لا يخفى أن المدارس قد أهملها عباس ، فاصابها الاضمحلال والتدهور ، وبلغت حين تولى سعيد الحكم درجة من التقهقر والفوضى جعل الباشا يرى من الحكمة إقفالها نهائياً ، بدلا من السعى فى تنظيمها . إذ كان السعى عبثاً لا يجدى »[١١] .

وهذا دفاع كما ترى لا يسوغ عمل سعيد ، إذ ليس من المعقول ولا مما يقبله المنطق أن يعالج التقهقر فى المدارس بإقفالها ، بل العلاج المشروع هو تنظيمها وإصلاحها ، وإذا كانت عزيمة محمد على قد أوجدت المدارس من العدم ، فأسهل من ذلك إصلاح ما اختل من شئونها .

تولى سعيد الحكم وليس بالقطر المصرى من المدارس التى أنشئت فى عهد محمد على سوى النزر اليسير ؛ فلم يعمل على إحياء ما اندثر منها . بل ظهر عدم اكتراثه بشئون التعليم بإلغاء ديوان المدارس (وزارة المعارف) وكان يديره وقتئذ عبدى شكرى باشا وألغى أيضاً مدرسة المهندسخانة ببولاق سنة ١٨٥٤ ، وكان يتولى نظارتها العلامة على بك مبارك (باشا) فأنفذه سعيد ضمن الحملة التى أرسلها لمساعدة تركيا فى حرب القرم واغتنم هذه الفرصة لإقفال المدرسة ، وألغى أيضًا مدرسة (المفروزة) سنة ١٨٥٥ .

وأنشأ مدرسة حربية بالقلعة عهد بنظارتها إلى العلامة رفاعة بك رافع وسميت مدرسة أركان حرب .

---

(١١) مصر الحديثة . للمسيو مريو ص ٨٢ .

ثم أعاد سعيد فتح مدرسة المهندسخانة سنة ١٨٥٨ وجعلها مدرسة حربية نقلها إلى القلعة السعيدية بالقناطر الخيرية وسميت المدرسة الحربية ، وأعاد فتح المدرسة البحرية بالإسكندرية ، وفى عهده أقفلت مدرسة الطب بقصر العينى ، ثم أعاد فتحها سنة ١٨٥٦ وأنشأ بها مدرسة للقابلات عهد بنظارتها والتدريس فيها إلى السيدة جليلة تمرهان التى تلقت علومها الطبية فى مدرسة القابلات القديمة المنشأة على عهد محمد على والملغاة فى عهد عباس .

وفترت حركة البعثات العلمية فلم يرسل إلى أوروبا سوى ١٤ طالباً .

ومع جمود حركة التعليم إلى هذا الحد فإنه لم يبخل على البعثات الأجنبية الدينية بمساعداته كى تفتح مدارسها ، فمنح إعانات سنوية لراهبات البون باستور Bon Pasteur (الراعى الصالح) وكانت لهن مدرستان بمصر والإسكندرية ، ولراهبات الصدقة بالإسكندرية ، ووهب للبعثة الأمريكية بناء بمصر لتتخذه مدرسة لها ، وأعطى أول مدرسة إيطالية أنشأتها الحكومة الإيطالية بالإسكندرية إعانة قدرها ٢٤,٠٠٠ جنيه ، ووهب لها قطعة أرض فى أجود جهات الإسكندرية لتنشىء بها المدرسة ، فكانت عنايته بنشر التعليم الأجنبى أكبر من عنايته بنشر التعليم الأهلى ، وهذا من متناقضاته .

نظام الحكم فى عهد عباس وسعيد

النظام السياسى

بقى الحكم فى عهد عباس وسعيد حكماً مطلقاً يتولاه ولى الأمر إذ كان يجمع فى يده السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية ، فهو المرجع فى كليات الأمور وجزئياتها .

وأهمل (مجلس المشورة) الذى أسسه محمد على وانعقد على عهده حيناً وكان نواة لنظام شورى (راجع كتاب « عصر محمد على » ص ٥٧٢) فلم يظهر له أثر فى عهد عباس وسعيد .

المجلس الخصوصى

ذكرنا فى كتاب عصر محمد على (ص ٥٧٩) أن محمد على أنشأ سنة ١٨٤٧ مجلساً دعاه (المجلس الخصوصى) ، واختصاصه النظر فى شئون الحكومة الكبرى ، وسن اللوائح

والقوانين ، وإصدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة ، وكان يرأسه إبراهيم باشا .

وقد أعيد تأليف هذا المجلس فى عهد عباس الأول بمقتضى لائحة صدرت فى ٨ ربيع الآخر سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩) وتولى رئاسته الكتخدا باشا وهو أكبر موظف بالحكومة ، وأعضاؤه من كبار الذوات والعلماء ، واختص بنظر المسائل العامة للحكومة وسن اللوائح والقوانين وترتيب النّظم العمومية وتنصيب رؤساء المصالح الكبرى ، فكان بمنزلة مجلس النظار ، وتولى السلطة التشريعية ، وشاركه فيها مجلس الأحكام ، وقد بقى هذا المجلس قائماً إلى أن خلفه مجلس النظار فى عهد إسماعيل .

الوزارات

وفى سنة ١٨٥٧ أعاد سعيد باشا تنظيم الدواوين فجعل منها أربع وزارات وهى الداخلية ، وقد عهد بها إلى الأمير أحمد رفعت ، والمالية وعهد بها إلى الأمير مصطفى فاضل ، والحربية وتولاها الأمير محمد عبد الحليم ، والخارجية وتقلدها اسطفان بك أحد خريجى البعثات فى عهد محمد على .

النظام القضائى

مجلس الأحكام

وكان فى البلاد منذ عهد محمد على هيئة قضائية عليا تسمى (جمعية الحقانية) أنشئت سنة ١٨٤٢ وقد سميت هذه الهيئة منذ سنة ١٨٤٩ مجلس الأحكام ، وهو المجلس الذى كان له شأن كبير فى عهد سعيد وإسماعيل ، وكان بمثابة الهيئة الاستئنافية العليا فى البلاد ، ويتألف من تسعة أعضاء من الكبراء ومن عالمين أحدهما حنفى والآخر شافعى ، وكان أيضًا يشارك (المجلس الخصوصى) فى السلطة التشريعية .

مجالس أو محاكم الأقاليم

بقيت المحاكم الشرعية كما كانت فى عهد محمد على ، وبقى لها اختصاصها فى المسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية وانتقال الملكية ، غير أنه أنشئت محاكم أو « مجالس » جديدة

للفصل فى المسائل المدنية والتجارية سميت (مجالس الأقاليم) . بلغ عددها خمسة فى بدءة تأسيسها ، وهى (مجلس طنطا) ويختص بنظر قضايا الغربية والمنوفية والبحيرة . و (مجلس سمنود) ويختص بنظر قضايا الدقهلية والشرقية والقليوبية . و (مجلس الفشن) ويختص بنظر قضايا الجيزة والمنيا وبنى مزار وبنى سويف والفيوم . و (مجلس جرجا) ويختص بنظر قضايا أسيوط وإسنا وقنا ، و (مجلس الخرطوم) ويختص بنظر قضايا السودان .

وكان كل مجلس يتألف من رئيس وأربعة أعضاء ، وأربعة كتاب عدا (مجلس سمنود) فإنه يتألف من رئيس وعضوين .

وعين لكل مجلس اثنان من العلماء بوظائف مفتين أحدهما حنفى والآخر شافعى

وكان (المجلس الخصوصى) و (مجلس الأحكام) يصدران اللوائح والقوانين لهذه المجالس ، فكانا بمثابة الهيئتين التشريعيتين فى البلاد . ويتبين من ذلك أن مجلس الأحكام فوق كونه هيئة قضائية عليا كان أيضًا هيئة تشريعية .

ولاية القضاء

إن أهم إصلاح قضائى تم فى عهد سعيد أنه نال من السلطان حق اختيار القضاة بعد أن كان العمل جارياً على أن قاضى القضاة المولى من قبل السلطان هو الذى يعينهم[١٢] .

وهذا الإصلاح فضلاً عما فيه من تحقيق الاستقلال القضائى لمصر فإنه منع مصدراً من مصادر الفساد فى النظام القضائى ، فإن قاضى القضاة كان يعين القضاة حسبما تملى عليه أهواؤه ، وكثيراً ما يجعل تعيينهم مقابل جعل من المال . وفى ذلك من إفساد القضاء ما لا يخفى عن الأذهان .

إلغاء مجلس الأحكام ثم إعادته

وفى سنة ١٨٥٥ غضب سعيد باشا على مجلس الأحكام . فأصدر أمراً بإلغائه . وقيل إن سبب هذا الإلغاء اعتقاد سعيد باشا أن أعضاءه لم ينهجوا طريق الاستقامة . وقد أمر بإحالة الدعاوى التى كانت من خصائص المجلس على الأمير إسماعيل باشا (الخديو) وكلفه عرض

(١٢) مصر الحديثة للمسيو مريو ص ١ .

ما يلزم عرضه على سعيد باشا ذاته ، أى أنه لم ينشئ هيئة أخرى مكان مجلس الأحكام المذكور ، ولكنه رجع وأمر بإعادة تأليف مجلس الأحكام وأسند رئاسته إلى الأمير إسماعيل باشا سنة ١٨٥٦ ، وألفه من عشرين عضواً منهم أحد عشر عضواً من الأعيان وتسعة من الذوات .

ولم يمض عامان على تأليف هذا المجلس حتى عاد سعيد باشا وغضب عليه ، وكان سعيد مشهوراً بكثرة تقلبه فى الآراء والميول ، وسبب غضبه أنه انتهى إليه أن أعضاءه ارتكبوا الرشوة فى قضية عرضت عليهم ، فارتأى إلغاءه سنة ١٨٦٠ وألغى كذلك (مجالس الأقاليم) .

على أنه عاد بعد ذلك سنة ١٨٦١ وأمر بإعادة مجلس الأحكام وعين محمد شريف باشا (الذى صار فيما بعد الوزير المشهور) رئيساً له ، وكان من قبل ناظراً للخارجية ، وأعاد كذلك مجالس الأقاليم ، ولكنه اقتصر منها على مجلسين ، أحدهما بطنطا ، ويختص بنظر قضايا الوجه البحرى ، والثانى بأسيوط ، ويختص بنظر قضايا الوجه القبلى .

وكان العمل أمام (مجلس الأحكام) ومجالس الأقاليم يجرى طبقاً للقانون العثمانى والقوانين التى أصدرها سعيد باشا .

وكان مجلسا طنطا وأسيوط يحكمان ابتدائياً فى المنازعات ، ومجلس الأحكام ينظر فيها بصفة استئنافية ، ولما تولى الخديو إسماعيل أعاد تأليف مجالس الأقاليم بأن عممها فى المديريات كما سيجيء بيانه .

قضاء الأجانب

بقيت محاكم التجارة التى أنشئت فى عهد محمد على قائمة إلى عهد سعيد وإسماعيل وهى المسماة (مجالس التجار) فى الإسكندرية ومصر ، وكانت المحافظات والضبطيات تنظر فى المشاكل الخاصة بالأجانب ، ولكن كثرة نزوح الأجانب إلى مصر وما استتبعه من ازدياد هذه المشاكل جعل جهات الإدارة لا تستطيع التفرغ لحسمها ، فانشئ سنة ١٨٦١ مجلس خاص باسم (قومسيون مصر) أو مجلس القومسيون ، يتألف من رئيس مصرى وعضوين مصريين ، وعضو أوروبى ، وآخر يونانى ، وعضو إسرائيلى ، وآخر أرمنى [١٣] .

(١٣) انظر كتاب المحاماة لفتحى باشا زغلول ص ٨٥ ملحقات .

ويختص بنظر القضايا التى ترفع من الأجانب على الرعايا المحليين ، وللقنصليات أن ترسل مندوبًا من قبلها لحضور الجلسات ، وأحكامه تستأنف أمام (مجلس الأحكام) ولم يكن من اختصاصه النظر فى المسائل المتعلقة بالعقار ، بل كان النظر فيها من اختصاص المحاكم الشرعية باعتبارها وقتئذ المحاكم العادية فى البلاد .

ثغرات التدخل الأجنبى

اجتمع فى سعيد باشا عيبان جوهريان ، الأول : ضعف إرادته وقلة حظه من الحزم والعزم ، والثانى : وهو أكبر خطراً وأسوأ أثراً من الأول ، ونعنى به ثقته بالأجانب ثقة مطلقة ، بحيث لم يكن يقوى على أن يخالف لهم رأياً ، أو يرد لهم طلباً ، وقد اتخذ منهم بطانته وموضع سره ، فانفتحت فى كيان مصر ثغرات التدخل الأجنبى ، وأهم هذه الثغرات منح امتياز قناة السويس ، والاستدانة من البيوت المالية الأجنبية .

١ – امتياز قناة السويس

نظرة عامة

يعد مؤرخو أوروبا ، والفرنسيون منهم خاصة ، مشروع قناة السويس مفخرة سعيد باشا ، ويقولون إنه بهذا العمل قد أدى أعظم خدمة للإنسانية والحضارة ، وهم فيما يقولون إنما ينظرون إلى هذا العمل من وجهة النظر الأوروبية ، فلا شك أن قناة السويس قد أفادت التجارة الأوروبية فوائد كبرى ، بتقريبها طريق المواصلات بين أوروبا والشرق ، وأفادت أيضًا الاستعمار الأوروبى ، لأنها مكنت الدول الاستعمارية من إرسال الحملات والتجاريد الحربية من طريق القناة إلى آسيا وأفريقية لإخضاع ممالك الشرق وشعوبه ، ورفعت عن تلك الدول مشقات اجتياز طريق المحيط الأطلنطى ورأس الرجاء الصالح ، ذلك الطريق الطويل المحفوف بالمكاره والأخطار .

فمن الوجهة الأوروبية لا جدال فى أن فتح قناة السويس عاد بأعظم الفوائد على التجارة الأوروبية والاستعمار الأوروبى .

أما من وجهة النظر المصرية ، فالقناة كانت شؤمًا على البلاد واستقلالها ، لأنها أطمعت فيها دول الاستعمار ، وجعلتها تسعى سعيًا حثيثًا للاستيلاء على مصر ، وتضاعف جهودها القديمة لتحقيق هذا الغرض ، ومن المحقق أن مساعى انجلترا خاصة فى احتلال مصر قد تضاعفت واشتدت بعد أن شقت القناة أرض مصر ، وحجتها فى ذلك أنها أرادت الاطمئنان على هذا الطريق الجديد الواصل إلى الهند ، وتستأثر بوضع يدها عليه ، وهى حجة لا أساس لها من الحق والإنصاف ولكنها الأمر الواقع الذى توحى به مطامع الفتح والاستعمار ، فانجلترا بعد فتح القناة صارت أكثر تطلعًا وأقوى تحفزًا إلى احتلال مصر ، فلا عجب أن كانت مصر ضحية قناة السويس ، تلك حقيقة واقعة ، كان يجب أن لا تفوت سعيد باشا عندما منح امتياز القناة ، وأن يفطن إليها إسماعيل باشا عندما بذل تأييده للمشروع بعد اعتلائه العرش حتى وصل به إلى غايته .

وإذا كان المؤرخون الإفرنج يعدون مشروع القناة أكبر مفخرة لسعيد باشا ، فإننا نعده بالعكس أكبر غلطة له فى تاريخه ، لأنه بعمله هذا قد فتح باب التدخل الاستعمارى فى مصر على مصراعيه ، وجعلها هدفًا للمطامع الأوروبية .

ويزيد فى تبعته أنه كان عالمًا برأى أبيه العظيم محمد على ومعارضته فى فتح القناة ، ويعلم عندما منح امتيازه أنه خالف وصايا أبيه الذى كان يعد القناة بوسفوراً ثانيًا يجعل مصر واستقلالها عرضة للخطر .

إن المسألة المصرية قد دخلت دوراً جديداً بعد فتح القناة ، إذ صار ينظر إليها كأنها هى مسألة قناة السويس ، فكأنها اندمجت فيها ، وتبدلت أوضاعها تبعاً لهذا الاندماج ، وصار النظر إليها من ناحية الدول الاستعمارية مرتبطًا بوجهة نظرها فى مسألة القناة ، ومعلوم أن انجلترا جعلت خطتها فى مسألة القناة أن تسعى جهدها فى وضع يدها عليها وعلى الأرض التى تجتازها ، وأن يكون بيدها مفاتيح القناة ، ولذلك وضعت نصب عينيها أن تحتل مصر بعد أن تم فتح هذه الطريق البحرية الخطيرة الواصلة إلى مستعمراتها فى الشرق .

ففتح القناة يعادل فى تأثيره الاستعمارى بالنسبة للمسألة المصرية غزوة نابليون بونابرت ، فكما أن الحملة الفرنسية جعلت انجلترا تتطلع إلى احتلال مصر ، كذلك كان شأن قناة السويس ، والفارق بين الحادثين أن انجلترا قد أخفقت فى تحقيق مطامعها التى أثارتها الحملة الفرنسية ، وارتدت عن الكنانة دون أن تنال منها منالاً « وسويت المسألة المصرية فى عصر

محمد على طبقًا لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، تلك المعاهدة التى كفلت لمصر استقلالها الداخلى التام ، وبقيت المسألة المصرية سائرة على منهاج تلك المعاهدة إلى أن تم فتح القناة ، ومن ثم تغيرت أوضاعها ، وسعت انجلترا من جديد فى تحقيق أطماعها القديمة التى أخفقت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فلا جرم أن كان فتح القناة مقدمة دور جديد للمسألة المصرية ، ولقد كان هذا الدور شؤمًا على البلاد ، إذ اجتمعت فيه الظروف السيئة التى مكنت انجلترا من تحقيق أطماعها فى مصر ، فإن فتح القناة فى ذاته ، وبيع إسماعيل أسهم مصر فيها إلى الحكومة الإنجليزية ، قد هيأ لانجلترا أن تخطو أول خطوة نحو الاحتلال .

فسعيد باشا لم ينظر إلى القناة كعمل حيوى لمصر ، وأغلب الظن أنه لم يوازن بين مزاياها ، ومضارها ، بل نظر إلى فائدتها للإنسانية فحسب ، ولقد زينت له نصائح المسيو فرديناں دلسبس أنه بهذا العمل يعد من أكبر خدام الحضارة ، وبديهى أن النظر إلى القناة من وجهة فائدتها للإنسانية هو وهم لا يليق بالأمم التى تقدر معنى الوجود والحياة ، لأن حياة الأمة واستقلالها مقدمان على كل خدمة عامة للإنسانية ، وليس فى تاريخ الشعوب قديماً وحديثاً أمة رضيت أن تضحى بأية مصلحة لها مهما ضؤلت ، بَلْهُ استقلالها ، فى سبيل خدمة الإنسانية ، فالحق أن هذه أوهام لا تجوز إلا على الأمم المستضعفة ، فإننا على العكس نرى الأمم التى نتخذها مثالاً للتقدم والعظمة تهزأ بتلك الأوهام ، وتضحى بمصالح الأمم والإنسانية جمعاء تحقيقًا لأطماعها الاستعمارية بل تستبيح كل الوسائل فى سبيل السيطرة على العالم ، واستعباد الشعوب .

فمن أضعف النظريات وأبعدها عن العقل والمنطق أن يقال إن سعيد وإسماعيل يستحقان الإعجاب لأنهما خدما الإنسانية بإنفاذ مشروع القناة ، والحقيقة المؤلمة أنهما بعملهما هذا قد مهد السبيل لاحتلال انجلترا مصر .

والآن ننتقل من الإجمال إلى التفصيل فنقول : إن سعيد باشا بمنحه المسيو دلسبس امتياز القناة قد جلب على البلاد مضار جسيمة نذكرها فيما يلى :

أولا : أن القناة عرضت استقلال مصر للخطر ، ولم يكن هذا الخطر ليخفى على ذى بصيرة فى الأمور . فلقد أدركه السياسيون الأوروبيون من يوم البدء فى المشروع .

ومما يذكر فى هذا الصدد أنه لما تم منح الامتياز كتب المستر بروس Bruce قنصل انجلترا فى مصر وقتئذ إلى حكومته ينبئها بالخبر ، ويقول فى ختام رسالته : « إن فتح القناة سيؤدى إلى

ازدياد المواصلات التجارية بين أوروبا والبلاد الواقعة على البحر الأحمر ، وستنشأ طبعا مراكز للدول الأجنبية فى هذه البلاد .. ومن المنتظر أن تحدث منازعات بينها وبين تلك الشعوب ، فتتخذ ذريعة إلى التدخل المسلح فى شئونها ، وهذا التدخل يفضى إلى الاحتلال الدائم ، ويتوقع أن تحدث هذه النتائج فى مصر ذاتها » .

فهذا التنبؤ الذى أدركه القنصل الإنجليزى سنة ١٨٥٤ هو ما كان يجب أن يتوقعه كل من عنده قليل من بعد النظر فى السياسة ؛ وهو ما وقع على مر السنين ، فإن انجلترا بعد أن تم فتح القناة سعت سعيها فى احتلال مصر ، وتم لها ذلك سنة ١٨٨٢ أى بعد اثنى عشر عاماً من افتتاح القناة للملاحة ، إذ كان افتتاحها سنة ١٨٦٩ ، ومن مصادفات القدر أنه عندما فتحت القناة كان المستر غلادستون على رأس الوزارة الإنجليزية ، وعندما احتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ كان هو أيضًا يشغل هذا المنصب .

ويدخل فى هذا السياق ، أنه لما اشتدت معارضة انجلترا فى فتح القناة ، وجرت مفاوضات بشأن إقناعها بالعدول عن معارضتها ، كان مما اشترطته الحكومة الإنجليزية لموافقتها على المشروع احتلالها السويس ، وحمايتها للقناة ، فيتبين من ذلك أن انجلترا لم تكن تخفى نياتها الاستعمارية نحو مصر عند إنشاء القناة ، ولم يكن خافياً أن هذا المشروع يجعل استقلال مصر هدفاً لمطامعها الاستعمارية .

وفى هذا الصدد يقول مؤلف (تاريخ مصر المالى) وهو من الكتاب الأوروبيين المشهود لهم بالاعتدال وأصالة الرأى : « إن منح امتياز القناة إلى المسيو دلسبس قد فتح أبواب الدلتا على مصراعيها للأوروبيين »[١٤] .

ويقول المسيو كوشرى Cocheris : « إن بدء الارتباكات المالية والتدخل الأوروبى المشئوم فى شئون مصر يرجع فى الحقيقة إلى سنة ١٨٥٤ وهى السنة التى منح فيها امتياز قناة السويس إلى المسيو دلسبس »[١٥] .

ثانياً : أن سعيد باشا بقبوله إنشاء القناة على يد شركة أجنبية فتح ثغرة ثانية للتدخل الأجنبى ، وكان الضرر أخف وطأة لو فتحتها مصر بنفسها ولحسابها .

---

(١٤) تاريخ مصر المالى ص ٣ لمؤلف لم يعلن اسمه (ولعله المسيو بابونو Paponot) ويعد كتابه من أهم المراجع فى بيان حالة مصر المالية على عهد سعيد وإسماعيل .

(١٥) المركز الدولى لمصر والسودان للمسيو كوشرى ص ٦٧ .

ثالثًا : أنه أسرف فى منح الشركة امتيازات وحقوقًا جعلتها شريكة مصر فى سيادتها وجعلت منها حكومة داخل الحكومة كما سيجىء بيانه .

رابعًا : لم تستفد مصر من الوجهة الاقتصادية فائدة ما من القناة ، بل على العكس أضرتها اقتصاديًا ، لأن طريق التجارة بين أوروبا والشرق تحولت من داخل مصر إلى القناة المائية التى أصبحت ملكًا لشركة أوروبية ، فخسرت مصر الأرباح التى كانت تعود عليها من مرور المتاجر فى وسط الدلتا بطريق النيل أو السكك الحديدية المصرية ، وانتقلت هذه الأرباح إلى شركة القناة ، وهذا من غير شك خسران كبير .

خامسًا : على الرغم من مضار المشروع لمصر فإنها أنفقت عليه من مالها نيفًا وستة عشر مليون جنيه ، بذلت فى أسهم اكتتبت فيها ، وأملاك تنازلت عنها ، وأعمال قامت بها . وتعويضات أدتها للشركة ، وقد خسرت هذه الملايين فى وقت كانت أحوج ما تكون إليها ولإنفاذ مشروع كان شؤمًا عليها من كل الوجوه .

ولئن عادت القناة يومًا إلى مصر فلا يمكن أن ننسى أن مصر خسرت فيها ثمنًا باهظًا وتضحيات جسيمة ، ويكفى أنها بذلت لها ستة عشر مليون جنيه من أموالها ، ثم حرمت ما هو أعز من المال ، وهو الاستقلال ، وعندما تسترد مصر استقلالها تامًا فستكون قد حرمت استقلالها بسبب القناة ردحًا طويلاً من الزمن ، وهو حرمان لا يعوض بمال .

نبذة وجيزة فى تاريخ المشروع

لم يسبق لحكومة مصرية قديمة أو حديثة أن وصلت البحرين الأبيض والأحمر بقناة ملحة تخترق برزخ السويس .

فى عهد الفراعنة والفتح الإسلامى

وإنما وقع الاتصال عن طريق النيل ، فكانت ترعة الفراعنة القديمة تخرج من فرع النيل البيلوزى القديم ، وتسير بمحاذاة وادى الطميلات ، ثم تنثنى جنوبًا فتخترق البحيرات المرة ، ثم تصب فى البحر الأحمر .

وفى عهد الفتح الإسلامى أنشأ عمرو بن العاص « الخليج » المعروف بخليج أمير المؤمنين ،

بأمر الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة ٢٣ هجرية ، وكان يصل النيل بالبحر الأحمر ، ويبدأ من مصر القديمة ، حيث يبتدئ خليج مصر اليوم حتى القاهرة ، ومنها إلى المطرية . ومنها إلى العباسة ، ثم يتبع آثار ترعة الفراعنة القديمة .

فى عهد الحملة الفرنسية

وفى عهد الحملة الفرنسية فكر نابليون كما أسلفنا فى الجزء الأول من تاريخ الحركة القومية (ص ١٢٤) فى وصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط ، وعهد بدرس هذا المشروع إلى المسيو (لوبير) كبير مهندسى الرى والطرق والجسور ، فقضى عامين فى درسه وفحصه ، وعاونه فيه بعض مهندسى الحملة ، وقدم تقريراً إلى نابليون بعد مغادرته مصر ، وكان تصميم المشروع كما وضعه المسيو لوبير أن تحفر قناة من السويس إلى البحيرات المرة ، ويعاد حفر خليج أمير المؤمنين إلى أن يتلاقى مع بحر مويس بقرب بوباسط (الزقازيق) ، ومن بحر مويس إلى فرع دمياط ، ومنه إلى ترعة الفرعونية ، ومنها إلى فرع رشيد ، ومنه إلى الإسكندرية بواسطة ترعة الإسكندرية ، وحبذ المسيو لوبير أيضاً فكرة وصل البحرين رأساً بواسطة ترعة أخرى تخترق برزخ السويس ، فيما بين بيلوز (الطينة) على البحر الأبيض المتوسط ، ومدينة السويس على البحر الأحمر ، غير أنه اعتقد خطئًا أن البحر الأحمر يعلو عن سطح البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار ، وقد نشر لوبير مشروعه فى كتاب (تخطيط مصر) بالجزء الحادى عشر ، وفيه بحث مستفيض عن تخطيط ترعة الفراعنة القديمة ، وخليج أمير المؤمنين ، وتخطيط الجهات التى ينفذ فيها المشروع ، ونفقات إنفاذه ، ويقع هذا البحث فى أكثر من ثلثمائة صفحة ، وهو من أجلّ الأبحاث التى وضعها علماء الحملة الفرنسية .

فى عهد محمد على

جاء المسيو فرديناند دلسبس إلى مصر لأول مرة سنة ١٨٣١ ، على عهد محمد على باشا ، متوليًا منصب مساعد للقنصل الفرنسى ، فأبدى الباشا نحوه عطفاً كبيراً لما كان بينه وبين أبيه الكونت ماتيو دلسبس Mathieu Delesseps من صلات الصداقة القديمة منذ كان قنصلاً لفرنسا فى مصر سنة ١٨٠٣ . واتصل فرديناند دلسبس بالأمير محمد سعيد ، إذ عهد

إليه أبوه أن يعنى بتربيته الرياضية ، فتعلم الأمير على يده أنواع الرياضة والمهارة فى ركوب الخيل ، ومن هنا نشأت صلات الود بينهما ، واستمرت صداقتهما طول حياة سعيد باشا .

وقد وقع فى يد المسيو دلسبس وهو فى الإسكندرية بحث المسيو لوبير عن وصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر ، وأكب على هذا هذا البحث يدرسه درساً عميقاً ، فلم يلبث أن اتجهت نفسه إلى تحقيق مشروع الاتصال بين البحرين بقناة بحرية ، ثم انتقل من منصبه بالقطر المصرى ، وطوحت به المناصب السياسية إلى مختلف الأقطار ، على أنه كان لا يفتأ يفكر فى أمر هذا المشروع .

لجنة سنة ١٨٤٦

وكان مشروع وصل البحرين بقناة ملحة موضع البحث والتفكير فى أوروبا بين مختلف المهندسين من يوم أن وضع المسيو لوبير تقريره عنه فى عهد نابليون ، وكان الخطأ الذى وقع فيه المسيو لوبير إذ ظن أن البحر الأحمر يعلو عن سطح البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار عقبة يراها رجال الفن حائلة دون إمكان وصل البحرين عن طريق برزخ السويس .

على أنه فى سنة ١٨٤٦ تألفت من بعض المهندسين من مختلف الأمم لجنة فنية لدرس مشروع حفر القناة ، وجاء أعضاؤها إلى مصر لفحص المشروع فى أواخر عهد محمد على ، واستمروا على عهد عباس ، وعاونتهم الحكومة فى إجراء تلك المباحث ، وعهدت بتخطيط المواقع إلى بعض كبار المهندسين مثل لينان بك (باشا) وسلامة أفندى إبراهيم (باشا) وإبراهيم بك رمضان وطائل أفندى وغيرهم ، وانتهت اللجنة إلى فرق مستوى البحرين ليس أمراً ذا بال ، ورأت الوصل بينهما بشق ترعة تجتاز الدلتا .

وكان محمد على منذ البداية معرضاً عن مشروع القناة ، غير راغب فيه ، لما يتوقعه إذا تم من العواقب الوخيمة ، فلم يستجب لدعوة المهندسين والماليين الأوروبيين الذين زينوا له المشروع ، بل كان يردهم بلطف وحكمة ، ويعدهم ويمنيهم ، وفى الوقت نفسه يضمر الإعراض عن هذا المشروع حتى انتهى حكمه .

وقد بلغ به بعد النظر أنه لم يقبل أن يعهد إلى شركة إنجليزية مد سكة حديد بين القاهرة والسويس ، حتى لا تكون هذه السكة ذريعة إلى التدخل الأجنبى ؛ وكذلك أعرض عباس

باشا الأول عن مشروع القناة ، وضرب صفحًا عن أبحاث اللجنة . وحاول المسيو فرديناں دلسبس أن يقنعه بفائدة المشروع ، وأرسل تقريرًا عنه إلى المسيو رويسنر Ruyssanaers قنصل هولندا العام فى مصر ليعرضه على عباس ، ولكن الفكرة لم تلق من الأمير قبولاً . واتجه فكره إلى تسهيل سبيل المواصلات بطريق البر بين الإسكندرية والسويس ، بدلاً من شق ترعة ملحة بين البحرين ، فأصلح الطريق بين مصر والسويس ، وجعله صالحًا لمرور العربات من غير عناء ولا مشقة ، ثم شرع فى إنشاء سكة الحديد بين الإسكندرية والقاهرة كما تقدم بيانه ، ويئس المسيو دلسبس من نجاح مشروعه على يد عباس الأول .

فى عهد سعيد

فلما مات عباس وتولى الحكم سعيد باشا استبشر المسيو فرديناں دلسبس خيرًا بنجاح فكرته ، على يد صديقه القديم ، فأرسل إليه يهنئه بارتقاء العرش ، ويبلغه عزمه على الحضور ليقدم له فروض التهانى ، فأجابه سعيد على تهنئته ، واستدعاه إلى مصر ، فسرعان ما جاء الإسكندرية (فى نوفمبر سنة ١٨٥٤) ، وقابله الباشا بحفاوة كبيرة ، ذاكراً صداقته القديمة ، ثم اصطحبه فى رحلة من رحلاته الحربية التى كان يسير فيها على رأس جنده ، وسار معه من الإسكندرية إلى مصر عن طريق الصحراء الغربية ، وكان الأمير يقود فى هذه الرحلة جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل .

فاغتنم المسيو دلسبس هذه الفرصة ليفاتح سعيد باشا فى أمر المشروع ، وكان لمهارته فى ركوب الخيل أثر فى تمهيد السبيل لنجاح مسعاه ، ذلك أنه امتطى صهوة جواد أهداه له الأمير ، فوثب به يومًا عن حاجز من الأحجار ، على مرأى من قواد الجند من حاشية سعيد ، فأعجبوا به وبمهارته وفروسيته ، وفى مقدمة المعجبين به ذو الفقار باشا وزير المالية الذى كانت له منزلة كبيرة لدى سعيد باشا .

ففى اليوم التالى ، فاتح المسيو دلسبس سعيد باشا فى أمر المشروع ، وزين له أنه إذا وفق اليد خلد ذكره واكتسب ثناء العالم بأسره[١٦] ، بالرغم من أن سعيد باشا كان يصرح بأنه لا يخالف وصايا أبيه فى الإعراض عن فتح القناة ، فإنه ضعف أمام إغراء المسيو دلسبس ،

(١٦) مراسلات ويوميات ووثائق عن قناة السويس للمسيو دلسبس ج ١ ص ٤ .

وقبل المشروع ، ووعده بمساعدته ، وتأييده فى تحقيقه ، واستدعى قواد جنده ، وعرض عليهم الفكرة ، وكانوا متأثرين إعجاباً بفروسية المسيو دلسبس ، فسارعوا إلى استحسان المشروع ، دون أن يبحثوه ، أو يوازنوا بين مضاره ومزاياه ، فكانوا هم وسعيد فى قصر النظر سواء .

فانظر إلى ما صارت إليه شئون الدولة فى عهد سعيد ، وكيف كانت عظائم الأمور يبت فيها من غير بحث أو روية ، ولا نظر فى العواقب ، وهذا من أسباب الضعف الذى أصاب مصر فى عهد خلفاء محمد على ، وإنه لما يدعو إلى الدهشة والألم معاً ، أن مشروعاً خطيراً كقناة السويس يقرر فى رحلة صحراوية ، من غير تمحيص ولا تفكير ، وأن مجرد إعجاب « رجال الدولة » بفروسية المسيو دلسبس ومهارته فى ركوب الخيل كان كافياً لإقرار المشروع . . !

ولم يفت المسيو دلسبس ملاحظة هذه الحقيقة المؤلمة ، فقد أشار إليها ، فى شىء من التهكم والسخرية ، قال فى هذا الصدد : « جمع سعيد باشا قواد جنده ، وشاورهم فى الأمر ، ولما كانوا على استعداد لتقدير من يجيد ركوب الخيل ويقفز بجواده على الحواجز والخنادق أكثر من تقديرهم للرجل العالم المثقف ، انحازوا إلى جانبى ، ولما عرض عليهم الباشا تقريرى عن المشروع ، بادروا إلى القول بأنه لا يصح أن يرفض طلب صديقه ، وكانت النتيجة أن منحنى الباشا ذلك الامتياز العظيم »[١٧] .

وقال فى موضع آخر : « بعد أن قبل سعيد باشا المشروع واستدعى قواد جنده ، ودعاهم إلى الجلوس أمامه ، وقص عليهم الحديث الذى دار بيننا ، وطلب إليهم أن يبدوا رأيهم فى مشروع « صديقه » ، فلم يكن من هؤلاء المستشارين ، وقد فوجئوا بهذا الاقتراح وهم أقدر على إبداء الرأى فى مناورات الخيل منهم فى التكلم عن مشروع عظيم لا يستطيعون فهم مراميه ، إلا أن نظروا إلىّ بملء أعينهم ، كأنما يريدون إفهامى أن صديق مولاهم الذى رأوه يقفز على الحائط راكباً جواده بتلك المهارة ، لا يمكن أن يدلى إلا بآراء صائبة ، وكانوا أثناء الحديث يرفعون أيديهم إلى رءوسهم بين آونة وأخرى علامة على الموافقة »[١٨] .

وذكر عن سعيد باشا ذاته (ص ٥٧) أنه قال له بعد أن منحه الامتياز : « أعترف لك بأنى لم أفكر طويلا فى الموضوع ، وإنما هى مسألة شعور ، وليس من عادتى أن أقلد الناس فى ما يتبعون ويعلمون » .

---

(١٧) أصول قناة السويس ص ١٥ .

(١٨) أصول قناة السويس ص ٤٠ .

منح امتياز القناة

(٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤)

ولما بلغ سعيد باشا القاهرة أنزل المسيو دلسبس ضيفًا عنده . محفوفًا بالإكرام والرعاية ، ولم تمض أيام معدودات حتى منحه بمقتضى العقد المؤرخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ امتياز تأسيس شركة عامة لحفر قناة السويس ، واستثمارها لمدة ٩٩ سنة ابتداء من تاريخ فتح القناة للملاحة[١٩]. وهكذا نال دلسبس بغيته التي كان يسعى لها منذ ثلاث وعشرين سنة .

وهذا العقد هو المعروف بعقد الامتياز الأول : تمييزًا له عن عقد الامتياز الثانى المؤرخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦ الذى سيرد الكلام عنه .

وقد عهد سعيد باشا إلى مهندسيه لينان بك ، وموجيل بك . أن يرافقا المسيو دلسبس إلى برزخ السويس ، لدرس المشروع وتطبيقه على طبيعة الأرض ، ورفع تقرير إليه عن نتيجة مباحثهم ، وكان رأيهما من قبل فى جانب المشروع .

فقام المهندسان الفرنسيان والمسيو دلسبس بهذه المهمة ، وانتهى بهم البحث إلى الاتفاق على طريقة تنفيذ المشروع ، وهى أن تنشأ القناة مستقيمة فى أضيق نقطة فى البرزخ : بين موقع بيلوزة (بور سعيد الآن) على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر .

حصص التأسيس

ثم جمع المسيو دلسبس من بعض الماليين حصص التأسيس لشركة القناة التى أزمع تأليفها ، وجعل قيمة الحصة خمسة آلاف فرنك (٢٠٠ جنيه) وخصص قيمة هذه الحصص لنفقات المشروع الأولى ، على أن تحول قيمة الحصص إلى أسهم خاصة فى الشركة عندما يتم تأليفها .

---

(١٩) فتحت القناة للملاحة يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ أى أن مدة الامتياز تنتهى فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٨ وتصبح القناة بعدها ملكًا لمصر.

لجنة دولية لدرس المشروع

وانتخب المسيو دلسبس باتفاقه مع سعيد باشا (فى نوفمبر سنة ١٨٥٥) لجنة دولية من المهندسين الفنيين لدراسة المشروع ثانية ، بعد اطلاعها على تقرير لينان بك وموجيل بك ، لتبدى رأيها فى صلاح المشروع وإمكان تنفيذه ، وذلك حتى يطمئن الناس إلى نجاحه ، فيقبلون على الاكتتاب فى أسهم الشركة عند تأليفها .

فذهب أعضاء اللجنة إلى برزخ السويس ، وأجروا مباحثهم الهندسية ، ووافقوا على المشروع كما وضعه لينان وموجيل ، بعد أن ثبت لهم أن سطح البحرين واحد ، وأن الأرض صالحة لاجتياز القناة الملحة .

شروط الامتياز

(٥ يناير سنة ١٨٥٦)

ولما أتمت اللجنة مباحثها عرض المسيو دلسبس نتيجة هذه المباحث على سعيد باشا ، فأصدر له عقد الامتياز الثانى بتاريخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦م – (٢٦ ربيع الآخر سنة ١٢٧٢ هـ) . صدق فيه على الامتياز السابق منحه إلى المسيو دلسبس . وضمّنه شروط الامتياز التى خولها الشركة ، وكانت شروطًا فادحة ، لا ترضى بها حكومة رشيدة ساهرة على مصالح البلاد ، وهاك خلاصتها :

١ – منحت الحكومة الشركة امتياز إنشاء قناة السويس بين خليج الطينة على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر . وإنشاء ترعة للمياه العذبة صالحة للملاحة النيلية تستقى من النيل ، وتصب فى القناة الملحة ، وإنشاء فرعين للرى والشرب يستمدان مياههما من الترعة المذكورة ، ويصلان إلى السويس والطينة (بور سعيد) (مادة ١ من عقد الامتياز) .

٢ – تنازلت الحكومة للشركة مجانًا عن جميع الأراضى المملوكة لها والمطلوبة لإنشاء القناة الملحة وترعة المياه العذبة وتوابعها ، وهى مساحات شاسعة على طول القناة والترع المزمع

إنشاؤها ، بعرض كيلو مترين من الجانبين[٢٠]. تنازلت عنها الحكومة بلا مقابل ، مع إعفائها على الدوام من الضرائب ، وتنازلت أيضًا عن جميع الأراضى القابلة للزراعة لتستصلحها الشركة وترويها وتزرعها ، مع إعفاء هذه الأطيان من الضرائب مدة عشر سنوات من تاريخ استثمارها (مادة ١٠) .

٣ – خولت الشركة (عدا ما تقدم) حق انتزاع الأراضى المملوكة للأفراد مما ترى لزومها لإجراء الأعمال والانتفاع بالامتياز ، فى مقابل أن تدفع الشركة لأصحابها تعويضات « عادلة » (مادة ١٢) . ومعنى ذلك نزع ملكية الأفراد لمصلحة الشركة .

٤ – على أصحاب الأطيان الواقعة أملاكهم على ضفاف الترع التى تنشئها الشركة إذا أرادوا رى أراضيهم بمياهها أن يحصلوا على ترخيص بذلك من الشركة فى مقابل تعويض يؤدونه لها (مادة ٨) .

٥ – منحت الحكومة الشركة طول مدة الامتياز الحق فى أن تستخرج من المناجم والمحاجر الأميرية كل المواد اللازمة لأعمال المبانى وصيانتها وملحقات المشروع ، دون دفع أى رسم أو ضريبة أو تعويض ، وتعفى الحكومة الشركة من الرسوم الجمركية ، والعوايد عن جميع الآلات والمواد التى تستوردها من الخارج (مادة ١٣) .

٦ – حدد أجل الامتياز بمدة ٩٩ سنة من افتتاح القناة البحرية للملاحة ، وبعد انتهاء هذه المدة تؤول القناة إلى الحكومة المصرية (مادة ١٦) .

ولكن هذه المادة قيدت هذا الحق بشرط قد يؤدى إلى تعطيله ، أو يفتح بابا للمشاكل ، وهو وجوب أخذ الحكومة فى هذه الحالة جميع المهمات والمعدات Materiel et approvisionnements المخصصة لأعمال المشروع البحرية ، وأن تدفع للشركة قيمتها التى تقدر بالتراضى أو بناء على تقدير الخبراء .

وليس ما يمنع الشركة أن تبالغ فى تقويم المعدات التى خصصتها أو تخصصها فى المستقبل للمشروع ، أو أن تتعمد الإسراف فيها لتعجيز الحكومة ، ولكى تخلق العقبات التى تعترض حق مصر فى استرداد القناة .

ثم إن المادة ١٦ لم تذكر شيئاً عن المنشآت التابعة لها ، كالمبانى ، وقد كان العقد الأول (مادة ١٠) ينص على أن شأنها شأن القناة فى رجوعها للحكومة . دون مقابل ، فالعقد الثانى

(٢٠) مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة للمسيو دلسبس ج ٢ ص ٣٥٦ .

كما ترى صيغ فى أسلوب مجحف بحقوق مصر كل الإجحاف ، وهذا يدلك على الروح التى أملت شروطه ، وأغلب الظن أن سعيد باشا ترك تحريره إلى « صديقه » المسيو دلسبس (كما يصفه فى العقد) ولم يراجعه فى شىء من نصوصه .

٧ – خُولت الشركة حق فرض ما تشاء من الرسوم على السفن التى تمر فى القناة البحرية أو الترع والثغور التابعة لها على شرط أن لا تزيد فى النهاية العظمى عن عشرة فرنكات عن كل طن وكل شخص من المسافرين (مادة ١٧) .

٨ – فى مقابل الأراضى والامتيازات الممنوحة للشركة تحصل الحكومة المصرية على حصة قدرها ١٥ فى المائة من صافى الأرباح السنوية (مادة ١٨) .

وقد خسرت مصر هذه الحصة سنة ١٨٧٩ ، وذلك أنه لما ارتبكت أحوالها المالية بسبب إسراف إسماعيل باعت هذا النصيب إلى البنك العقارى بفرنسا مقابل ٢٢ مليون فرنك .

٩ – يكون أربعة أخماس العمال من المصريين (مادة ٢) . وتعهدت الحكومة ببذل مساعدتها للشركة وتكليف جميع موظفيها وعمالها فى جميع دوائر المصالح أن يمدوا الشركة بمساعداتهم لها (مادة ٢٢) . وقد فسرت الشركة هذه النصوص على أنها تعهد من الحكومة بتسخير أربعة أخماس العدد الذى تطلبه الشركة من العمال ، وأن يكونوا من الفعلة والفلاحين المصريين لإجراء أعمال الحفر والإنشاء ووضعهم تحت تصرف الشركة لتشغيلهم فيما تريده من الأعمال مقابل دفع أجورهم .

وكان عقد الامتياز الأول (مادة-٢) يخول الحكومة حق تعيين مديرى الشركة ولكن هذا الحق لم يظهر له أثر فى عقد الامتياز الثانى ، وهذ العقد يقضى بإلغاء النصوص الواردة فى العقد الأول مما يخالف أحكام العقد الثانى ، واقتصرت المادة (٢٠) من العقد الثانى على أنه : « يرأس الشركة ويديرها صديقنا ووكيلنا المسيو فردينان دلسبس بصفته المؤسس لها طوال المدة التى تستغرقها الأعمال ، ثم لمدة أخرى قدرها عشر سنوات تبتدئ من تاريخ استغلال الامتياز » ، ومعنى ذلك أن الحكومة المصرية خسرت فى عقد الامتياز الثانى حق تعيين مديرى الشركة ، وحفظ لها فقط حق تعيين « مندوب » عنها لدى الشركة يمثل حقوق الحكومة ومصالحها فى تنفيذ العقد .

وكان العقد الأول ينص (بالمادة ٤) على أن الحصون التى ترى الحكومة لزوم إنشائها فى منطقة القناة لا تكلف بها الشركة ، وقد أغفل هذا النص فى العقد الثانى ، وفسر إغفاله بأن

لا حق للحكومة فى إقامة الحصون فى هذه المنطقة .

وإنك لترى فى هذه الشروط روح التساهل والإسراف التى تعاقد بها سعيد باشا مع الشركة ، فإنه خولها مزايا جعلها تشارك الحكومة المصرية فى حقوق ملكيتها العامة وسيادتها ، وملكها مرافق ومنافع عامة ليس للأفراد من أهل البلاد حق تملكها ، وهكذا جعل منها دولة داخل الدولة المصرية ، وليس من عجب أن يحوى عقد الامتياز تلك الشروط الفادحة فإن المسيو دلسبس هو الذى تولى تحرير العقد ووضع فيه ما شاء من النصوص والأحكام .

مقاومة انجلترا للمشروع

اشترط سعيد باشا لصحة الامتياز أن يصدق عليه السلطان العثمانى ، على أنه كان معتزمًا تنفيذه بصرف النظر عن هذا التصديق ، وأعطى المسيو دلسبس العهود والمواثيق ألا ينظر إلى هذا التصديق إلا كمظهر شكلى ليس بذى بال ، وفى الواقع إن ما نالته مصر من حقوق الاستقلال الداخلى طبقًا لمعاهدة لندن لا يجعل مثل هذا التصديق ضروريًّا لصحة الامتياز ، ولكن دلسبس أراد زيادة الاطمئنان على مشروعه ، فذهب إلى الآستانة يلتمس فرمان التصديق . فألفى مناهضة للمشروع من السفير البريطانى بإيعاز من اللورد بالمرستون وزير خارجية انجلترا فى ذلك الحين .

وكانت السياسة الإنجليزية ترمى حينذاك إلى عرقلة المشروع خشية امتداد النفوذ الفرنسى فى مصر ، وخوفًا على طريق المرور إلى الهند تحت سيطرة دولة سواها .

فقاومت المشروع من طريق الحكومة التركية ، إذ حرضتها على رفض التصديق ، ثم من طريق الأسواق المالية إذ ألقت فى روع الماليين أن المشروع خيالى لا يمكن تحقيقه .

معاضدة سعيد للمشروع

على أن سعيد باشا قابل هذه المقاومة بمعاضدة المسيو دلسبس فى مشروعه ، وكانت صداقته لدلسبس تدفعه إلى تذليل العقبات لإنجاح المشروع ، فبذل له أولاً المبالغ المتوفرة فى خزانة الحكومة وقتئذ وقدرها ١٠٠ ألف جنيه ليستعين بها على العمل .

تأليف الشركة

وفى ٥ نوفمبر ١٨٥٨ عرض دلسبس أسهم الشركة للاكتتاب العام بفرنسا وغيرها من البلدان ، فلقيت إقبالا عظيما ، وغطت أسهم الاكتتاب عدة مرات ، وتألفت الشركة فى ديسمبر سنة ١٨٥٨ .

وجعل رأس مالها ٢٠٠ مليون فرنك (٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه تقريباً) موزعة على ٤٠٠,٠٠٠ سهم ، قيمة السهم خمسمائة فرنك (٢٠ جنيها) ، ثم قسم السهم إلى نصفين فصار عدد الأسهم ٨٠٠,٠٠٠ سهم ، وقد صارت قيمة السهم الأصلى الآن (سنة ١٩٣٢) حوالى ١٥٠٠٠ فرنك بعد أن كانت ٥٠٠ فرنك » .

واكتتب سعيد باشا بـ ١٧٧,٦٤٢ سهماً[٢١] أن بما يقرب من نصف مجموع الأسهم ، ودفع جزءاً من ثمنها وقسط الباقى على سنوات .

البدء فى حفر القناة

(٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩)

وفى ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ ذهب المسيو دلسبس يصحبه أعضاء مجلس إدارة الشركة إلى شاطئ البحر الأبيض ، فى الموقع الذى أنشئت فيه بعد ذلك مدينة بورسعيد ، وأقيم هناك احتفال حافل ضرب فيه دلسبس أول معول فى أرض القناة ، واقتدى به الحاضرون ، فكانت تلك الضربة إيذاناً بالشروع فى العمل ، وكانت فى الواقع أول ضربة فى صرح استقلال مصر.

ثم أخذ العمال يعملون فى حفر الأرض ، ولم يكن قد صدر الفرمان العثمانى بالتصديق على الامتياز ، ولكن سعيد أراد أن يضع تركيا وانجلترا أمام الأمر الواقع ، ويعضد المشروع بكل ما لديه من حول وقوة ومال .

وقد هاج هذا العمل غضب الحكومة الإنجليزية . فسعت سعيها لدى تركيا لوقف العمل ،

---

(٢١) مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة ج ٤ ص ١٣٣ .



ابتداء العمل فى حفر القناة (٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩)
وترى فى الصورة المسيو دلسبس ممسكا بيده معولا للحفر وحوله العمال المصريون يبدءون فى حفر القناة

ومرت ظروف ساعدت انجلترا فى مسعاها ، ففى مايو سنة ١٨٥٩ شبت الحرب فى ربوع إيطاليا بين فرنسا والنمسا ، فمالت فرنسا إلى محاسنة انجلترا ، وتراخت فى تأييد المشروع إرضاءً للحكومة الإنجليزية ، وكادت انجلترا تنجح فى مسعاها لإحباط المشروع ودبرت مع الباب العالى خلع سعيد باشا ، وجاء الأسطول الإنجليزى إلى ثغر الإسكندرية فى يونيه سنة ١٨٥٩ [٢٢] ، ولكن التدبير لم يتم ، وتردد سعيد فى الأمر ، وعهد إلى شريف باشا وزير الخارجية وقتئذ أن يرسل للمسيو دلسبس كتابًا يطلب إليه فيه وقف العمل [٢٣] ، على أن الحرب بين فرنسا والنمسا ما لبثت أن وضعت أوزارها ، وعقدت بين الدولتين الهدنة المعروفة بمصالحة (ﭬيلا فرنكا) Villa Franca ، فنفذت كلمة فرنسا فى ميدان السياسة العامة ، وعادت إلى مناصرة المشروع وتأييده ، غير أن الحكومة الإنجليزية ما فتئت تسعى لدى حكومة الآستانة حتى جعلتها تصدر أمرًا إلى سعيد باشا بوقف أعمال الحفر فى برزخ السويس ، وأوفدت مندوبًا عنها يدعى مختار بك إلى مصر يحمل هذا الأمر إلى سعيد .

فعاد نابليون الثالث يبذل نفوذه لدى تركيا لحملها على إبطال هذا الأمر ، وهكذا كان للسياسة الفرنسية اليد الطولى فى نجاح المشروع ، واطمأن سعيد باشا إلى رعايتها إياه ، وعاد إلى معاضدة المشروع بكل قواه ، وبلغ به تفانيه فى تعضيده أن سخر الفلاحين ليعملوا فى حفر

---

(٢٢) ورد ذكر الأسطول الإنجليزى وحضوره إلى الثغور المصرية فى كتاب « مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة » ج ٣ ص ١٢٤ .

(٢٣) مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة ج ٣ ص ١٣٣ .

القناة ، وكان يأمر بجلبهم من بلادهم وقراهم ، وبلغ عددهم نحو ٢٥,٠٠٠ عامل ، كانوا يقاسون الشدائد والأهوال فى عمل لم تنتفع منه مصر بأية فائدة ، بل عاد عليها بالوبال والخسران .

وقد سار العمل فى إنفاذ المشروع وحفر القناة الملحة إلى أن جرت فيها مياه البحر الأبيض حتى بحيرة التمساح ، وذلك فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٢ [٢٤]. وإلى هذه المرحلة وصلت القناة فى عهد سعيد باشا ، إذ أدركته الوفاة بعد ذلك بشهرين فى ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ ، تاركاً لإسماعيل إتمام ما بدأ به ، والوصول بالمشروع إلى نهايته .

٢ – بدء القروض الأجنبية

بدأ عهد القروض الأجنبية خلال حكم سعيد باشا ، فكانت هذه البداءة نذير الكوارث المالية والأحداث السياسية التى أصابت البلاد فى عهد إسماعيل وتوفيق .

ولا ندرى ما الذى حمل « سعيد » على أن يوجه وجهته نحو الاقتراض ، ولم يكن ذلك من سنة أبيه ، كما أن الحكومة لم تكن فى حاجة مُلحّة إلى الاستدانة من البيوت المالية . فإن سنوات سعيد كانت فى الجملة سنوات يُسْر ورخاء ، ولم تقع فى خلالها حروب طويلة تستنفد موارد الحكومة المالية .

يقولون إن نفقات الجيش زادت عن المقدر لها فى الميزانية ، فاضطر سعيد إلى الاقتراض ، ولكن هذا السبب لا ينهض حجة لتسويغ عمله ، فإن « سعيد » ذاته كان لا يستقر على وتيرة واحدة فى تقوية الجيش وزيادة عدده ، بل كان – لأسباب غير مالية – يصرف أحياناً معظم قواته الحربية ، وقد كان أجدر به أن ينقص من ميزانية جيشه إذا وجد أن حالة الخزانة لا تسمح باستبقاء جيش عرمرم يكلف البلاد ما لا طاقة لها به من النفقات ، والواقع أن قصر النظر السياسى هو الذى دعاه إلى مديد الاستدانة من الخارج ، ففتح على البلاد باب التدخل الأجنبى .

وفى ذلك يقول مؤلف (تاريخ مصر المالى) : « إلى سعيد باشا يرجع الفضل التعس فى

(٢٤) مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة ج ٥ ص ٦ .

عقد أول قرض اقترضته مصر من أوروبا »[٢٥] .

وقال فى معرض المقارنة بينه وبين محمد على وإبراهيم :

« لقد استطاع محمد على وابنه الأكبر إبراهيم أن ينهضا بالبلاد ويجاهدا فى سبيل استقلالها ، ذلك الجهاد الذى كلل بالنصر ، دون أن يكون لديهما من الموارد المالية سوى ميزانية لا تتجاوز خمسين مليون فرنك » .

ذلك ما يقوله أوروبى خبير ، لا يمكن أن يرمى بالتحامل على بلاده ، فهو يصارحنا فى كتابه بأن الاستدانة من أوروبا كانت عملاً تعساً .

عقد سعيد أول قرض ثابت سنة ١٨٦٢ ، ومقداره الاسمى ٢,٢٤٢,٨٠٠ جنيه إنجليزى من بنك فروهلنج وجوشن بلندن بفائدة ٧ فى المائة ، أما قيمته الحقيقية فكانت ٢,٤٠٠,٠٠٠ جنيه تقريباً ، أى أن مصر خسرت من رأس ماله ٨٠٠,٠٠٠ جنيه وزيادة ، وتعهدت بوفاء هذا الدين على ثلاثين سنة ، قيمة القسط السنوى من رأس مال وفوائد ٢٦٤٠٠٠ جنيه ، أى أن مجموع الأقساط ٧,٩٢٠,٠٠٠ جنيه ، فى حين أن أصل الدين ٢,٤٠٠,٠٠٠ جنيه ، وعدا هذا القرض الثابت فإنه ابتدع طريقة السندات على الخزانة وهى أن يستدين من المرابين ديونا سائرة بواسطة سندات يحررها على الخزانة بالقيمة المقترضة ، وتلك وسيلة خطرة على مالية البلاد ، لأنها استدانة لا ضابط لها ولا حساب ، ولا رقابة عليها ، فإذا اندفعت الحكومة فى سبيلها تورطت فى الديون المعروفة بالديون السائرة ، دون أن تلتفت إلى الخطر الذى ينجم عن الاستزادة منها .

وقد اختلفت الآراء فى إحصاء الدين السائر الذى استدانه سعيد باشا ، وكلها متفقة على أنه كان متلافًا للنقود ، لكثرة نفقاته على قصوره ، ومعيشته الخاصة ، وطمع المرابين فيه لما جبل عليه من السخاء وعدم التدقيق فى حسابه .

وإذا أخذنا بإحصاء مؤلف (تاريخ مصر المالى) الذى عرف عنه الاعتدال فى كتابته كان الدين العام الذى تركه سعيد حين وفاته ١١,١٦٠,٠٠٠ جنيه[٢٦] ، فإذا استبعدنا منه الدين

---

(٢٥) تاريخ مصر المالى ص ١

(٢٦) تاريخ مصر المالى ص ١٢ .

الثابت بلغت الديون السائرة ٧,٨٦٨,٠٠٠ تقريباً ، وهو مبلغ فادح تنوء به مالية البلاد فى ذلك العصر.

ولو سلم عهد سعيد من القروض الأجنبية ، ولم يمنح امتياز القناة ، لكان محتملاً أن تتغير المصاير وتتبدل النتائج فى تاريخنا القومى .

وفاة سعيد باشا

(١٨ يناير سنة ١٨٦٣)

ذهب سعيد باشا إلى أوروبا ليستشفى من مرض عضال أصابه ، ولم ينجع فيه دواء فرجع إلى الإسكندرية فى أواخر سنة ١٨٦٢ ، والداء قد استعصى علاجه ، فما زال يشتد به ويهد من قواه حتى أدركته منيته فى صبيحة ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ (٢٧ رجب سنة ١٢٧٩) وله من العمر ٤٢ سنة ، وكانت مدة حكمه ثمانى سنوات وتسعة أشهر وستة أيام[٢٧] ، ودفن بالإسكندرية بمسجد النبى دانيال ، ولا يزال قبره هناك .

* * *

(٢٧) عن التوفيقات الإلهامية للواء المصرى محمد مختار باشا ص ٦٤٠ ، وهذا التاريخ (١٨ يناير) يوافق ما ذكره المسيو دلسبس فى وثائق القناة ج ٤ ص ٢٧٦ .

الفصل الثالث

عصر الخديوى إسماعيل

(١٨٦٣ - ١٨٧٩)

نظرة عامة

إن عصر الخديوى إسماعيل هو فى مجموعه صورة لتاريخ مصر القومى والسياسى والاقتصادى فى إبان النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، إلى مقدمات الثورة العرابية ، وإذا أدركنا أن نصفه بكلمة عامة ، فهو كما قلنا فى مقدمة الكتاب عصر له أثره النافع كما له أثره الضار فى تطور الحركة القومية ، ذلك لما تفتحت فيه من آمال ، وما قام فيه من حضارة وعمران ، وما تخلله به من أخطاء وأرزاء أفضت إلى تدخل الدول الأجنبية فى شئون مصر ، وتصدّع لها بناء الاستقلال المالى ثم السياسى .

بهذه الكلمة الوجيزة ، يمكننا أن نلخص عصر إسماعيل ، فهو يمثل من ناحية عهد تقدم وعمران ، وبعد من ناحية أخرى عهَد القروض المشئومة والأغلاط المتلاحقة التى عصفت باستقلال البلاد .

وإذا كانت مصر تشعر إلى اليوم بنتائج النهضة التى قامت فى ذلك العصر ، وتلمس آثارها بيديها ، فإنها أيضًا تعانى إلى اليوم نتائج الأرزاء والأحداث التى وقعت فيه ، وتدفع ثمنها غاليا ، من مالها ، وحقوقها ، وحريتها ، واستقلالها .

وبعد هذا العصر أقرب العصور صلة بالعصر الحاضر ، لأن معظم القيود والنظم التى حلت بمصر على عهده لا تزال قائمة إلى اليوم (١٩٣٢) فالتشريع المختلط ، وتغلغل الأجانب فى مرافق البلاد ، والديون التى كبّلت البلاد حكومة وشعباً ، والتدخل الأجنبى فى شئون مصر المالية والسياسية ، كل هذه القيود ترجع إلى عصر إسماعيل .

نشأة إسماعيل

هو إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على ، وهو ثانى أنجال إبراهيم باشا ، من والده غير والدتى أخويه الأميرين أحمد رفعت ومصطفى فاضل .

ولد فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ ، فى قصر المسافرخانة بالقاهرة (بالجمالية) ، وعنى أبوه بتربيته ، فتعلم مبادىء العلوم ، واللغات العربية والتركية والفارسية ، وقليلاً من الرياضيات والطبيعيات .. وأرسله أبوه إلى فينا عاصمة النمسا ، وهو بعد فى الرابعة عشرة من عمره ، ليعالج بها من رمد صديدى أصابه ، ولتكمل تربيته ، وقضى بها عامين ، ثم انتقل إلى باريس لينتظم فى سلك البعثة المصرية الخامسة ، فانضم إلى تلاميذها ، وكان من بينهم الأمير أحمد رفعت أخوه .. والأميران عبد الحليم وحسين من أنجال محمد على ، ونال فى باريس حظًّا من العلوم الهندسية والرياضية والطبيعية ، وأتقن اللغة الفرنسية كتابة وكلامًا ، وبهرته باريس وما فيها من جمال وروعة ، وغواية وفتنة ، ومن هنا نشأت ميوله الباريسية ، التى لازمته طول حياته ، وجعلته بعد أن تولى الحكم يسعى فى أن يجعل القاهرة باريسًا ثانية . ولو كلفه ذلك أن يمد يده إلى القروض التى ناءت بها البلاد ، وظاهر مَن مبلغ تعلمه أنه لم ينل من المعارف والثقافة فى باريس أو فى فينا حظًّا كبيراً ، بل اقتصر على مبادىء من العلوم ، ولم يستفد من مكثه بباريس إلا نصيباً قليلاً من العلوم الهندسية والحربية ، وأتقن اللغة الفرنسية التى كان يتكلمها كأحد أبنائها ، وكان له فى ذكائه بعض العوض عما ينقصه من العلوم .

عاد إسماعيل إلى مصر فى عهد ولاية أبيه إبراهيم باشا ، ولما مات إبراهيم خلفه فى الحكم عباس الأول ، وكان يحقد على عمه ويجفوه ، فلما تولى الحكم شعر إسماعيل وأخوته بكراهية عباس لهم ، ثم مات محمد على ، واشتد الخصام بين عباس وبقية الأمراء على تقسيم ميراث جده ، وارتحل إسماعيل وبعض الأمراء إلى الأستانة ، وعينه السلطان عبد المجيد عضواً بمجلس أحكام الدولة العثمانية ، وأنعم عليه بالباشوية ، ولم يعد إلى مصر إلا بعد مقتل عباس فى أثناء حكم سعيد ، ولما عاد من الأستانة لقى من عمه سعيد باشا عطفاً كبيراً ، وعهد إليه برآسة (مجلس الأحكام) الذى كان أكبر هيئة قضائية فى البلاد ، وأوفده سنة ١٨٥٥ فى مهمة سياسية لدى الأمبراطور نابليون الثالث تتعلق بسعى سعيد لدى الدول فى توسع نطاق استقلال



اسماعيل باشا (خديو مصر)
من سنة ١٨٦٣ إلى ١٨٧٩

مصر ، بعد اشتراكها مع الحلفاء فى حرب القرم ، فأدى إسماعيل هذه المهمة بما امتاز به من ذكاء ولباقة ، ووعده نابليون الثالث بتأييد مقترحة فى مؤتمر الصلح بباريس ، ولكنه لم يحقق وعده ، وكذلك قابل البابا (بيو التاسع) فى رحلته موفداً من قبل سعيد ، فأكرم الحبر الرومانى مثواه ، ثم عاد إلى مصر .

ولم يكن إسماعيل يفكر أثناء حكم سعيد باشا فى أن يؤول إليه العرش من بعده ، إذ كان يحجبه عنه أخوه الأكبر الأمير أحمد رفعت ، ولكن حادثًا فجائيًا ساقته الأقدار سنة ١٨٥٨ أزالت العقبة القائمة فى سبيله ليكون وليا للعهد .. ذلك أن سعيد باشا أقام بالاسكندرية حفلة دعا إليها أمراء البيت العلوى ، فلبوا الدعوة ، ومن بينهم أحمد رفعت ، أما إسماعيل فقد اعتذر عن إجابتها لوعك فى صحته ، وفيما كان الأميران عبد الحليم وأحمد رفعت عائدين إلى القاهرة بقطار خاص مع حاشيتهما ، سقطت العربة التى تقلهما فى النيل عند كفر الزيات ، فغرق أحمد رفعت ، ونجا عبد الحليم ، فأصبح إسماعيل بعد غرق أخيه ولى عهد الأريكة المصرية بحكم نظام الوراثة القديم .

وقد مرن إسماعيل على بعض مناصب الدولة ، وهو بعد ولى للعهد ، فاستخلفه سعيد مرتين ، وجعله نائباً عنه (قائمقام) أثناء غيبته عن مصر ، المرة الأولى حينما زار سوريا سنة ١٨٥٩ ، والمرة الثانية حينما ذهب إلى الحجاز لزيارة المدينة المنورة فى أوائل سنة ١٨٦١ .

وكان سعيد يبدى لابن أخيه ارتياحه من الطريقة التى أدى بها أعمال النيابة عنه ، ولما عاد للمرة الثانية إلى مصر جعله سرداراً للجيش المصرى ، وعهد إليه إخماد فتنة بعض القبائل فى السودان ، فاضطلع بهذه المهمة دون أن يسفك فيها قطرة من الدماء .

ولما أدركت « سعيد » الوفاة خلفه على عرش مصر فى ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ .

سياسة مصر الخارجية فى عهد إسماعيل

نبدأ بالكلام عن سياسة مصر الخارجية ، لأنها كانت ذات الأثر الفعال فى شئونها الداخلية ، ولعلّ ذلك ناشئ عن أن إسماعيل كان يضع السياسة الخارجية والخطط المرتبطة بها فى المكان الأول من الأهمية ، وتليها المسائل الداخلية .

فلنبحث إذن عن سياسة مصر الخارجية ، ولهذه السياسة وجهان : أولها علاقة مصر

بتركيا ، والثانى علاقتها بالدول الأوروبية .

ففيما يتعلق بتركيا كانت الخطة التى ترسمها إسماعيل ، هى توسيع نطاق استقلال مصر ، وكسب أكثر ما يمكن من الحقوق والمزايا من الحكومة العثمانية ، حتى يصل بالبلاد إلى الإستقلال التام .

ولا شك أن هذه نزعة ممدوحة ، تعد من مفاخر إسماعيل ، فإن الوصول بالبلاد إلى إستقلالها التام هى الغاية التى ترمى إليها الحركة القومية .

أما فيما يخص علاقات مصر بالدول الأوروبية ، فقد كان إسماعيل يصدر عن فكرة أخرى ، تنافى فكرته فى علاقته بتركيا ، فبينما هو يعمل على تحرير البلاد من بقايا السيادة التركية ، إذ هو لا يفادى مصر من النير الأجنبى المالى والسياسى ، بل كان يتسبب فى تطويقها بسلاسل التدخل الأوروبى ، بحيث لم يوشك عهده أن يقارب نهايته ، حتى تصدع بناء الاستقلال المالى والسياسى الذى كسبته مصر فى عصر محمد على .

ولو أنه بذل فى سبيل بقاء البلاد حرة من أخطار التدخل الأجنبى جزءا ولو يسيراً مما كان يبذله للانفصال عن تركيا ، لحقق مشروع الإستقلال التام لمصر والسودان ، ولاقترن اسمه فى التاريخ بهذا المشروع القومى العظيم ، ولكنه كان لا يحسب حسابا للتدخل الأوروبى ، وما يتطوى عليه من المطامع التى تهدم كيان الإستقلال ، وهذا الخطأ الجسيم ، فى سياسة إسماعيل الخارجية ، ناشىء عن نزعته الأوروبية ، فإن هذه النزعة جعلته يثق بأوروبا ، والدول الأوروبية ، والجاليات الأوروبية ، ثقة عمياء ، ويركن إليها ، ويعتقد فيها حسن النية ، ولا يفطن لمطامعها الاستعمارية ، ففتح أبواب البلاد على مصراعيها للتدخل الأجنبى ، وسمح للأوروبيين أن يتغلغلوا فى مرافقها ، ويتولوا المناصب والمراكز الرفيعة فى حكومتها ، وبلغت به الثقة فى سلامة نيتهم حداً جعله يقترض القروض الجسيمة بلا حساب من المرابين والبيوت المالية الأجنبية ، حتى صار للأجانب فى عهده نفوذ مالى وسياسى لم يكن لهم من قبل ، وانقلب هذا النفوذ إلى حقوق ومزاعم ادعوها ، وما لبثوا أن نالوها ، بإنشاء صندوق الدين ، وفرض الرقابة الثنائية على مالية البلاد ، وتعيين وزيرين أجنبيين فى الوزارة المصرية ، كما سيجىء بيانه .

فسياسة إسماعيل الخارجية حيال الدول الأوروبية كانت إذن سياسة خاطئة ، أوقعت مصر تحت النير الأجنبى المالى والسياسى ، مما نشعر بنتائجه السيئة إلى اليوم (١٩٣٢) .

هذه كلمة إجمالية عن سياسة إسماعيل الخارجية ، حيال تركيا والدول الأوروبية . نمهد بها إلى بيان هذه السياسة تفصيلا فيما بعد .

١ – سياسة إسماعيل حيال تركيا

العلاقات الودية

جعل إسماعيل نصب عينيه تحرير مصر من السيادة التركية التى فرضتها عليها معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وفرمانات سنة ١٨٤١ [١] ، أى أنه أكمل العمل الذى بدأه محمد على ، ولكن الفرق بينه وبين جده أن محمد على كسب لمصر حقوق الاستقلال بقوة الجيش المصرى ، أما إسماعيل فقد اعتمد على سلاح المال والرشوة يبذلها لرجال الأستانة ، ليحصل على الفرمانات التى وسع بها نطاق الإستقلال .

وليس يخفى أن وسيلة محمد هى صفحة مجيدة من تاريخ مصر الحديث ، تقرأ فيها الأجيال المتعاقبة مفاخر الجهاد القومى ، أما وسيلة إسماعيل فلا تستثير فى النفوس إحساس المجد والفخار ، هذا فضلا عن أنها من الأسباب التى دعت إسماعيل إلى الاستدانة من البيوت المالية الاجنبية ، فكانت من هذه الناحية من العوامل التى أدت إلى تصدع بناء الإستقلال الحقيقى ، وقد بذل إسماعيل تضحيات مالية جسيمة فى سبيل الحصول على الإمتيازات التى نالها ، إذ لم تكن حكومة الأستانة تصدر فرمانًا إلا فى مقابل الأموال الطائلة من الرشا والهدايا ، يقدمها إسماعيل لرجال الأستانة ، على اختلاف مراتبهم ، ولا يستثنى منهم السلطان ذاته ، والصدور العظام ، فبلغت هذه الأموال طوال حكمه نحو إثنى عشر مليوناً من الجنيهات .

بدأ إسماعيل حكمه بالتودد إلى السلطان عبد العزيز ، ورجال حكومته ، فلما تولى الأريكة المصرية ذهب إلى الأستانة ليقدم له فروض الولاء ، وانتهز هذه الزيارة لإحكام روابط الود بينه وبين تركيا ، وتودد إلى السلطان عبد العزيز ، ودعاه إلى زيارة مصر ، فوعده بقبول الدعوة .

---

(١) راجع (عصر محمد على) ص ٣١٠ وما بعدها . (الطبعة الأولى)

زيارة السلطان عبد العزيز لمصر

(إبريل سنة ١٨٦٣)

بر عبد العزيز بوعده ، فجاء مصر فى شهر إبريل سنة ١٨٦٣م (شوال سنة ١٢٧٩ هـ) ، ونزل بالإسكندرية ، ثم ذهب إلى القاهرة ، وقضى فى ضيافة إسماعيل عشرة أيام ، لقى فيها من مظاهر الإكرام والحفاوة البالغة ما جعل لإسماعيل منزلة كبيرة عنده .

ولا غرو فقد كان عبد العزيز هو السلطان العثمانى الوحيد الذى جاء مصر زائراً ، بعد السلطان سليم الذى دخلها فاتحًا ، فكانت هذه الزيارة تكريمًا كبيراً لإسماعيل ، وتعظيماً لشأنه .

واغتنم هذه الفرصة ، فاستغل المنزلة التى نالها ليكسب من تركيا حقوقًا ومزايا جديدة ، واستخدم إلى جانب ذلك المال يبذله بسخاء ، فغمر السلطان وحاشيته بالهدايا والتحف الفاخرة ، حتى ملأ بها سفينة بأكملها ، وزود الصدر الأعظم فؤاد باشا وحده بستين ألفا من الجنيهات رشوة ليتخذ منه عونًا فى مساعيه لدى الحكومة التركية ، وعاد عبد العزيز من زيارته مغتبطا مما لقيه من الإكرام ، ومهدت هذه الزيارة الطريق أمام إسماعيل لينال رغائبه .

تغيير نظام توارث العرش وفرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦

أول ما وجه إليه إسماعيل جهده ، هو العمل على تغيير نظام توارث العرش ، فقد كان النظام القديم الذى فرضه فرمان سنة ١٨٤١ يقضى بأن يؤول عرش مصر إلى أكبر أفراد الأسرة العلوية سنًا ، كالنظام المتبع فى تركيا .

فسعى إسماعيل جهده فى أن يؤول العرش إلى أكبر أنجاله ، ونجح فى مسعاه ، بفضل المثابرة ، والدأب على الطلب ، وبفضل الأموال الطائلة التى بذلها فى الأستانة ، وقد بلغت ثلاثة ملايين من الجنيهات ، فكان هذا السعى من الأسباب الأولى لديون إسماعيل ، وليس ثمة شك فى أن هذه التضحية المالية لا توازيها الفائدة التى نالتها مصر من هذا التغيير ، لأن طريقة توارث العرش ليست مسألة جوهرية تهم البلاد حتى تبذل فى سبيلها هذه الملايين ، هذا إلى

أنها كلفت مصر تضحية مالية أخرى ، ذلك أن تركيا اشترطت مقابل هذا التغيير زيادة الجزية السنوية من ٤٠٠ ألف جنيه عثمانى ، إلى ٧٥٠ ألف ، أى إلى ما يقرب من الضعف ، وهى زيادة فادحة ، تحملتها مصر باستمرار من ذلك الحين إلى الوقت الحاضر ، فبلغت نيفاً وخمسة عشر مليون جنيه مصرى لغاية سنة ١٩٤١ ، وهى السنة التى زالت فيها السيادة العثمانية عن مصر ، واحتملتها بعد زوال هذه السيادة ، لأن الحكومة الخديوية قبلت تحويل الجزية إلى دائنى تركيا ، وتعهدت بدفع أقساط ديونهم السنوية خصما من الجزية لغاية سنة ١٩٥٥ ، فإذا حسبنا خسارة مصر فى زيادة الجزية من سنة ١٨٦٦ لغاية سنة ١٩٥٥ ، لبلغت نيفا وخمسة وعشرين مليون جنيه مصرى ، عدا فوائدها ، وهى خسارة جسيمة لا مبرر ولا مسوغ لها .

ومن الإسراف فى القول ما يزعمه بعض المؤرخين أن إسماعيل قصد بسعيه فى هذه المسألة مصلحة البلاد ، وأغلب الظن أن الباعث له على هذا التغيير هو ما كان بينه وبين أخيه من أبيه مصطفى فاضل وعمه عبد الحليم من الشقاق والشحناء ، ولم يكن إسماعيل يخفى كرهه لهما وحقده عليهما ، وكان الأميران أيضًا لا يكتمان من ناحيتهما كراهيتهما لإسماعيل ، ومن أجل ذلك سعى فى حرمانهما من وراثة العرش وجعلها فى ذريته من صلبه .

وقد اغتنم حكام تركيا وذوو النفوذ فيها فرصة هذا التنافس ، ليبتزوا من أموال مصر ما تصل إليه أيديهم ، فقد بذل الأميران عبد الحليم ومصطفى فاضل أموالا طائلة فى الأستانة ، لإحباط مساعى إسماعيل ، فاستفادت من الناحيتين ، ولكن إسماعيل كان أكثر مالاً ، وأعز جانباً ، فنجح فى مسعاه ، وهكذا كان للمال الأثر الفعال فى نفوس حكام الأستانة .

وساعد إسماعيل فى نجاح مسعاه عامل آخر غير المال ، وهو أن عبد العزيز سلطان تركيا وقتئذ كان يميل أيضًا إلى تغيير نظام توارث العرش ، ويتمنى أن يؤول عرش تركيا من بعده إلى ابنه يوسف عز الدين ، فأيد إسماعيل فى مسعاه ، كى يمهد السبيل لنفسه ، ولكنه لم يستطع أن يقدم على هذا التغيير ، لما فيه من الخروج على التقاليد الموروثة عن آل عثمان .

كانت نتيجة مساعى إسماعيل صدور فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ (١٢ محرم سنة ١٢٨٣) القاضى بانتقال مسند ولاية مصر وملحقاتها وقائمقاميتى سواكن ومصوع إلى أكبر أولاده ، ومن هذا إلى أكبر أبنائه ، وهلم جرا .

ونص فى هذا الفرمان على إمكان زيادة الجيش المصرى إلى ثلاثين ألف جندى ، وكان فى الواقع يزيد على هذا العدد من قبل ، وإقرار حقها فى ضرب نقود مختلفة العيار عن نقود

السلطنة العثمانية ؛ ومنح الرتب المدنية لغاية الرتبة الثانية[٢] .

واستتبع هذا الفرمان صدور فرمان آخر فى ٢ صفر سنة ١٢٨٣ (١٥يونيه سنة ١٨٦٦)[٣] ، بترتيب نظام للوصاية على من يتقلد مسند الولاية إذا كان قاصرًا .

وقد أبلغ الباب العالى الفرمان السابق إلى الدول العظمى التى اشتركت فى إبرام معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، مما جعل له صفة المعاهدة التى تربط تركيا دوليًا إزاء مصر ، بحيث لا تملك تعديله إلا بموافقة مصر ، وخاصة لأنه صدر مقابل زيادة فى الجزية .

قلنا إن هذا التغيير فى نظام التوارث لا يعد مكسباً كبيراً لمصر ، حتى تبذل من أجله تلك التضحيات المالية الباهظة ، ولقد برهنت الحوادث على صحة هذا القول ، لأن النتيجة الأولى للنظام الجديد كانت أيلولة العرش إلى الخديو توفيق ، أكبر أنجال إسماعيل ، ومعلوم أن توفيق باشا لم تكن ولايته خيراً على البلاد ، وهو الذى اعتلى العرش حينما خلع أبوه ، ولم يظهر نحوه من الوفاء ما كان ينتظره الأب من ولده ، ومضى إسماعيل سنوات النفى ، واحتمل غصصه وآلامه ، دون أن يلقى من ابنه عطفاً عليه فى محنته ، وإذا أغضينا النظر عن هذه الاعتبارات العائلية ، فلا يمكننا أن ننسى أنه فى عهد توفيق رزئت البلاد بالاحتلال الإنجليزى ، وكان عليه جانب كبير من من تبعة وقوعه ، فلو لم يتقرر نظام التوارث الجديد ، لكان جائزاً أن يخلف إسماعيل على العرش أمير أنفع للبلاد وأخلص لها من توفيق باشا .

وقد كان صدور الفرمان بهذا التغيير سبباً لاتساع هوة الخلاف والنفور بين إسماعيل وأخيه مصطفى فاضل ، الذى كان وليًا للعهد طبقا لنظام الوراثة القديم ، واستمر العداء بينهما طول الحياة ، وكذلك اشتدت الكراهية بينه وعين عمه الأمير عبد الحليم بن محمد على ، فإنه كان يتطلع إلى الأريكة المصرية ، فجأة هذا الفرمان قاضياً على آماله .

وأدت هذه الحالة إلى اشتداد الدسائس بين الفريقين ، مما شغل إسماعيل وجعله يبذل جهوداً كبيرة وأموالا طائلة فى سبيل إضعاف مركز منافسيه ، ولو بذلت هذه الجهود والأموال فى سبيل مصلحة البلاد لكان ذلك خيراً وأولى .

وأفضت هذه الكراهية ، وما استتبعها من الوشايات والمؤامرات ، إلى رحيل الأميرين المذكورين واسرتيهما من مصر ، واتخاذهما الاستانة وأوربا مقرا لهما ، ونقم الأمير مصطفى

(٢) قاموس الإدارة والقضاء لفيليب جلاد ج ٦ ص ٧٣٠ .

(٣) الوثائق الدولية للسلطنة العثمانية (لنور ادنجيان أفندى ج ٣ ص ٢٥٥ وقاموس جلاد ج ٦ ص ٧٣١ .

فاضل على حكومة السلطان عبد العزيز لتغييرها نظام توارث الأريكة المصرية ، وعلم بما بذله إسماعيل فى هذا السبيل من الأموال الطائلة ، فانضم إلى أحرار تركيا الناقمين على الحكم الاستبدادى فيها ، والذين كانو يعملون على قلب نظام الحكم والتخلص من استبداد السلاطين ، وعاونهم بنفوذه وماله ، ومن هنا جاءت تسميته بأبى الأحرار فى تركيا .

أما عبد الحليم ، فقد نفاه إسماعيل من مصر إثر اكتشاف مكيدة لاغتياله ، قيل أن الأمير دبرها ، فاتخذ إسماعيل هذه الرواية ذريعة للتخلص منه ، فقرر نفيه .

فرمان ٨ يونيه سنة ١٨٦٧ والحصول على لقب خديو

واستمرت العلاقات الودية بين مصر وتركيا ، وظل إسماعيل يبذل المال بسخاء على ضفاف البوسفور . فحصل فى ٨ يونيه سنة ١٨٦٧ (٥ صفر سنة ١٢٨٤) على فرمان جديد ، يخوله وخلفاءه لقب (خديو) ، بعد أن كان (واليًا) ، فارتقى صاحب العرش بهذا اللقب السامى إلى مرتبة تقرب من مراتب الملوك والسلاطين ، وأقر هذا الفرمان حق الحكومة المصرية واستقلالها فى إدارة شئونها الداخلية والمالية ، وحقها فى عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب فى داخلية البلاد ، وشئون الضبط للجاليات الأجنبية[٤] .

فتور العلاقات ثم الجفاء بين مصر وتركيا

على أن علاقة مصر بتركيا ما لبثت أن اعتراها الفتور والجفاء ، ثم الخصام والعداء ، ويرجع السبب الجوهرى فى هذا التحول إلى رغبة إسماعيل فى الانفصال عن تركيا ، والظهور بمظهر العاهل المستقل .

ذكر محمود باشا فهمى فى كتابه (البحر الزاخر ج ١ ص ١٩٩) أنه فى خلال حملة كريت (التى سيرد الكلام عنها) طلب إسماعيل من الباب العالى أن يخوله حق تعيين سفراء لمصر لدى الدول الأجنبية ، فرأى الباب العالى أن مقصده الاستقلال والانفصال عن تركيا ، فرفض طلبه ، وكان من نتائج الرفض أن غضب إسماعيل ، وتهدد الحكومة التركية بسحب جنوده من

(٤) قاموس حلاد ج ٦ ص ٧٣٢

جزيرة كريت ، أو يستحوذ على الجزيرة إذا لم تجب طلباته .

وذكر إسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (حقائق الأخبار ج ٢ ص ٣٤١) ما يدل على اشتداد الجفاء بين إسماعيل وتركيا خلال حملة كريت ، مما يؤيد رواية محمود باشا فهمى ، وكلاهما معاصر لهذه الحوادث ، قال إنه لما وقع هذا الخلاف أوعز الخديو إلى شاهين باشا قائد الجيش المصرى فى حملة كريت أن يعمل على ترغيب سكان الجزيرة فى الانضمام لمصر ، فأخذ هذا يتودد إلى زعماء الجزيرة ، ويجتذبهم بالمال والهدايا ، فلما علمت الحكومة التركية بذلك طلبت إلى الخديو عزل شاهين باشا من قيادة الجيش المصرى فى كريت ، فاضطر إلى استدعائه ، وجعل مكانه قائداً آخر هو الفريق إسماعيل سليم باشا وزير الحربية وقتئذ .

وقد تعددت الحوادث والمظاهر التى تدل على سعى إسماعيل للانفصال عن تركيا .

فمن ذلك مفاوضته الدول الأوروبية رأساً فى صدد إنشاء النظام القضائى المختلط ، دون وساطة الباب العالى ، واشتراكه فى معرض باريس العام سنة ١٨٦٧ ، وظهوره فيه بمظهر الملك المستقل ، وإقامته به قسماً خاصاً لمصر جمع فيه صنوف البهجة والعظمة ليكون جديراً بتمثيل مملكة مستقلة ، ثم توصيته المعامل الفرنسية على صنع ثلاث بوارج حربية مصفحة ، وعدة آلاف من البنادق الحديثة الطراز ، لتسليح الجيش المصرى ، مما جعل الحكومة التركية تتوجس خيفة من مقاصد إسماعيل ، وتتوقع أن يستعد ويتأهب لإعلان الاستقلال التام .

واستفاضت الأنباء بأن تركيا عازمة على إرسال جيوشها إلى مصر بعد إخماد ثورة كريت ، وخشى إسماعيل أن تنفذ تركيا يوماً وعيدها ، فاستعد للدفاع والحرب ، وأنشأ حصوناً جديدة بين الإسكندرية وبور سعيد ، ورمم الحصون القديمة ، وابتاع من معمل ارمسترنج بانجلترا نحو مائتى مدفع من المدافع الضخمة ، سلح بها تلك القلاع ، ويلاحظ أن كثيراً من هذه المدافع باقية إلى اليوم فى حصون الإسكندرية وأبو قير ودمياط ورأس البر ، وقد علاها الصدأ من الإهمال وتوالى السنين ، وعلى أكثرها تاريخ السنة التى أنشئت فيها وهى سنة ١٨٦٩ ، أى السنة التى اشتد فيها الخلاف بين مصر وتركيا .

وازدادت العلاقات فتوراً بين البلدين لدعوة إسماعيل ملوك أوروبا ورؤساء حكوماتها إلى حضور حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، دون وساطة تركيا ، فاعتبر السلطان من هذه الدعوة إغفالاً لواجب الولاء نحوه ، واحتج لدى الدول على مسلك الخديو ، فلم يكترث

إسماعيل لهذا الاحتجاج ، واستمر ماضياً فى دعوته ، وأقام حفلات القناة برآسته ، وحضرها ملوك أوروبا وأمراؤها .

وكان معتزماً إعلان إستقلال مصر التام فى تلك الحفلات ، ولكن الحكومات الأوروبية لم تسايره فى غرضه ، ونصحته أن يعدل عن عزمه ، وانتهت حفلات القناة والجفاء مستحكم بين إسماعيل والباب العالى .

فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ وما فيه من القيود

كان من نتائج هذا الجفاء صدور فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ (٢٤ شعبان سنة ١٢٨٦) ، حمله رسول من الباب العالى إلى مصر عقب انفضاض حفلات القناة ، فجاء صدمة لآمال إسماعيل ، إذ بينما يأمل لمناسبة تلك الحفلات أن يصل إلى الاستقلال التام ، كانت النتيجة صدور فرمان ينتقص من سلطته .

قيد السلطان بهذا الفرمان حقوق الخديو ، فنص فيه على أنه لا يجوز له أن يقترض قروضاً جديدة دون أن يبين وجه الحاجة إليها ، ويحصل على إذن من السلطان بعقدها[٥] ، وكان السبب الظاهر لهذا التقييد غيرة الباب العالى على مصالح مصر ، واستياءه من تورط إسماعيل فى الديون الباهظة التى استدانها .

وفى الحق أن إسماعيل كان فى حاجة إلى من يغل يده عن الإسراف فى الاستدانة ، ويقيده فى تصرفاته المالية ، وحبذا لو أن هذا القيد جاء من ناحية الأمة ، أو بعبارة أخرى من ناحية مجلس شورى النواب ، الذى كان ينعقد كل عام . على أننا لا نعتقد أن الباب العالى كان يقصد إلى مصلحة مصر فى تقييد إسماعيل بهذا القيد ، بل أغلب الظن أنه كان يرمى إلى استرداد حقوق جديدة لكى يكيد للخديو ويسىء إليه .

وقد استاء الخديو من هذا الفرمان ، ولم يعقد احتفالا حافلا لتلاوته بالأبهة المعتادة ، بل قرىء فى قصر النيل دون جلبة ولا إعلان .

(٥) راجع نص الفرمان فى القاموس العام للإدارة والقضاء لفيليب جلاد ج ٦ ص ٧٣٣ .

تحسين العلاقات

فرمان سبتمبر سنة ١٨٧٢

على أن إسماعيل أخذ يسعى فى تحسين علاقته بتركيا ، لما رأى أنه فى حاجة إلى عضدها ، بعد أن خذلته الدول الأوروبية ، واشتدت ورطته المالية ، فقصد إلى الأستانة فى صيف سنة ١٨٧٢ يصحبه إسماعيل صديق باشا وزير المالية ، ونوبار باشا وزير الخارجية ، ليسعوا فى إعادة المياه إلى مجاريها . وبذلوا هناك ما بذلوا من مظاهر الولاء ، ومن المال والرشا والهدايا ، حتى عادت علاقات الود بين للخديو والحكومة التركية .

فنال فى سنة واحدة فرماناً فى ١٠ سبتمبر سنة ١٨٧٢ (٧ رجب سنة ١٢٨٩) يثبت الامتيازات السابق منحه إياها . وينسخ القيود الواردة فى فرمان سنة ١٨٦٩ ، وخطاً شريفاً فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٧٢ (٢٢ رجب سنة ١٢٨٩) يؤكد فيه مزايا فرمان ١٠ سبتمبر ، ويخوله صراحة حق الاستدانة من الخارج دون شرط ولا قيد .

وقد ابتهج الخديو ابتهاجا عظيماً لورود الفرمان والخط الشريف إلى مصر يحملها كبير كتاب المابين ، وعقد لتلاوتها احتفالاً فخماً فى ديوان الغورى بالقلعة وقرئا بحضور المدعوين ، وأطلقت المدافع إيذاناً بهذا النصر المبين ، ونشر نصها فى الجريدة الرسمية[٦]

وكان من نتائج صدور الفرمان والخط الشريف المذكورين عقد قرض سنة ١٨٧٣ ذلك القرض المشئوم الذى كان طامة كبرى على البلاد كما سنبينه فيما يلى :

الفرمان الجامع

(٨ يونيه سنة ١٨٧٣)

لم يكتف الخديو إسماعيل بهذا الفرمان ، بل أراد أن يحصل على فرمان جامع للمزايا التى نالتها مصر منذ تولية محمد على حكم مصر بطريق التوارث إلى ذلك العهد ، فقصد إلى الأستانة فى صيف سنة ١٨٧٣ متذرعاً بالأموال يرشو بها رجال الحكومة التركية ، وصحبه فى

(٦) الوقائع المصرية عدد ٤٨٠ الصادر فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٧٢ .

رحلته جمع من أركان حكومته وبطانته كنوبار باشا وزير الخارجية ، وإسماعيل صديق وزير الداخلية ورياض باشا مستشار مجلس الوزراء (المجلس الخصوصى العالى) وغيرهم ، وما زال يسعى حتى نال الفرمان المؤرخ ٨ يونيه سنة ١٨٧٣ (١٣ ربيع الثانى سنة ١٢٩٠) [٧] ، وهو الفرمان الجامع الذى ثبت المزايا الواردة فى الفرامانات القديمة والحديثة ، وتتلخص هذه المزايا فى الحقوق الآتية .

١ - توارث عرش مصر فى أكبر انجال الخديو ، ومن بعده إلى أكبر أولاد هذا الأكبر وهلم جرا .

٢ - تشمل أملاك الخديوية المصرية مصر وملحقاتها (السودان) الجارية إدارتها بمعرفتها مع ما صار إلحاقه بها من قائمقاميتى سواكن ومصوع وملحقاتهما .

٣ - حق الحكومة المصرية فى سن القوانين والنظامات الداخلية على اختلاف أنواعها .

٤ - حق عقد الاتفاقات الجمركية والمعاهدات التجارية .

٥ - حق الاقتراض من الخارج من غير استئذان من الحكومة التركية .

٦ - زيادة الجيش إلى أى عدد يبتغيه الخديو .

٧ - حق بناء السفن الحربية ما عدا المدرعات التى يجب لإنشائها استئذان الحكومة التركية .

وصفوة القول أن هذا الفرمان الجامع قد ثبت لمصر حقوقها الكاملة فى الاستقلال التام ، فيما عدا الجزية السنوية ، وقدرها ٧٥٠ ألف جنيه عثمانى ، وعدم عقد المعاهدات السياسية ، وحق التمثيل الخارجى ، وعدم صنع المدرعات الحربية .

وقد نشر هذا الفرمان فى العدد ٥١٧ من (الوقائع المصرية) الصادر فى ١٧ يوليه سنة ١٨٧٣ .

عودة الجفاء

على أن هذه الفرمانات لم تصل إلى إحلال الوئام بين مصر وتركيا محل الجفاء والخصام ، بل على الرغم من الظواهر ، فإن تركيا كانت لا تخلص النية نحو مصر ، كما أن إسماعيل كان

(٧) الوثائق الدولية للسلطنة العثمانية لنور ادنجيان أفندى ج ٣ ص ٣٤٧ .

يسىء بها الظن ويعتقد بحق أنها لا تتردد فى استرداد الامتيازات التى نالتها مصر إذا استطاعت إلى ذلك سبيلا .

وبدا سوء نية تركيا نحو مصر من ممالأتها الدول الأوروبية فى خلافها مع الخديو إسماعيل ، ذلك الخلاف الذى أدى إلى خلعه ، كما سنبينه فى موضعه ، فإن مطالب الحكومات الأوروبية فى هذا الخلاف كانت مطالب جائرة لا يقرها عدل ، ولا يسيغها منطق ، وظهر فيها الافتيات الصارخ على حقوق مصر ، وانتهاز الدول الارتباك المالى لتحقيق أطماعها الاستعمارية ، وبالرغم من ذلك لم يتردد الباب العالى فى الانضمام إلى الدول الأوروبية ، والنزول على إرادتها ، ولم يكد يتبين رغبتها فى التخلص من إسماعيل حتى بادره برسالته التلغرافية القاضية بخلعه من منصب الخديوية ، وتعيين نجله توفيق باشا خلفاً له ، ولم يكن هذا العمل لصالح مصر ، ولا لصالح تركيا أيضاً ، بل كان تمكيناً للنفوذ الأجنبى فى مصر ، ولكن تخبط السياسة التركية وسوء نيتها نحو مصر جعلها تستجيب لمطالب الدول ، وتلك أول مرة خلع فيها ولى الأمر فى مصر على عهد الأسرة العلوية برغبة الحكومات الأوروبية ، وممالأة الحكومة التركية ، وفى ذلك أعظم افتيات على حقوق مصر واستقلالها .

٢ – سياسة إسماعيل حيال الدول الأوروبية

كانت القاعدة العامة لسياسة إسماعيل الخارجية الركون إلى الدول الأوروبية وحسن الظن بها ، والعمل على كسب رضاها ، وهذا من غلطاته السياسية ، لأنه من المعلوم أن الدول والجاليات الأوروبية على اختلاف أجناسها ، إنما ترمى إلى تحقيق أطماعها الاستعمارية فى بلاد الشرق قاطبة ، ومصر فى طليعتها .

وتلك لعمرى حقيقة يعترف بها الأوروبيون المنصفون ، فقد كتب المسيو (فان بملن) Van Bemlen وهو قاض هولندى تولى القضاء فى المحاكم المختلطة على عهد إسماعيل يقول فى هذا الصدد :

« إن علاقات الحكومات الأوروبية بمصر لم تقم إلا على قاعدة تحقيق مصالحها ومصالح رعاياها ، وإن سياستها المبنية على الأثرة والأنانية لم يتخللها أى شعور بالعطف أو بالرأفة أو بالواجب نحو مصر ، ومعظم الأوروبين الذين جاءوا إلى هذه البلاد كانوا من أحط الطبقات .

ولم يكن همهم إلا الإثراء على حساب البلاد[٨] » .

هذا ما يقوله قاض أوروبى عادل مثقف سبر غور الأمور فى مصر ، وتلك هى الحقيقة التى يطالعنا بها فى كتابه ، ولكن الخديو إسماعيل لم يفطن إلى تلك الحقائق .

وهنا يبدو الفرق جلياً بين محمد على وإسماعيل ، فمحمد على كان يقتبس من التمدن الأوروبى وسائل النهضة والقوة والتقدم ، ويستعين بخبرة علماء أوروبا ومهندسيها ، ولكنه فى الوقت نفسه يحذر تدخل الأوروبين حكومات وجاليات فى شئون البلاد . ولا يطمئن إليهم ، ولذلك بقيت فى عهده سليمة من تدخل النفوذ الأوروبى ، سواء من الوجهة السياسية أو من الوجهة المالية والاقتصادية ، ويكفيك دليلاً على بعد نظره وحكمته أنه لم يقبل إنفاذ مشروع قناة السويس ، رغم إلحاح الماليين والسياسيين الأجانب عليه ، وكذلك لم يقبل أن يعهد إلى الاقتراض من البيوت المالية الأجنبية ، كل ذلك لكى يصون البلاد من أخطار التدخل الأجنبى .

لكن إسماعيل ، لنزعته الأوروبية ، لم يحسب حسابا لهذا التدخل ، ولعله كان يتوهم حسن نية الدول الأوروبية نحوه ونحو مصر ، فما زال الوهم متسلطًا عليه حتى أدرك خطاه فى آخر عهده ، إذ رأى الدول والجاليات الأوروبية ، التى طالما تودد إليها ، ومكن لها من مرافق البلاد ، تضطره إلى بيع أملاكه وأملاك عائلته وفاء لديونه ، ورأى النفوذ الأوروبى يشل سلطته ، فحاول عبثًا أن يقاومه أو يضع له حداً ، ولكن هذا النفوذ كان قد طغى واستفحل ، فلم يستطع له دفعًا ، وانتهى الأمر بأن اقتلعته إرادة الدول الأوروبية عن الأريكة الخديوية .

والآن نتكلم عن سياسة إسماعيل نحو الدولتين اللتين تنافستا على النفوذ والسلطة فى مصر ، وهما فرنسا وإنجلترا .

فرنسا

كانت السنوات الأولى من حكم إسماعيل هى الفترة التى أخذ فيها النفوذ الأجنبى يتغلغل فى البلاد ، مالياً واقتصادياً ثم انقلب هذا النفوذ فى أواخر عهده إلى سيطرة مالية وسياسية شديدة الوطأة .

وكان لفرنسا بادىء الأمر نفوذ أدبى كبير على إسماعيل ، وهذا يرجع أولا ، إلى تربيته

(٨) مصر وأوروبا . للقاضى المختلط فان بملن ج ١ ص ١١٦ .

الفرنسية ، والسنوات التى قضاها فى باريس ، ومعاشرته الطويلة للفرنسيين ، واتصاله بهم ، وإتقانه لغتهم ، وميله إلى تقليدهم فى معيشتهم ، واقتباسه أساليبهم وعوائدهم ، فيما خلا فضيلة التدبير والاقتصاد التى اشتهروا بها ، والتى تعد من أعظم فضائلهم القومية .

وهناك عامل آخر ساعد على امتداد النفوذ الفرنسى ، وهو صلة الخديو إسماعيل بالأمبراطور نابليون الثالث ، وصداقته له وإعجابه به ، ومحاكاته إياه فى مظاهر الأبهة والعظمة ، وسعيه فى كسب ثقته وتوثيق روابط الود بينهما .

ويتجلى لك مبلغ النفوذ الفرنسى ، فى أنه لما قام الخلاف بين إسماعيل وشركة قناة السويس فى أوائل عهده بالحكم ، ارتضى تدخل الأمبراطور نابليون الثالث لحسم الخلاف ، ورضى أن يجعله حكما بينه وبين الشركة ، مع أنه يعلم بالبداهة أن امبراطور الفرنسيين لا يمكن أن يكون حكما عادلا فى مثل هذا الخلاف ، وأن حكمه لا يمكن أن يخلو من المحاباة للشركة الفرنسية ، وقد أصدر نابليون الثالث فعلا حكمه بإلزام الحكومة المصرية بتعويضات باهظة للشركة تبلغ عدة ملايين من الجنيهات .

ويبدو هذا النفوذ أيضاً فى استخدام إسماعيل لطائفة من الفرنسيين فى كثير من معاملاته المالية وقروضه ، وإسناد كثير من مشروعات العمران إلى إخصائيين من الفرنسيين .

وقد بلغ هذا النفوذ أقصى مداه فى حفلات افتتاح القناة سنة ١٨٦٩ ، فالقناة فى ذاتها عمل فرنسى ، وفاتحها فردينان دلسبس يمثل كفاءة فرنسا المالية والهندسية ، وكانت أوجينى إمبراطورة الفرنسيين تمثل الدولة الفرنسية فى إبان مجدها وأوج عزها ، وهى التى رأست حفلات الافتتاح ، متقدمة ملوك أوروبا وأمراءها وأقطابها فى السياسة والعلوم والفنون ، فكانت هذه الحفلات الفخمة إيذانًا بما بلغه النفوذ الفرنسى فى مصر من القوة وسمو المنزلة .

على أن هذا النفوذ أخذ فى الإضمحلال عقب الحرب السبعينية سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ ، فإن انتصار الألمان فى هذه الحرب زلزل سيطرة فرنسا السياسية فى أوروبا والشرق ، وثل عرش الأمبراطورية ، وكان من أولى نتائجها سقوط نابليون الثالث صديق إسماعيل الذى كان يعتمد عليه فى مهمات الأمور ، ومن ثم أخذ النفوذ الفرنسى يتضاءل فى مصر ، مخليًا الطريق للنفوذ الإنجليزى .

إنجلترا

لا يخفى أن انتصار ألمانيا فى الحرب السبعينية كان له تأثير سيء فى المسألة المصرية ، لأن إضعاف نفوذ فرنسا قد مهّد لانجلترا السبيل لتكون صاحبة الصوت الأعلى فى هذه المسألة ، ومكنها من الانفراد بالتدخل فى شئون مصر ، حتى انتهى إلى الاحتلال الإنجليزى سنة ١٨٨٢ ، فلا يغيبن عنك أنه كان ثمة تنافس بين الدولتين على كسب النفوذ فى مصر ، وقد اشتد هذا التنافس من عهد إنشاء قناة السويس ، وكان التعادل بين قوتيهما يحول دون سيطرة إحداهما على مصير البلاد ، ولكن صوت فرنسا فى المسألة المصرية أخذ يضعف من نهاية سنة ١٨٧٠ ، فاغتنمت إنجلترا هذه الفرصة لإنفاذ إرادتها فى وادى النيل ، اعتبرْ ذلك فيما وقع حين قامت الحوادث العرابية سنة ١٨٨١ ، واعتزمت إنجلترا احتلال مصر ، فقد كان هذا المشروع مهدداً بالإخفاق لو اشتركت فرنسا معها فى العمل ، ولكن فرنسا تركت انجلترا تحتل البلاد وحدها ، وهذا يرجع إلى أسباب عدة لا محل لبسطها الآن ، وسنتكلم عنها فى موضعها ، ولكن لا شك أن من بين هذه الأسباب ضعف فرنسا بعد هزيمتها فى الحرب السبعينية ، وخوفها من الخطر الذى يتهددها من ناحية ألمانيا .

ولو بقيت فرنسا على قوتها ونفوذها قبل الحرب السبعينية لكان من تنافسها هى وإنجلترا فى المسألة المصرية ما يكفل لمصر التخلص من مطامع الدولتين ، ولكن التوازن بينهما قد اختل بعد هزيمة فرنسا سنة ١٨٧٠ ، فأخذت كفة إنجلترا ترجح فى شئون مصر ، وأخذ إسماعيل من ناحيته ينصرف عن فرنسا لم أصابها من الضعف ، ويتجه ببصره تلقاء إنجلترا ، ويتودد إليها .

على أن إنجلترا منذ افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ بدأت فعلا فى العمل على تثبيت مركزها فى مصر تمهيداً لاحتلالها ، وأخذت فى الوقت نفسه تتطلع إلى السودان ، وتمد أصبعها إليه تمهيداً لفصله عن مصر ، يدلك على ذلك سلسلة من الأعمال ترمى إلى تحقيق تلك المطامع ، فمنها أنها أوعزت إلى الخديو إسماعيل أن يعين السير صمويل بيكر الرحالة الإنجليزى الشهير حاكماً لمديرية خط الاستواء ، ولما انتهت مدته عملت على أن يخلفه فى هذا المنصب انجليزى آخر وهو الكولونيل غردون (باشا) ، وسعت لتخويله سلطة كبرى لا رقابة عليه فيها للحاكم المصرى العام كما سيجىء بيانه .

وفى سنة ١٨٧٠ عهد الخديو إلى شركة إنجليزية تدعى شركة جرنفلد إنفاذ مشروع توسيع ميناء الإسكندرية والقيام بأعمال الإصلاح فيها مقابل عدة ملايين من الجنيهات .

وانتهزت إنجلترا فرصة ارتباك إسماعيل المالى لكى تزيد فى ورطته ، وتجلت هذه النية واضحة فى شرائها أسهم مصر فى قناة السويس سنة ١٨٧٥ ، فإن هذه الصفقة كانت أول ضربة صوبتها إنجلترا إلى صرح الاستقلال المصرى .

وفى سنة ١٨٧٧ أوعزت إلى الخديو أن يعين غردون باشا حكمدارًا (حاكمًا عامًا) للسودان ، وهو منصب من أكبر مناصب الدولة وأعظمها خطرًا ، وتلك أول مرة فى تاريخ مصر أسند فيها هذا المنصب السامى إلى أجنبى .

فهذه الحوادث لم تقع عبثًا ، بل هى مظاهر لامتداد النفوذ الإنجليزى فى بلاط الخديو منذ سنة ١٨٧٠ .

وقد توثقت العلاقات الودية فى هذه الحقبة من الزمن بين الخديو وإنجلترا ، وتعددت مظاهرها ، فعقدت إنجلترا ومصر فى ١٨ مايو سنة ١٨٧٣ معاهدة لتسهيل تبادل البريد .

وعقدتا فى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ معاهدة للتعاون على إبطال الرقيق .

ويظهر لك مبلغ حرص إسماعيل على كسب رضا إنجلترا ، وتجنب مجافاتها ، أنه لما جرد سنة ١٨٧٥ حملة إلى شواطىء الصومال الواقعة على المحيط الهندى لبسط نفوذ مصر فى شرق أفريقية والوصول من هذه الجهة إلى أملاكها فى خط الاستواء ، استاءت إنجلترا من هذه الحملة ، وأرسلت إلى إسماعيل تعترض على إنفاذها ، فبادر الخديو إلى الاستجابة لاحتجاجها ، واسترجع الحملة إلى مصر استبقاء لعلاقات الود بينهما .

وفى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ عقد وإياها معاهدة اعترفت فيها إنجلترا بسلطة مصر فى بلاد الصومال الشمالية ، فكانت هذه المعاهدة مظهرًا من مظاهر « العلاقات الودية » بين مصر وإنجلترا .

على أن هذا « الود » لم يمنع إنجلترا من أن تضمر الشر لمصر ، وتعمل على إخضاعها للرقابة الأجنبية ، ولما اشتد الخلاف بين الخديو والدائنين سعت سعيها فى خلعه ونجحت فى مسعاها سنة ١٨٧٩ ، فكان هذا ختام « السياسة الودية » التى اتبعها إسماعيل حيالها .

* * *

الفصل الرابع

قناة السويس

إن مسألة قناة السويس من أولى المسائل السياسية التى واجهت إسماعيل فى أوائل عهده بالحكم ، إذ كانت أنظار الأوروبيين متطلعة إلى ما يؤول إليه مصير القناة بعد وفاة سعيد الذى عرف عنه أنه سند المشروع وقوامه ، فلما مات قلق المسيو فرديناند دلسبس على مشروعه ، وخشى أن يكون نصيبه الإخفاق ، ولكن إسماعيل باشا بادر فى أول اجتماع له بوكلاء الدول وأفضى إليهم بعزمه على تأييد المشروع .

فقناة السويس يرجع إتمامها إلى تعضيد إسماعيل ورعايته ، لأن سعيد باشا لم يكد يتولى المشروع فى خطواته الأولى ، حتى عاجلته المنية ، فلولا اتجاه إرادة إسماعيل إلى تعضيد المشروع وإنفاذه ، لكان مصيره الحبوط لا محالة ، ولعجز المسيو دلسبس عن المضى فيه ، ولعل إسماعيل أراد كما أراد سلفه أن يكسب رضا الأوروبيين من أنصار المشروع ، وينال إطراءهم وثناءهم ، ويستحق فى نظرهم لقب « فاتح القناة » ، فعضد المشروع بكل قوته ، واحتمل تبعه إتمامه ، كما احتمل سعيد تبعة البدء فيه والتصميم على إنفاذه .

سعى إسماعيل فى تخفيف شروط الامتياز

على أنه من الحق أن نقرر أن إسماعيل باشا قد هالته فداحة المزايا التى نالتها الشركة فى عقد الامتياز ، فسعى جهده فى تخفيفها ، وكان من هذه الوجهة أكثر مراعاة لمصلحة مصر من عمه سعيد .

ومما يؤثر أنه قال يوماً : « إنى أريد أن تكون القناة لمصر ، لا أن تكون مصر للقناة » وقيل أنه فكر يوماً فى أن يتولى بنفسه تنفيذ المشروع ، ولو حقق هده الفكرة لجعل القناة حقيقة ملكاً لمصر ، ولكنه لم يفعل ، واكتفى بالاعتراض على أوجه أربعة من شروط الامتياز وسعى فى إبطالها وهى :

١ – تعهد الحكومة بتقديم العمال الذين تحتاج إليهم الشركة لغاية عشرين ألفاً باستمرار[١] ، وزعم الشركة أن لها مطالبة الحكومة بتعويض فى حال تقصيرها أو عجزها عن تقديم هذا العدد .

٢ – ملكية الشركة لترعة المياه العذبة التى كلفت بمقتضى العقد إنشاءها واستغلال رى الأطيان المملوكة للأفراد على جانبيها مقابل أجر تقتضيه منهم حسب تقديرها .

٣ – ملكية الشركة لجميع الأراضى التى ترى أنها فى حاجة إليها لحفر القناة وإنشاء الترعة العزبة ، وإعفاؤها على الدوام من دفع الأموال الأميرية عليها ، وملكيتها لجميع الأراضى التى تستصلحها وتزرعها ، وإعفاؤها من دفع أموالها مدة عشر سنوات .

٤ – إضطرار الحكومة إلى نزع ملكية الأطيان المملوكة للأفراد إذا احتاجت إليها الشركة لاستغلال امتيازها .

وقد فاوض إسماعيل الشركة لإلغاء هذه الشروط ، واعتمد فى مفاوضاته على وزيره نوبار باشا ، وقدم حججاً وأسانيد قوية تأييداً لطلباته ، وكانت حجته فى إلغاء الشرط الأول رغبته فى إلغاء السخرة ، لأن هذا الشرط هو إقرار فعلى لتسخير العمال والفلاحين فى العمل لفتح القناة ، وهذا ما لا يتفق ومبادىء الإنسانية .

وحجته بالنسبة للشرط الثانى والثالث أن قوانين الدولة العثمانية الخاصة بالملكية العقارية والتى كانت متبعة فى مصر وقتئذ ولا تجيز التنازل للأجانب عن ملكية الأراضى والعقارات .

وكانت أولى خطواته فى تخفيف الشروط أن أبرم اتفاقاً مع الشركة فى ١٨ مارس سنة ١٨٦٣[٢] يقضى بأن تتولى الحكومة إنشاء الترعة فى القسم الممتد بين النيل ووادى الطميلات ، ووصلها بالجزء الذى أنشأته الشركة من ترعة الوادى إلى القناة ، وقد عرفت هذه الترعة من منبعها إلى مصبها بالترعة الإسماعيلية ، وغرض الخديو من هذا الاتفاق تجنب المنازعات الخاصة بتملك الشركة للترعة ، وانتزاعها ملكية الأفراد من الأطيان التى يقتضيها إنشاؤها ، وكان عمله فى هذا قرين الحكمة والسداد .

وأوفد إسماعيل وزيره نوبار باشا إلى الآستانة ، ثم إلى فرنسا ، للسعى فى تخفيف شروط

(١) بلغ هذا العدد ٢٢ ألفاً فى أواخر عهد سعيد (ج ٤ ص ٣٣٤ من وثائق القناة للمسيو دلسبس) .
(٢) وثائق القناة للمسيو دلسبس ج ٤ ص ٢٩٠ .

الامتياز ، وأوضح مطالبه فى رسالة بعث بها نوبار إلى الشركة[٣] وتلخص فيما يلى :

١ – إنقاص عدد العمال الذين تلتزم الحكومة بتقديمهم للشركة إلى ستة آلاف لأن تسخير العدد الحالى (٢٠ ألفًا) يضر بالبلاد وبالزراعة .

٢ – زيادة أجورهم ، وجعلها فرنكين لكل عامل فى اليوم . لكى يعوض الفلاح ما يخسره من ترك بلده وأرضه وما يبذله من الجهد للعمل فى حفر القناة .

٣ – إلغاء امتياز ملكية الشركة للأراضى ، وفى مقابل ذلك تأخذ الحكومة المصرية على عهدتها إتمام الترعة العذبة ، وأن تعوض الشركة قيمة النفقات التى بذلتها فى القسم الذى أنشأته منها .

وقا عارضت الشركة فى هذه المطالب ، بحجة أن إنقاص عدد العمال من عشرين ألفاً إلى ستة آلاف يعطل إتمام المشروع ، ويطيل مدة العمل من ثلاث سنوات إلى عشر ، مما يكبد الشركة خسائر جسيمة ، وأن تملكها للأراضى القابلة للاستصلاح ، وللترعة من رأس الوادى إلى القناة ، من المسائل الجوهرية ، التى لاتتنازل عنها .

تحكيم نابليون الثالث

وقد اشتد الجدل حول مطالب إسماعيل ، وهبّت الصحف والدوائر السياسية والمالية فى فرنسا للدفاع عن شروط العقد ، والمعارضة فى إبطالها ، وارتضى الخديو أخيراً تحكيم الإمبراطور نابليون الثالث إمبراطور الفرنسيس ، للفصل فى النزاع ، فكان هو الخصم والحكم ، لما كان معروفًا عنه من تأييده للشركة ، وعطفه على المسيو فردينان دلسبس ، ويرجع هذا العطف إلى أن المشروع فى ذاته عظيم النفع لفرنسا ، وإلى أن دلسبس يمت إلى الإمبراطورة أوجينى بصلة قرابة بعيدة .

الحكم فى النزاع

أصدر نابليون الثالث حكمه فى ٦ يوليه سنة ١٨٦٤ وهو يقضى بما يأتى :

١ – إبطال حق الشركة مطالبة الحكومة بتقديم العمال المصريين ، وإلزام الحكومة فى مقابل ذلك بتعويض مالى تدفعه للشركة ومقداره ٣٨,٠٠٠,٠٠٠ فرنك .

(٣) بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٨٦٣ – وثائق القناة للمسيو دلسبس ج ٤ ص ٣٥٠ .

٢ – تنازل الشركة للحكومة عن كل حق فى ترعة المياه العذبة ، والتزام الحكومة بإتمامها مع احتفاظ الشركة بحق الانتفاع بها ، وإلزام الحكومة مقابل هذا التنازل بأن تدفع للشركة تعويضًا قدره ١٦,٠٠٠,٠٠٠ فرنك .

٣ – جعل الأراضى المملوكة للشركة واللازمة للمشروع ٢٣,٠٠٠ هكتارًا تقريبًا [٤] منها ١٠,٢٦٤ هكتاراً على حافتى القناة البحرية وملحقاتها ، و ٩,٦٠٠ هكتار للترعة العذبة ، وثلاثة آلاف هكتار لمبانى الشركة .

٤ – إعادة الأراضى الأخرى التى اتضح عدم لزومها للمشروع ومساحتها ٦٠,٠٠٠ هكتار ، مقابل تعويض تدفعه الحكومة وقدره ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك [٥] .

فداحة التعويضات

فكان مجموع ما ألزمت به الحكومة من التعويضات للشركة طبقاً لحكم الإمبراطور نابليون الثالث ٨٤,٠٠٠,٠٠٠ فرنك = (٣,٣٦٠,٠٠٠ جنيه) ، وبيانها كما يأتى بالجنيهات :

جنيه	
١,٥٢٠,٠٠٠	مقابل إعفاء الحكومة من تقديم العمال المصريين لحفر القناة
٦٤٠,٠٠٠	مقابل تنازل الشركة عن حق إنشاء الترعة العذبة
١,٢٠٠,٠٠٠	مقابل تنازل الشركة عن دعواها فى ملكية الأراضى
٣,٣٦٠,٠٠٠	مجموع التعويضات

وإذا علمت أن رأس مال الشركة هو ثمانية ملايين جنيه ، أمكنك أن تقدر فداحة التعويضات التى حكم على مصر بأدائها ، وأنها تبلغ على وجه التقريب نصف رأس مال الشركة .

ويُعد هذا الحكم من الأحكام الجائرة فى التاريخ ، لأنه بنى على أسباب لا يسيغها عدل ولا منطق ، فقد ألزم الإمبراطور نابليون الثالث الحكومة المصرية بتعويض عن أمور ثلاثة وهى :

الأول : إعفاؤها من تقديم العمال المصريين ، وبنى هذا التعويض على أنها ملتزمة أصلا

(٤) الهكتار عشرة آلاف متر أى أكثر من فدانين .

(٥) رسائل ويوميات ووثائق عن القناة للمسيو دلسبس ج ٤ ص ٤٧٦ .

بتقديم هؤلاء العمال للشركة ، وأن إخلالها بهذا الالتزام سيضطر الشركة إلى جلب عمال من أوروبا ، فتدفع لهم فروقًا فى الأجرة ، وإلى استحضار آلات تغنى عن الأيدى العاملة ، وتكلفها نفقات طائلة ، وأن الحكومة المصرية مسئولة عن هذه الفروق والنفقات ، وقد قدرها بهذا المبلغ الضخم (١,٥٢٠,٠٠٠ جنيه) .

ولا مراء فى أن هذا السبب ظاهر فيه التعسف والهوى ، لأنه من التأمل فى شروط الامتياز يتبين أنها لا تتضمن « التزامًا » من الحكومة بتقديم أى عدد من العمال ، بل كل ما ورد فى العقدان أربعة أخماس العمال يكونون من المصريين (مادة ٢) ، وأن الحكومة تعهدت ببذل مساعدتها للشركة (مادة ٢٢) . فليس فى العقد « التزام » بالمعنى القانونى يؤدى إلى الحكم بتعويضات فيما إذا لم تسخر الحكومة العدد الذى تبتغيه الشركة من العمال ، بل كان على الشركة أن ترغب العمال فى العمل بالأجور التى تعرضها عليهم ، أما جعل العمل إجباريًا بواسطة سلطة الحكومة ، فأمر لم تلتزم به الحكومة أصلا فى عقد الامتياز .

الثانى : تنازل الشركة للحكومة عن إتمام ترعة المياه العذبة ، وعن الجزء الذى أنشأته فيها ، وقد رتب الحكم على هذا التنازل إلزام الحكومة بتعويض للشركة مقابل النفقات التى بذلتها فى الجزء الذى أنشأته وحرمانها من الأرباح التى كانت تنالها من استغلال الترعة بعد تمامها ، وقدر هذا التعويض بمبلغ ١٦,٠٠٠,٠٠٠ فرنك (٦٤٠,٠٠٠ جنيه) ، وكانت العدالة تقضى بألا تلزم الحكومة إلا بما أنفقته الشركة فعلا على الجزء الذى أنشأته ، ما دامت قد تنازلت عنه للحكومة ، وهذا ما كان إسماعيل باشا مستعدًا لأدائه ، ومقداره باعتراف الشركة ٧,٥٠٠,٠٠٠ فرنك (٣٠٠,٠٠٠ جنيه) ولكن التحيز والهوى جعلا نابليون الثالث يكيل المال جزافًا للشركة .

الثالث : تنازل الشركة عن ملكية الأراضى التى تبين من الحكم عدم لزومها لإنفاذ المشروع ، وقد قدرت فى الحكم بـ ٦٠,٠٠٠ هكتار ، وهنا أيضًا ظهر الغرض والتحيز للشركة ، لأن هذه الأراضى هى جهات صحراوية جرداء ، لم تكن الشركة قد استصلحتها بعد ، واتضح أن إنفاذ المشروع لا يقتضيها ، وبالرغم من ذلك قدر نابليون الثالث ثمنًا لها على اعتبار ما سيئول إليه أمرها فى المستقبل ! ! فجعل لكل هكتار (فدانين تقريبًا) خمسمائة فرنك (٢٠ جنيها) ، وحكم على مصر بأن تدفع للشركة فى هذا الباب وحده ثلاثين مليون فرنك (١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه) ، وهكذا قضت « عدالة » نابليون الثالث أن تدفع مصر هذا الثمن

الباهظ لبقاء ملكها فى حوزتها ، وهذا من أغرب ما سمع فى معرض الظلم والجور .

والخلاصة : أن مصر خرجت من هذا التحكيم بصفقة المغبون ، وعدت الشركة حكم الإمبراطور فوزاً مبيناً كفل لها إتمام المشروع على حساب مصر ، فلا غرو أن وصفه المسيو فردينان دلسبس بأنه « السند الأساسى للشركة ووثيقة الكفالة والاطمئنان لها »[٦] ، وكذلك كانت مراحل المشروع منذ البدء فيه إلى ما بعد إتمامه شؤماً ووبالا على البلاد .

وغنىّ عن البيان أن الحكمة كانت تقضى بألا يتورط الخديو إسماعيل فى مثل هذا التحكيم ، الذى جر على مصر هذه الخسائر الجسيمة ، ولو أنه استمسك بشروطه ولم يقبل تحكيماً لما استطاعت الشركة أن تخطو خطوة فى العمل ، إذ كان كل شىء معلقاً على الأيدى العاملة المصرية ، ولولا تلك الأيدى النشيطة القوية ، لوقف المشروع وقضى عليه بالحبوط ، دون أن تحرك مصر ساكناً ، ولكن شاء جدّ مصر العاثر أن يركن إسماعيل إلى « العدالة الأوروبية » ، فوقع على يدها ما رأيت من الظلم والاعتساف .

اتفاق ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦

وعقد إسماعيل والشركة إتفاقا فى ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦ لتسوية النزاع بينهما مع مراعاة حكم نابليون الثالث ، وهذا الاتفاق يقضى بما يأتى :

١ – تحديد مواعيد الأقساط المقدرة لأداء قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة .

٢ – استعمال الأراضى المخصصة للشركة بصفة ملحقات للقناة الملحة .

٣ – التنازل للحكومة عن ترعة المياه العذبة مع الأراضى والمبانى والأعمال الفنية التابعة لها ، على أن تدفع لها الحكومة ثمن هذه المبانى .

٤ – مبيع أراضى تفتيش الوادى[٧] للحكومة بثمن قدره عشرة ملايين فرنك (٤٠٠ ألف جنيه) .

٥ – حق الحكومة فى احتلال أى جهة فى الأراضى المعتبرة حَرماً للقناة وأى موقع حربى لازم للدفاع عن البلاد على شرط ألا يكون ذلك الاحتلال عائقاً للملاحة .

---

(٦) وثائق القناة للمسيو دلسبس ج ٥ ص ٢١٨ .

(٧) هى أطيان تبلغ ٢٣،٧٨٠ فدان سبق للشركة أن اشترتها من تركة إلهامى باشا بثمن بخس قدره ١،٧٠٠،٠٠٠ فرنك (نحو ٦٨،٠٠٠ جنيه) ولم تدخل فى التحكيم لأنها ملك خاص للشركة .

٦ – شغل الحكومة ما تراه من تلك الأراضى بمبان تنشئها لمصلحتها كالبريد والثكنات والجمارك وغيرها ، على شرط أن تراعى كل ما تقضى به ضرورة الانتفاع بالقناة ، وأن تدفع للشركة المبالغ التى تكون قد صرفتها على تلك الأمكنة .

ثم أبرم فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ اتفاقاً كاملا مع الشركة يتضمن الشروط الواردة فى عقد الامتياز الأصلى مع التعديلات الطارئة عليه[٨] .

تصديق السلطان – واتفاق ٢٣ أبريل سنة ١٨٦٩

وفى ١٩ مارس سنة ١٨٦٦ صدر فرمان السلطان بالتصديق على اتفاق ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦[٩] .

وعقد إسماعيل والشركة اتفاقاً آخر فى ٢٣ أبريل سنة ١٨٦٩ ، ألغى فيه الشرط الخاص بإعفاء مستوردات الشركة من الخارج من الرسوم الجمركية ، وأعطاها مقابل ذلك تعويضا قدره عشرون مليون فرنك ، وتنازلت الشركة للحكومة عن بعض المبانى والمستشفيات مقابل عشرة ملايين فرنك[١٠] .

انتهاء العمل وافتتاح القناة

(نوفمبر سنة ١٨٦٩)

وانتهى العمل فى حفر القناة واتصلت مياه البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر فى نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، فكأن العمل قد استمر عشر سنوات ، وبلغ طول القناة ١٦٤ كيلو مترًا ، وأنشئت على شاطئها مدينة بور سعيد ومدينة الإسماعيلية ، وافتتحت القناة للملاحة يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ .

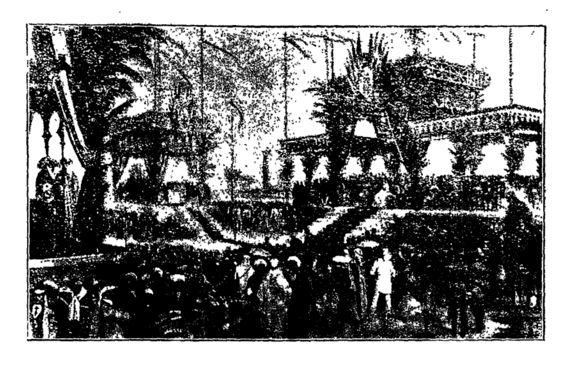
وأقام إسماعيل لمناسبة افتتاح القناة تلك الحفلات الفخمة التى لم يعرف التاريخ احتفالا يدانيها فى الإسراف والتبذير .

ويكفيك دليلا على مبلغ ذلك الإسراف أن تعرف نفقات الحفلات ، فقد بلغت على أصح تقدير ١,٤٠٠,٠٠٠ جنيه ، ولا توجد حكومة رشيدة تكلف خزانتها هذا المبلغ الضخم

---

(٨) و (٩) وثائق القناة ج ٥ ص ٢٣١ و ٢٦٥ .

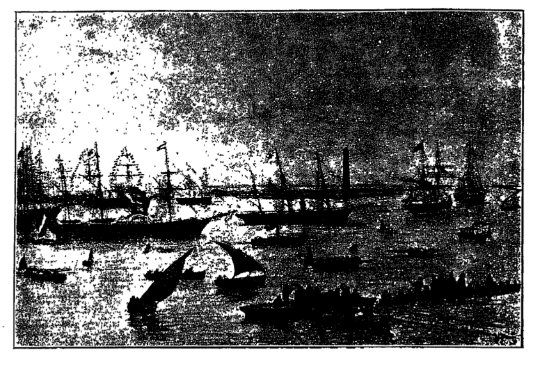
(١٠) كتاب « برزخ قناة السويس » للمسيو شارل رو Roux ج ١ نص ٥٠١ .



حفلة افتتاح قناة السويس ببورسعيد
يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٨٦٩

وقد أقيمت فى هذه الحفلة ثلاث منصات ، خصصت المنصة الكبرى للملوك والأمراء وكبار المدعوين ، والثانية لرجال الدين الإسلامى ، والثالثة لرجال الأكليروس ، وجلس فى المنصة الكبرى : الخديو إسماعيل . أوجينى امبراطورة الفرنسيين . فرنسوا جوزيف إمبراطور النمسا وملك المجر . الأمير فردريك ويلهلم ولى عهد بروسيا . الأمير هنرى أخو ملك هولنداوالأميرة قرينته . السير هنرى إليوت سفير انجلترا بالاستانة وعقيلته الليدى إليوت . الأمير مورا . الأمير محمد توفيق باشا ولى العهد . الأمير هو هنلوه . الجنرال اجناتيف سفير الروسيا فى الاستانة ومدام اجناتيف . الأمير طوسون باشا ابن محمد سعيد باشا . شريف باشا وزير الداخلية ورئيس المجلس الخصوصى العالى « مجلس الوزراء » . نوبار باشا وزير الخارجية . شأهين باشا وزير الحربية والبحرية . رياض باشا خازندار الخديو . المسيو فردينان دلسبس . الأمير عبد القادر الجزائرى . المسيو دوبست والكونت أندراسى من وزراء النمسا . البارون بروكتش سفير النمسا فى الاستانة إلخ إلخ ..

وقد ألقى الشيخ إبراهيم السقا فى هذا الاحتفال كلمة تبريك باللغة العربية . ثم تلاه المونسنيور « بوير » واعظ نابليون الثالث الذى جاء خصيصا من فرنسا لحضور الاحتفال وألقى خطبة تبريك باللغة الفرنسية .

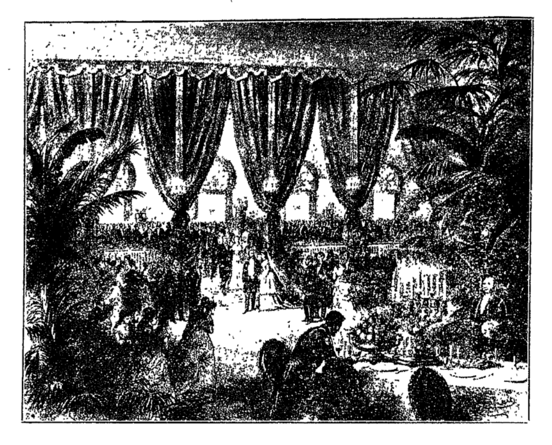


دخول البواخر المقلة للملوك والأمراء قناة السويس
فى صبيحة ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩
إيذاناً بافتتاح القناة للملاحة
وترى فى مقدمة البواخر السفينة (ليجل) L'Aigle تقل الإمبراطورة أوجينى



احدى الحفلات الفخمة التى أقيمت ابتهاجا بافتتاح قناة السويس

وليمة العشاء التى أعدها الخديو إسماعيل لضيوفه فى قصره بمدينة الإسماعيلية ليلة ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، وقد مدت الموائد فى هذه الحفلة لآلاف المدعوين ، وترى فى صدر المائدة الرئيسية الإمبراطورة أوجينى إمبراطورة الفرنسيين ، وعن يمينها فرنسوا جوزيف إمبراطور النمسا ، وعن يسارها الأمير فردريك ويلهلم ولى عهد بروسيا ، وإلى يمين الامبراطور فرانسوا جوزيف عقيلة السير اليوت سفير انجلترا بالأستانة ، ثم الجنرال اجناتيف سفير الروسيا فى الأستانة ، وإلى يسار ولى عهد بروسيا عقيلة سفير الروسيا ، ثم السير هنرى اليوت سفير انجلترا بالأستانة ، وأمامهم الخديو إسماعيل ، والى يمينه أميرة هولندا ، فالأمير مورا ، وإلى يسار الخديو أمير هولندا ، ثم مدام دى بواز ، ثم المسيو فردينان دلسبس .



(البالو) أو حفلة الرقص التى أقامها الخديو إسماعيل فى قصره بالإسماعيلية ليلة ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ابتهاجا بافتتاح قناة السويس

(اقتبسنا هذه الصورة والصور السابقة من كتاب افتتاح قناة السويس
Inaugutation du Canalde Suez للمسيو نيكول Nicole وهذا الكتاب وضع خصيصا
لوصف حفلات القناة ، والصور التى فيه للرسام ريو Riou)

يضيع فى حفلات لا طائل لها فى الوقت الذى استهدفت فيه الحكومة والبلاد لأشد ضروب الضيق المالى .

خسائر مصر المالية فى إنشاء القناة

يقدر مؤلف « تاريخ مصر المالى » ما خسرته مصر فى إنشاء القناة ، من ثمن أسهمها فى الشركة ، وما بذلته لها من التعويضات ، وما دفعته فى إنشاء ترعة الإسماعيلية ، واسترداد أطيان الوادى ، ونفقات حفلات القناة بمبلغ ١٦.٨٠٠.٠٠٠ جنيه[١١] .

وهذا التقدير هو أقرب الإحصاءات للواقع ، وهو قريب من البيان الذى قدمته الحكومة لمجلس شورى النواب بجلسه ٢٠ رجب سنة ١٢٩٣ هـ عن ديون الحكومة وإيرادتها ومصروفاتها . فقد جاء فيه أن مجموع ما دفعته فى قناة السويس ١٦.٠٧٥.١١٩ جنيه مصرى ، وهذا الإحصاء يقل عن إحصاء المستر إدوين دى ليون Edwin de Leon قنصل الولايات المتحدة العام فى مصر على عهد إسماعيل . فإنه قدره تبلغ ١٧.٤٢٣.١٧٨ جنيه إنجليزى[١٢] .

ومن هذه المقاربة يتضح أن إحصاء مؤلف تاريخ مصر المالى هو الرقم الوسط الذى يصح الاعتماد عليه ، وسنجتهد هنا فى أن نضع مفردات لهذا الإحصاء طبقًا للبيانات التى أوردناها .

جنيه	
٣.٤٢٦.٠٠٠	قيمة أسهم مصر فى القناة
٣,٣٦٠,٠٠٠	قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة
٠,٤٠٠,٠٠٠	ثمن أراضى تفتيش الوادى
١,٢٠٠,٠٠٠	تعويض مدفوع للشركة بمقتضى اتفاق ٢٣ أبريل سنة ١٨٦٩
١,٢٠٠,٠٠٠	نفقات الترعة العذبة
١,٤٠٠,٠٠٠	نفقات حفلات القناة
١٠,٩٨٦,٠٠٠	
٥,٨١٤,٠٠٠	فوائد وسمسرة ونفقات التحكيم وما إلى ذلك
١٦,٨٠٠,٠٠٠	المجموع بالجنيهات

(١١) تاريخ مصر المالى ص ١٣٢ ، ولم يذكر المؤلف مفردات هذه الإحصاء .

(١٢) فى كتابه (مصر الخديوى) The Khedives Egypt طبع سنة ١٨٧٧ ص ٤١٧ .

ولا تحسبن أن فى رقم الفوائد وما إليها مبالغة ، فإن المستر إدوين دى ليون يقدرها فى إحصائه بمبلغ ٦,٦٦٣,٠٠٠ جنيه (ص ٤١٧ من كتابه) .

وإذا علمت أن نفقات إنشاء القناة بأكملها بلغت بحسب إحصاءات الشركة ٤٥١,٦٥٦,٦٦٠ فرنك ، أى نحو ١٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، أدركت أن مصر احتملت وحدها معظم هذه النفقات ، وإذا بحثنا عما نال مصر من بذل هذه المبالغ الجسيمة التى كانت من أسباب ارتباكها المالى ، كان الجواب أنها لم تنل من القناة أية فائدة ، بل عادت عليها بالوبال والخسران ، إذ كانت مقدمة الاحتلال الإنجليزى ، وفى ذلك يقول المرحوم محمد بك فريد : « يمكننا القول بأنه لولا نقود مصر وفلاح مصر الذى ما زال يجبر على الاشتغال قهراً بأجرة زهيدة لما أمكن دلسبس أن يتم هذا المشروع الذى كان سبباً فيما نحن فيه من الاحتلال الأجنبى ، وما سنراه نحن وأولادنا إن لم تساعدنا المقادير »[١٣] .

بيع أسهم مصر فى القناة

كان لمصر من أسهم شركة القناة ١٧٦,٦٠٢ [١٤] سهماً ، وهو مقدار عظيم يكاد يساوى نصف أسهم الشركة ، لأن مجموع الأسهم ٤٠٠ ألف سهم .

وقد اكتتب فيها سعيد باشا واشتراها بمبلغ ٣,٤٢٦,٠٠٠ جنيهاً ، ولا ريب أن امتلاك هذا المقدار من الأسهم كان من شأنه أن يجعل لمصر شيئًا من الهيمنة على الشركة وإدارتها ، ويخولها حق التدخل فى شئونها ، كما أنها مورد أرباح وفيرة تعود على الخزانة المصرية بأنفع الثمرات ، وخاصة بعد تقدم أعمال الشركة وارتفاع أسهمها بدرجة فاقت كل تقدير :

ولكن إسراف إسماعيل أبى إلا أن يحرم مصر هذه الثروة الضخمة ، ففى سنة ١٨٧٥ أخذ معين من المال ينضب بين يديه ، بعد القروض الباهظة التى استدانها ، والأعباء الجسيمة التى ناءت بها الخزانة ، ففكر فى بيع أسهم مصر فى القناة وعرضها فعلا للبيع .

وقد بدأ بعرضها على فرنسا ، فترددت فى الأمر ، ولكن الحكومة الإنجليزية ما لبثت أن علمت بالمسألة حتى بادرت بشرائها ، لأنها وجدت فى هذه الصفقة فرصة سانحة لوضع يدها على القناة .

---

(١٣) تاريخ الدولة العثمانية ص ٣١٧ للمرحوم محمد بك فريد .

(١٤) عددها فى الأصل ١٧٧,٦٤٢ ، باعت منها الحكومة من قبل ١٠٤٠ سهماً فصار الباقى ١٧٦,٦٠٢ .

فاشترت هذه الأسهم بثمن بخس أربعة ملايين من الجنيهات الإنجليزية ، وبهذه الصفقة أضاع إسماعيل على مصر الميزة التى بقيت لها من مشروع القناة.

خسائر فادحة

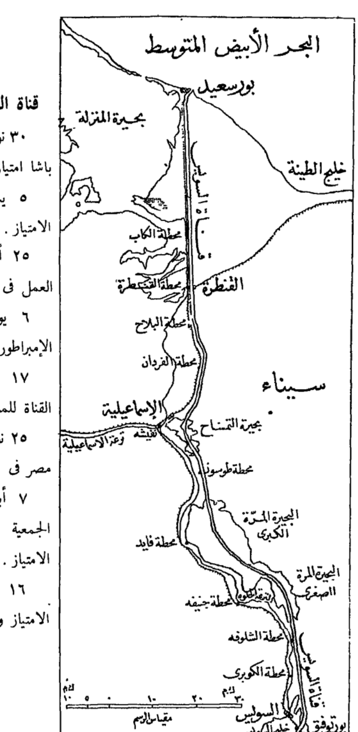
وقد بلغت قيمة هذه الأسهم (فى سنة ١٩٢٩) ٧٢ مليون جنيه ، وربحت منها الخزانة البريطانية (إلى أواخر سنة ١٩٢٩) ٣٨,٦٠٠,٠٠٠ جنيه ، ومجموع ذلك نيف ومائة مليون جنيه وعشرة ملايين من الجنيهات ، أى أن خسارة مصر من هذه الناحية بلغت إلى تلك السنة :

١١٠,٠٠٠,٠٠٠ — ٤,٠٠٠,٠٠٠ = ١٠٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه .

وثمة خسارة أخرى أصابت مصر إذ تنازلت عن ١٥ فى المائة من أرباح القناة التى كانت تؤول لها بمقتضى عقد الامتياز ، تنازلت عن هذه الحصة بسبب قروض إسماعيل مقابل ٢٢ مليون فرنك أى ٨٨٠.٠٠٠ جنيه ، وقد بلغت قيمة هدا النصيب الآن (سنة ١٩٣٢) نحو ٢٠ مليون جنيه ، وهو يغل إيراداً لا يقل عن ٨٦٩.٠٠٠ جنيه فى السنة .

وهذه الأرقام تدلك على مبلغ ما أصاب مصر فى الصفقتين من الخسران المبين .

* * *



خريطة قناة السويس

قناة السويس وتواريخها الهامة

٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ : منح سعيد باشا امتياز القناة إلى المسيو دلسبس .

٥ يناير سنة ١٨٥٦ : شروط الامتياز .

٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ : ابتداء العمل فى حفر القناة .

٦ يوليو سنة ١٨٦٤ : حكم الإمبراطور نابليون الثالث .

١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ : افتتاح القناة للملاحة .

٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ : بيع أسهم مصر فى القناة إلى انجلترا .

٧ أبريل سنة ١٩١٠ : رفض الجمعية العمومية المصرية تجديد الامتياز .

١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٨ : انتهاء الامتياز وعودة القناة إلى مصر .

الفصل الخامس

السودان فى عهد إسماعيل

من مآثر الخديو إسماعيل التى تخلد ذكره فى تاريخ مصر القومى أنه وجه عنايته وهمته إلى إتمام فتح السودان ، والوصول إلى حدود مصر الطبيعية ، ومعلوم ، أن هذه الحدود تشمل وادى النيل وملحقاته ، من البحر الأبيض المتوسط شمالا ، إلى منابع النيل والأقيانوس الهندى جنوباً ، ومن البحر الأحمر شرقاً ، إلى صحراء ليبيا (لوبيه) غرباً .

ولقد أكمل إسماعيل من هذه الناحية العمل الذى بدأ به محمد على ، فوسع نطاق السودان ، وبسط الحكم المصرى فى أنحائه ، ومدّ رواق الحضارة والعمران على ربوعه .

توسيع نطاق السودان

بينا فى كتاب « عصر محمد على » (ص ١٩٢ الطبعة الأولى) مدى فتوح مصر فى السودان على عهد محمد على ، وذكرنا أن حدود السودان وصلت شرقاً إلى البحر الأحمر ، وضمت إقليم التاكا (كسلا) الواقع شرقى نهر عطبره . ووصلت من جهة الحبشة إلى القضارف والقلابات ، ودخلت سواكن ومصوع فى نطاقها ، وبلغت الحملات والتجاريد جنوباً إلى جزيرة (جونكر) تجاه غندكرو الواقعة على النيل الأبيض .

فلنذكر الآن الفتوح المصرية فى الأقطار السودانية على عهد إسماعيل ، وخلاصتها أن مصر فتحت مديرية فاشودة ، وضمت محافظتى مصوع وسواكن نهائياً إلى أملاكها ، وفتحت إقليم خط الاستواء ومملكة (أونيورو) وبسطت حمايتها على مملكة (أوغنده) وفتحت إقليم بحر الغزال ، ثم سلطنة دارفور ، واتسعت أملاك مصر بين الحبشة والبحر الأحمر بفتح سنّهيت ، وبلاد البوغوس ، وامتدت سلطتها إلى سواحل البحر الأحمر حتى بوغاز باب المندب ، وضمت محافظتى زيلع وبربرة الواقعتين على خليج عدن ، فيما يلى بوغاز باب المندب ، وفتحت سلطنة (هرر) الواقعة فى الجنوب الشرقى من الحبشة ، ودخلت سواحل الصومال

الشمالية فى أملاك مصر حتى رأس جردفون (جردفوى) على المحيط الهندى ، ثم إلى رأس (حافون) وبذلك كله انفسحت رقعة الفتوح المصرية ، فوصلت جنوباً إلى بحيرة ألبرت وبحيرة فكتوريا ، وشرقاً إلى البحر الأحمر وخليج عدن ، وغرباً إلى حدود (واداى) .

وسنذكر فيما يلى هذه الفتوح تفصيلا :

فتح فاشودة

(سنة ١٨٦٥)

فى سنة ١٨٦٥ احتلت الجنود المصرية فاشودة احتلالا رسمياً ، وذلك على عهد جعفر صادق باشا حكمدار السودان ، واتخذت الحكومة بها نقطة حربية دائمة لمنع تجارة الرقيق فسدّت الطريق أمام النخاسين الذين كانوا يجلبون الأرقاء بطريق النيل من أقاليم بحر الغزال خط الاستواء ، وصارت فاشودة عاصمة المديرية المسماة باسمها .

ولفاشودة أهمية كبرى ، نالتها من موقعها الجغرافى والحربى ، فإنها تعد مفتاح النيل الأعلى ؛ لوقوعها على ملتقى الطرق المختلفة الواصلة من الخرطوم والحبشة إلى جنوبى السودان ، وعلى مقربة من ملتقى روافد النيل كنهر سوباط وبحر الغزال والنيل الأبيض وبحر الزراف ، وهى نقطة الاتصال بين السودان وجهات خط الاستواء .. ومن يملكها يضمن النفوذ فى شمالى السودان وفى الجهات الجنوبية منه إلى البحيرات الاستوائية ، فلا غرو أن يكون لها مكانة كبيرة من الوجهتين السياسية والاقتصادية .

ولا يخفى أن فاشودة هذه هى التى قامت بشأنها تلك الأزمة السياسية المشهورة بين انجلترا وفرنسا ومصر سنة ١٨٩٨ ، حين احتلتها كتيبة من الجنود الفرنسية بقيادة الكولونيل مرشان Marchanod، فاحتجت الحكومة الإنجليزية على هذا الاحتلال ، وارتكنت على أنها من الأراضى المصرية ، ثم انتهى النزاع بانسحاب الفرنسيين منها وبقائها من أراضى مصر ، وقد اكتسبت شهرة ذائعة بسبب هذا النزاع الذى دار حولها .

وقد غير الإنجليز اسمها ، وسموها الآن (كودوك) ، وغيروا اسم مديرية فاشودة ، فجعلوها مديرية (النيل الأعلى) ، وذلك لكى يمحوا من الأذهان اسم فاشودة وما يثيره من ذكرى

الخلاف السياسى الذى قام بشأنها سنة ١٨٩٨ ، والذى كانت حجة انجلترا فيه أن هذا البلد من أملاك مصر .

فليذكر المصريون على الدوام اسم (فاشودة) ، فإنه من الأعلام التاريخية التى تسجل فى وجه الغاصب حق مصر الخالد فى السودان .

ضم سواكن ومصوع

قلنا فى الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (عصر محمد على) ص ١٩٣ إن سواكن ومصوع دخلتا فى حدود السودان المصرى على عهد محمد على ، لأنه إذ رأى ضرورتهما للسودان ، وأنهما منفذاه على البحر الأحمر ، وخاصة لإقليم التاكا (كسلا) ، استأجرهما من السلطان (وكانتا من أملاك السلطنة العثمانية) مقابل إيجار سنوى قدره ٢٥,٠٠٠ جنيه ، وبذلك دخلتا فى ظل الحكم المصرى .

على أن إسماعيل رأى إلحاقهما بصفة نهائية إلى أملاك مصر ، فاستصدر فى سنة ١٨٦٥ فرماناً من السلطان بإحالة قائمقاميتى سواكن ومصوع إلى عهدته ، وجعلهما فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ الذى تكلمنا عنه (ص ٧٩) من ملحقات مصر ، وصارت كل منهما محافظة قائمة بذاتها . فمحافظة سواكن تمتد على البحر الأحمر من رأس علبة إلى رأس قصار (راجع الخريطة الملحقة بهذا الفصل) ، ومحافظة مصوع امتدت من رأس قصار حيث تنتهى محافظة سواكن إلى حلة (رهيطة) عند بوغاز باب المندب .

وقد عمرت مصوع وسواكن فى ظل الحكم المصرى ، ذلك أن مدينة مصوع كانت قائمة على جزيرة بالبحر ، فوصل بينها وبين اليابسة بجسر طوله ١٨٠٠ متر وعرضه عشرة أمتار ، وتم إنشاؤه سنة ١٨٧٢ ، فعمرت المدينة واتسعت ، وبنى فيها ديوان المحافظة ، وآخر للجمرك ، ومساكن للموظفين ، وشيدت بها قلعة منيعة ، وأنشئت ترعة صغيرة لتوصيل المياه العذبة إلى سواكن ، وهذه الترعة تستمد الماء من خزان أقيم لجمع مياه الأمطار فى سفح جبل قريب من المدينة [١٥] .

وظلت المحافظتان ملكاً لمصر إلى شبوب الثورة المهدية ، فلما اضطرت انجلترا الخديو توفيق

---

(١٥) الوقائع المصرية العدد ٣٥١ .

إلى القرار بإخلاء السودان سنة ١٨٨٤ ، وصار فى نظر الدول الاستعمارية نهباً مقسماً ، انتهزت إيطاليا هذه الفرصة بتواطئها مع الإنجليز ، واحتلت محافظة مصوع سنة ١٨٨٥ ، وما زالت تحتلها إلى اليوم ، (١٩٣٢) وتسمى هى وملحقاتها مستعمرة (الأريترية) أما سواكن فقد جُعلت بعد اتفاقية سنة ١٨٩٩ الباطلة محافظة تابعة لحكومة السودان .

فتح إقليم خط الاستواء والوصول إلى منابع النيل

أسلفنا القول أن الحملات والتجاريد المصرية التى قادها البكباشى سليم بك قبطان فى عهد محمد على بلغت جزيرة جونكر تجاه غندكرو (راجع عصر محمد على ص ١٩٠) ، ولكن هذا الفتح لم يكن إلا وقتياً ، بمعنى أنه لم يقترن بوضع حاميات عسكرية دائمة فى تلك الجهات تقر سلطة الحكومة فيها ، فاعتزم إسماعيل أن يبسط نفوذ مصر بصفة دائمة فى تلك الأصقاع ، وما يليها جنوباً حتى منابع النيل ، ولكنه لم يحذ حذو جده فى أن يعهد بهذه المهمة القومية إلى ضباط الجيش المصرى . بل عهد بها إلى جماعة من الإنجليز ، وهذه مواطن ضعف فى سياسته أدى إلى عواقب وخيمة سنذكرها فيما يلى :

مهمة السير صمويل بيكر Samuel Baker

فناط بالسير صمويل بيكر الرحالة الإنجليزى المشهور الزحف إلى الجهات الجنوبية لغاية منابع النيل وضمها إلى أملاك مصر.

رحلته فى عهد سعيد باشا

بدأت رحلات السير صمويل بيكر فى السودان على عهد سعيد باشا ، فقد قصد من تلقاء نفسه إلى تلك الأقطار ، لاكتشاف منابع النيل الأبيض ، وكان الرحالتان اسبيك Speke وجرانت Grant قد سبقاه إلى تحقيق هذا الغرض ، موفدين من قبل الجمعية الجغرافية الإنجليزية ، فجاءا بطريق زنجبار ، واكتشفا بحيرة (اكروى) ومنبع النيل منها ، وكان ذلك فى ٢٨ يوليه سنة ١٨٦٢ ، وسمياها باسم الملكة فكتوريا ، ملكة انجلترا فى ذلك الحين ، فصارت تعرف من ذلك الحين باسم بحيرة (فكتوريا) .

أما السير بيكر فآثر أن يسلك فى اكتشافه طريق الخرطوم ، وصعد جنوبًا فى النيل فبلغ فى ٢ فبراير سنة ١٨٦٣ غندكرو التى وصلت إليها حملات البكباشى سليم بك قبطان فى عهد محمد على سنة ١٨٤١ ، وأخذ يتأهب لمتابعة سيره ، وإذا بالرحالتان اسبيك وجرانت قد التقيا به ، وأبلغاه اكتشاف بحيرة فكتوريا ، وأنهيا إليه أن هنالك بحيرة أخرى أخبرهما بها الأهلون ، لم يتم اكتشافها بعد ، فتابع سيره حتى اكتشفها فى ١٤ مارس سنة ١٨٦٤ ، وسماها بحيرة (ألبرت) باسم الأمير ألبرت زوج ملكة انجلترا .

ثم عاد إلى غندكرو ، وسار منها إلى الخرطوم فبلغها فى ٣ مايو سنة ١٨٦٥ ، وعاد من هناك إلى بربرة فسواكن ، وأقلع إلى انجلترا ، وقد صحبته امرأته النبيلة ، فى هذه الرحلة الطويلة ، وقاسمته مخاطرها ومتاعبها ، وكان لها الفضل الكبير فى نجاحه فى مهمته التى رفعته إلى مستوى كبار المكتشفين ، ولا غرو فإن اسمه يقرن دائماً باكتشاف بحيرة ألبرت إحدى منابع النيل الكبرى .

مهمته فى عهد إسماعيل
(١٨٧١ - ١٨٧٣)

انقضت خمس سنوات تقريباً على رحلة صمويل بيكر الأولى ، ثم جاء مصر سنة ١٨٦٩ يصحب الأمير إدوارد ولى عهد انجلترا لحضور حفلات افتتاح قناة السويس . فرغب الأمير إلى الخديو إسماعيل أن يعهد إليه بمطاردة الاتجار بالرقيق فى السودان نيابة عن الحكومة المصرية ، فلم يتردد إسماعيل فى قبول الطلب ، إذ كان يبغى التودد إلى الحكومة الانجليزية .

لم يكن الغرض من هذه المهمة خدمة الإنسانية ، بل كانت الحكومة الإنجليزية ترمى إلى تمهيد السبيل لتحقيق أطماعها الاستعمارية فى وادى النيل ، وبيان ذلك أن انجلترا بعد إنفاذ مشروع قناة السويس أخذت تتطلع إلى احتلال مصر ، وترمق أملاكها فى السودان ، وتعمل على استطلاع أحواله ، والتدخل فى شئونه ، لكى تخلف مصر يوماً ما فيه ، وما إرسالها السير صمويل بيكر ، ثم الكولونل غردون من بعده ، إلا تمهيداً لهذه الغاية الاستعمارية .

ولو كان الخديو إسماعيل بعيد النظر ، بمقدار ما كان عليه من الذكاء ، لما ارتضى أن يبسط

---

(١٦) الإسماعيلية للسير صمويل بيكر باشا ص ٢١ .

نفوذ مصر فى السودان على أيدى بيكر وغردون وأضرابهما ، من دعاة الاستعمار الإنجليزى ، لأن هؤلاء لا يمكنهم أن يخلصوا لمصر ، بل هم يعملون على خدمة السياسة الإنجليزية التى كانت ولا تزال ترمى إلى إقصاء النفوذ المصرى عن السودان .

قبل إسماعيل إذن ما عرضه عليه ولى عهد انجلترا ، وأصدر مرسوماً إلى السير صمويل بيكر عهد إليه فيه ببسط نفوذ مصر فى الأصقاع الكائنة جنوبى غندكرو ، وتنظيمها ونشر التجارة بها ، ومطاردة الاتجار بالرقيق وإنشاء المحطات الحربية فيها ، وجعله قائداً لحملة جردها لهذا الغرض مؤلفة من ١٧٠٠ مقاتل ، وأنعم عليه برتبة فريق فصار يعرف ببيكر باشا ، وجعله حاكماً على مديرية خط الاستواء لمدة أربع سنوات ، تبتدئ من أول أبريل سنة ١٨٦٩ براتب قدره ١٠,٠٠٠ جنيه فى السنة .

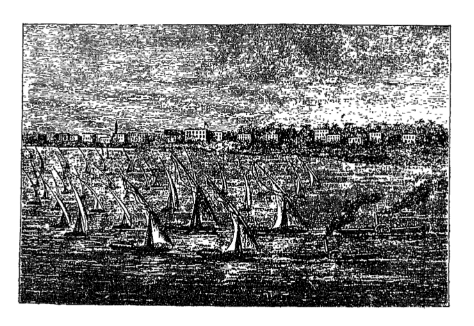


نقل أجزاء البواخر النيلية على ظهور الإبل من مصر إلى السودان فى صحراء النوبة أواخر سنة ١٨٦٩ استعداداً لفتح إقليم خط الاستواء

وقد صحبته فى هذه الحملة زوجته النبيلة كما صحبته فى رحلته الأولى ، ورافقته فى الرحلات البعيدة التى قطعها ، وشهدت الوقائع التى خاضها ، فكانت له نعم العضد الصادق الأمين ، وامتدح بيكر صفاتها فى كتابه (الإسماعيلية) الذى أفرده لذكر هذه الحملة ، وأشاد

تما بذلته من الجهود فى معالجة المرضى والجرحى ، وما كانت تبعثه فى النفوس من روح الصبر والشجاعة والإقدام ، وما أسدته من حسن التدبير لنجاح مهمته ، فكانت مضرب الأمثال فى ما تؤديه لزوجها من جليل الخدمات ، ومشاركتها إياه فى المهام الجسام .

جهزت الحكومة الخديوية معدات الحملة ، وأقلت السفن معظم مهماتها من القاهرة إلى الخرطوم . واقتضى نقلها متاعب جمة ، إذ لم يكن فى استطاعة البواخر اجتياز الشلالات ، فنقلت أجزاؤها مفككة على ظهور الإبل فى صحراء النوبة ، وكذلك نقلت المهمات الثقيلة بهذه الوسيلة ، أما بيكر باشا فقد سار بحراً من السويس إلى سواكن ومنها إلى بربرة على ظهور الإبل فقطع المسافة بينهما فى أربعة عشر يومًا ، واستقل من بربرة باخرة نيلية بلغ بها الخرطوم .



الأسطول النيلى الذى تحرك من الخرطوم يوم ٨ فبراير سنة ١٨٧٠ لفتح اقليم خط الاستواء وكان مؤلفا من ثلاثين سفينة شراعية وباخرتين

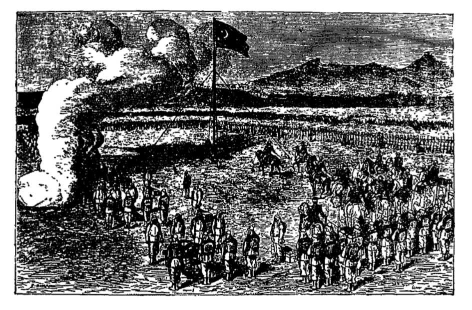
وصل بيكر باشا إلى الخرطوم ، فى عهد حكمدارية جعفر مظهر باشا ، ثم قام منها يوم ٨ فبراير سنة ١٨٧٠ [١٧] فى حملة تقلها ثلاثون سفينة وباخرتان قاصداً جهات خط الاستواء . فرسا بالقرب من ملتقى نهر السوباط بالنيل (جنوبى فاشودة) وبنى هناك محطة أسماها

(١٧) الاسماعيلية للسير صموئيل بيكر باشا ص ١٠١ و ١١٣ .

(التوفيقية) باسم الأمير محمد توفيق ولى عهد الأريكة الخديوية فى ذلك العصر ، وأقام فى هذه المحطة عدة أشهر ، ثم سار جنوباً حتى بلغ غندكرو التى وصل إليها من قبل البكباشى سليم بك قبطان فى عهد محمد على .

رفع العلم المصرى على غندكرو

بلغ بيكر غندكرو فى ١٥ أبريل سنة ١٨٧١ [١٨] ، فرفع عليها العلم المصرى يوم ٢٦ مايو فى احتفال عسكرى مهيب ، أعلن فيه رسمياً ضم هذه البلاد إلى أملاك مصر .



حفلة رفع العلم المصرى على غندكرو (الإسماعيلية) إعلانا بضمها إلى أملاك مصر (٢٦ مايو سنة ١٨٧١)

كان هذا اليوم يوماً مشهوداً فى تاريخ السودان ، إذ اصطفت الجنود المصرية بغندكرو فى صعيد واحد ، على أكمة تشرف على النيل ، وبلغ عدد الجند الذين حضروا الاحتفال ١,٢٠٠ مقاتل ، وقفوا صفوفاً يرتدون ملابسهم البيضاء الرسمية ، وعلى رءوسهم الكوفيات المتدلية على أكتافهم ، وساروا تتقدمهم الموسيقى إلى مكان الاحتفال حيث نصبت سارية

(١٨) الاسماعيلية للسير صمويل بيكر باشا ص ١٠١ و ١١٣ .

علوها ٢٥ مترا ؛ وهناك أخذوا أماكنهم فى نظام عسكرى بديع ، تصحبهم أسلحتهم ومدافعهم ، وشهد الاحتفال رؤساء العشائر الذين جاءوا من مختلف النواحى . ووقف بيكر باشا تحت السارية ، وقرأ على الجمع الإعلان الرسمى الذى قرر فيه باسم الخديو ضم هذه الجهات إلى أملاك مصر ، وعندما أتم تلاوة الإعلان رفع العلم المصرى على السارية الكبيرة ، فحياه الجند جميعاً بالسلام العسكرى ، وأطلقت المدافع تحية وإجلالاً .

وقد أسمى بيكر باشا غندكرو (الإسماعيلية) باسم الخديو إسماعيل ، وجعلها عاصمة مديرية خط الاستواء (أنظر الخريطة ص ١٢٥) .

وفى ٢٢ يناير سنة ١٨٧٢ [١٩] استأنف السير فى النيل الأبيض [٢٠] ، فأسس نقطاً عسكرية



المعسكر المصرى فى غندكرو (الإسماعيلية) سنة ١٨٧٢

(١٩) الإسماعيلية للسير صمويل بيكر ص ١٩٢ .

(٢٠) يطلق اسم النيل الأبيض على نهر النيل من منابعه إلى الخرطوم ، ويسمى نيل فيكتوريا أو نهر السومرست من منبعه من بحيرة فيكتوريا إلى مصبه فى بحيرة ألبرت ، ومن مخرجه من بحيرة ألبرت إلى التقائه ببحر الغزال ثم بنهر سوباط يسمى بحر الجبل « أو بحر الرجاف » ، ويتفرع عنه قبل التقائه ببحر الغزال فرع يسمى « بحر الزراف » ويسير البحران شمالاً متفرعين على شكل دلتا إلى أن يبلغا النيل . ويستمر باسم النيل الأبيض إلى أن يلتقى بالنيل الأزرق عند مدينة الخرطوم ، ويقصر بعض علماء الجغرافية اسم النيل الأبيض على مجرى النهر من ملتقى السوباط بالنيل إلى الخرطوم .

وحصونًا فى عدة بلاد بأعالى النيل ، منها (الإبراهيمية) على بحر الجبل (بحر الرجاف) وقد سماها بهذا الاسم تذكارًا لإبراهيم باشا أبى الخديو إسماعيل ، وأنشأ حصونًا أخرى فى (فاتيكو) ثم فى (فويرة) الواقعة على نيل فيكتوريا .

فتح مملكة أونيورو

(سنة ١٨٧٢ – ١٨٧٣)

وتقدمت الحملة فى زحفها ، ففتحت مملكة « أونيورو » المتاخمة لبحيرة ألبرت شرقًا واحتلت عاصمتها « ماسندى » أبريل سنة ١٨٧٢ ، وكان بها ملك يدعى (كابريقه) ، فأظهر خضوعه لسلطة الحكومة المصرية وأعلن بيكر باشا باسم الخديو دخول هذه المملكة فى أملاك مصر (١٤ مايو سنة ١٨٧٢) ، وبنى فى ما سندى دارًا للحكومة المصرية بالقرب من دار كابريقه ، وشيد حصنًا لإقامة الحامية المصرية .

على أن كابريقه ما لبث أن ظهرت خيانته ، فانقض على الحامية المصرية ، وقامت



ريونجا ملك أو نيورو يصافح بيكر باشا . والجنود المصرية مصطفة لاستقباله بقيادة القائمقام. عبد القادر بك حلمى سنة ١٨٧٢

الحرب بينهما ، وانتهى القتال بهزيمته وفراره .

ثم انسحبت الحامية المصرية من ماسندى إلى شاطئ نيل فيكتوريا ، لتأوى إلى مكان أمين .

وأعلن بيكر باشا خلع الملك كابريقه ، وولى مكانه ملكاً آخر من الأسرة الحاكمة ، يدعى (ريونجا) ، كان يزاحم كابريقه على عرش أنيورو ، منذ وفاة الملك السابق . فتقبل هذا التنصيب بالإخلاص والابتهاج ، وبقى على ولائه لخديو مصر ، وجرد حملة على كابريقه غلبته على أمره .

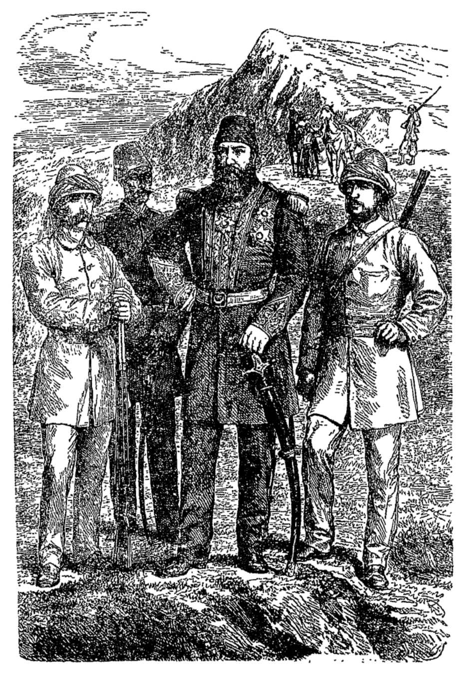
ولاء ملك أوغندة لمصر

وقد وفد على بيكر باشارسُل من الملك (امتيسى) ملك أوغنده المجاورة لمملكة أنيورو ، والواقعة شمالى بحيرة فيكتوريا وغربيها ، وعرضوا إخلاص مليكهم لخديو مصر ، فأكرم بيكر وفادتهم ، وبادل مليكهم الرسائل والهدايا . وبقى (امتيسى) موالياً لمصر ، ونقم على كابريقه خيانته ، وهاجمه من الجنوب جزاء انتقاضه ، وبفضل ولاء امتيسى لمصر انفتحت الطريق بين أعالى النيل وزنجبار على شاطىء المحيط الهندى .

وعاد بيكر إلى الإسماعيلية (غندكرو) فى أبريل سنة ١٨٧٣ إذ انتهت مدة خدمته ، فغادرها ، واستخلف فى قيادة الجند وإدارة المديرية رءوف بك أحد ضباط الجيش المصرى ، ورجع إلى الخرطوم ، ومنها إلى مصر عن طريق سواكن والبحر الأحمر ، وقابل الخديو بالقاهرة (أغسطس سنة ١٨٧٣) فأنعم عليه بالنيشان العثمانى ، وأنعم على القائمقام عبد القادر بك حلمى برتبة الميرلاى ، والملازم محمد أفندى برتبة الصاغ مكافأة لهم على خدماتهم فى بسط سلطة مصر فى منطقة خط الاستواء .

وقد بلغت نفقات هذه الحملة ٨٠٠,٠٠٠ جنيه ، تحملتها خزانة مصر فى وقت اشتد بها الضيق المالى . فكان هذا المبلغ من تضحيات مصر فى سبيل نشر لواء الحضارة والتقدم فى ربوع السودان .

والميرلاى عبد القادر بك هو من أركان حرب بيكر باشا ، وهو ضابط كفء شجاع ، كان له فضل كبير فى نجاح الحملة ، وقد امتدحه بيكر فى مواطن كثيرة ، وأشاد بصفاته فى كتابه



صمويل بيكر باشا مدير خط الأستواء فى عهد إسماعيل وحوله أركان حربه وهم القائمقام
عبد القادر حلمى بك فالمهندس هيجنبوتام Higgnboiham ، ثم الملازم بيكر

(الإسماعيلية) ، وأثنى على شجاعته وإخلاصه[٢١] ، وترى رسمه فى الصور التى نقلناها عن هذا الكتاب .

وعبد القادر بك هو الذى صار فيما بعد عبد القادر باشا حلمى حكمدار السودان سنة ١٨٨٢[٢٢] ، وله المواقف المحمودة فى المدافعة عن سلطة مصر فى السودان ، مما سيجىء بيانه فى موضعه .

وكان يعاون السير بيكر فى مهمته جعفر مظهر باشا حكمدار السودان حينذاك ، (لغاية سنة ١٨٧١) ، على أن جعفر باشا رأى بثاقب نظره أن فى إسناد هذه المهمة إلى أجنبى خطراً على مصالح مصر ، وكتب بذلك تقريراً أرسله إلى الخديو إسماعيل ينبهه فيه إلى ذلك الخطر ، وأشار بإسناد هذه المهمة إلى ضباط أركان الحرب من الجيش المصرى ، ولكن إسماعيل لم يلتفت إلى هذا الرأى الحكيم ، ولم يعمل به ، واستمر يحسن الظن برواد الاستعمار .

تعيين الكولونل غردون (باشا) مديراً لخط الاستواء
(١٨٧٤ – ١٨٧٦)

لم يكد يمضى قليل من الزمن على انتهاء خدمة السير صمويل بيكر ، وخلو منصب مدير خط الاستواء ، حتى خلفه إنجليزى آخر ، وهو الكولونل غردون الذى صار فيما بعد (غردون باشا) .

ومن الغرابة بمكان أن يتعاقب على هذا المنصب الخطير إنجليزيان لهما مقام معلوم فى نظر الجمهور البريطانى والحكومة الإنجليزية ، ولم يكن ذلك من قبيل المصادفات ، بل إن أصبع السياسة الإنجليزية كان لها دخل فى هذا التعيين ، فكما أن الحكومة الإنجليزية هى التى أوعزت إلى الخديو إسماعيل بوساطة ولى عهد انجلترا أن يسند هذا المنصب إلى السير بيكر ، فإنها هى أيضًا التى سعت لديه فى إسناده إلى الكولونل غردون سنة ١٨٧٤ .

فالسياسة الإنجليزية كانت تنفذ خطتها من التمهيد للتدخل فى شئون السودان ، واختارت بداءة ذى بدء منطقة خط الاستواء ، لأنها المنطقة التى جعلتها المرحلة الأولى لبرنامجها ، إذ فيها

(٢١) الإسماعيلية للسير صمويل بيكر ص ٦٨ و ٤١٢ .
(٢٢) كرشرى . المركز الدولى لمصر السودان ص ٢٦٦

منابع النيل ، فهى مفتاح السودان من جهة الجنوب ، كما أنها مصدر الحياة لمصر.

وليس من المصادفات أن يقع اختيارها على الكولونل غردون بالذات ، فإنه الرجل الذى كان قلبه يفيض وطنية وإخلاصاً لبلاده ، فلا جرم أن يبذل كل ما لديه من تضحية فى سبيل التوسع البريطانى ، وقد دلت خاتمته المحزنة على أنه كان أكبر ضحية قدمتها انجلترا لتضع يدها على السودان بعد شبوب الثورة المهدية .

ويدلك على تدخل السياسة الإنجليزية فى تعيينه أنها أقنعت الخديو بأن يجعل له من السلطة أكثر مما كان للسير صمويل بيكر باشا ، فقد كان هذا خاضعاً لحكمدار عموم السودان ، لكن غردون عين حاكماً لإقليم خط الاستواء ، على أن يكون مستقلاً فى عمله ، وقصر الخديو سلطة حكمدار السودان على الجزء الشمالى لغاية فاشودة ، وجعل الأقاليم الاستوائية التى تمتد من جنوبى فاشودة[٢٣] إلى خط الاستواء تحت سلطة غردون ، وفى هذا من إطلاق يده فى الجزء الجنوبى من السودان وإضعاف سلطة الحاكم العام المصرى ما لا يغيب عن البال ، كل هذا بسعى السياسة الإنجليزية وتدبيرها .

جاء الكولونل غردون إلى مصر سنة ١٨٧٤ ، وقابل الخديو وكلفه الرحلة إلى السودان لتولى منصبه فيها ، وكان حكمدار السودان وقتئذ (إسماعيل باشا أيوب) ، فأرسل له الخديو أوامره فى هذا الصدد ، وأمره بتنفيذها والحفاوة بغردون عند قدومه ، وإجابته إلى كل ما يطلبه ، فأضطر للعمل بهذه الأوامر على ما فيها من غضاضة .

وأنعم الخديو على الكولونيل غردون سنة ١٨٧٥ برتبة الفريق ، فصار يعرف بغردون باشا ، وصارت رتبته العسكرية مساوية لرتبة حكمدار السودان ، مع أن منصبه الرسمى لم يزد عن كونه (مدير خط الاستواء) .

توسيع نطاق الحكم المصرى فى مديرية خط الاستواء

مضى الكولونل غردون إلى السودان عن طريق البحر الأحمر وسواكن ، ولما بلغ الخرطوم أعد حملة من الجيش المصرى صَحِبتْه إلى مقر سلطته ، فتحركت الحملة جنوباً على ظهر

(٢٣) لم توضع حدود دقيقة بين مديريتى فاشودة وخط الاستواء ، ويقول فوزى باشا إن جهات خط الاستواء تبدأ من ملتقى نهر سوباط بالنيل ، ويرى آخرون أنها تبدأ من (شامبه) على بحر الجبل (انظر الخريطة ص ١٢٥) .

البواخر المصرية ، وصحبه من الخرطوم إبراهيم أفندى فوزى ، أحد ضباط الجيش المصرى الذى صار فيما بعد اللواء إبراهيم باشا فوزى ، وشهد وقائع السودان من سنة ١٨٧٤ إلى شبوب الثورة المهدية ، وشهد معظم وقائع الثورة إلى سقوط الخرطوم ومقتل غردون سنة ١٨٨٥ ، وحضر استرجاع السودان سنة ١٨٩٨ ، وله فى ذلك كله كتابه المشهور (السودان بين يدى غردون وكتشنر) .

وصلت الحملة إلى فاشودة ، بعد مسير سبعة أيام فى النيل ، فاستقبلها مديرها بالحفاوة اللائقة ، وشهد غردون وإبراهيم أفندى فوزى « ما وصلت إليه البلاد وقتئذ من العمران والتقدم والحضارة بعناية الحكومة »[٢٤] .

وتابعت الحملة سيرها حتى وصلت إلى محطة سوباط ، وهى الكائنة على ملتقى نهر سوباط بالنيل ، ثم سارت جنوباً حتى بلغت الإسماعيلية (غندكرو) حيث يقيم رءوف بك ، الذى استخلفه السير صمويل بيكر فى الحكم وقيادة الجند بمديرية خط الاستواء ، فقابل غردون بالحفاوة والتكريم ، وأطلعه على أحوال البلاد وشئونها ، وقد أبقاه غردون قليلا ، ثم ما لبث أن أقاله من عمله وأمره بالعودة إلى مصر .

وقد رأى غردون أن مناخ الإسماعيلية ليس صحياً ، فنقل مركز الحكومة إلى (اللادو) ، فصارت من ذلك العهد عاصمة مديرية خط الاستواء .

وبعد أن تولى شئون الحكومة فى تلك الجهات تابع السير جنوباً حتى بلغ بحيرة (ألبرت) ، واستولى على عشرة مراكب من سفن الاهلين ، استخدمها لاكتشاف شواطئ البحيرة ، واستقدم من الخرطوم العدد الكافى من البواخر النيلية ومن آلات الترسانة المصرية بالخرطوم وعمالها ، وأنشأ بالدفلاى شمالى بحيرة ألبرت (ترسانة) لتنظيم الملاحة فى أعالى النيل وفى البحيرة ، واستطاع عمال الترسانة أن يفكوا أجزاء بعض البواخر ، ويُركبوها ثانية فى البحيرة ، ولما تم تركيب أول باخرة ، استقلها الكولونيل غردون باشا وحاشيته وإبراهيم فوزى (باشا) ، فساروا بها فى لجج البحيرة ، فكانت هذه أول مرة رأت فيها بحيرة ألبرت السفن البخارية ، وقد كان منظر الباخرة موضع دهشة الأهلين ، قال إبراهيم فوزى (باشا) فى هذا الصدد : «كان الأهالى يقفون على شواطئ البحيرة كلما اقتربنا منها صفوفاً معجبين مندهشين من رؤية الوابور . إذ لم يكونوا قد رأوا السفن البخارية مَن قبل ، وكان يزيد عجبهم كلما شاهدوا

(٢٤) السودان بين يدى غردون وكتشنر ح ١ ص ٥ .

ضخامته ويحارون فى كيفية نقله مع جسامته إلى البحيرة » .

وهكذا كان الفتح المصرى يحمل معه أينما سار أسباب الحضارة والعمران .

وقد أنشأ الكولونل غردون باشا عدة نقط عسكرية حصينة على شاطئ النيل ، وحصن النقط التى أنشأها بيكر باشا من قبل ، فمما أنشأه : نقطة (سوباط) على ملتقى نهر سوباط بالنيل ، و (الناصر) على نهر سوباط ، و (شامبه) و (بور) و (اللادو) و (لابورى) و (الرجاف) و (الدفلاى) على النيل الأبيض (بحر الجبل) ، و (مكركه) جنوبى بحر الغزال ، و (مرولى) على نيل فيكتوريا ، و (مقانقو) الواقعة على مصب نيل فيكتوريا فى بحيرة ألبرت (انظر مواقع هذه البلاد على الخريطة الملحقة بهذا الفصل ص ١٢٥)

وقد لقى الجنود المصريون فى هذه الحملات البعيدة المتاعب المضنية لبعد المسافات وصعوبة المواصلات ورداءة الطقس ، وكانت الأمطار تهطل عليهم ليل نهار كأفواه القرب ، واستهدفوا للمخاطرات والمفاجآت الجمة ، واحتملوا كل هذا العناء بصبر وثبات وشجاعة تسجل لهم فى أنصع صفحات تاريخنا القومى .

بسط حماية مصر على مملكة أوغنده
(سنة ١٨٧٤)

بسطت مصر حمايتها على مملكة أوغنده سنة ١٨٧٤ ، على يد الكولونل شايى لونج بك Chaille Long bey ، وهو ضابط أمريكى ، دخل فى خدمة الجيش المصرى سنة ١٨٧٠ ، وعين سنة ١٨٧٤ رئيساً لأركان حرب غردون باشا حين ولايته على مديرية خط الاستواء ، وأخلص النية لمصر ، وخدمها بنزاهة وأمانة أثناء مقامه فى السودان ، ودافع بعد ذلك بقلمه ولسانه عن حقوق مصر الخالدة فى كتب قيمة ، تعد من أهم المراجع فى تاريخ السودان الحديث ، منها : كتاب (مصر ومديرياتها المفقودة) ، و (الأنبياء الثلاثة غردون والمهدى وعرابى) ، و (أفريقيه الوسطى) ، عدا ما نشره فى المجلات الكبرى دفاعا عن مصر واستنكاراً لمطامع الانجليز فى وادى النيل .

ذكر شايى لونج بك فى كتابه (مصر ومديرياتها المفقودة) أنه هو الذى انفذه غردون إلى عاصمة الملك (امتيسى) ملك أوغنده ، وأنه أدى مهمته ، ووصل إلى عاصمة أوغنده ،

خريطة مديرية خط الأستواء والخط المنقوط يمثل الطريق الذى سلكه الكولونل شايي لونج بك فى مسيره إلى أوغنده حيث عقد مع ملكها سنة ١٨٧٤ المعاهدة التى قبل بمقتضاها حماية مصر على مملكته .

وعقد مع ملكها سنة ١٨٧٤ ، معاهدة بمقتضاها قبل وضع مملكته تحت حماية مصر ، وقد أرسل المعاهدة إلى الخديو إسماعيل ، وهذا أبلغ الدول أن مصر ضمت إليها جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبرت[٢٥] ، وقال (ص ٢٥) إن هذه المعاهدة أودعت محفوظات وزارة الخارجية ، ولكنها فُقدت بعد ذلك ، وذكر أن أحد ضباط الجيش البريطانى أحرقها (بعد الاحتلال) ضمن وثائق أخرى نفيسة .

وقال فى موضع (آخر ص ٢٦) إنه لما وصلت البعثة الانجليزية إلى أوغنده فى ابريل سنة ١٨٧٥ وجدت بحاشية الملك امتيسى ، ارنست ليناى دى بلفون (ابن لينان باشا) الذى أرسله غردون بعد معاهدة الحماية مندوبا عن الحكومة المصرية فى بلاط الملك[٢٦] وذكر أن نفوذ مصر قد امتد إلى كل الأصقاع التى تحيط ببحيرة فيكتوريا ، وخاصة مملكة أوغنده ، وان الملك امتيسى كان يفتخر بتبعيته لسلطان مصر[٢٧] .

مذكرة شريف باشا إلى الدول عن امتلاك مصر منطقة البحيرات

وأورد فى كتابه (ص ٢٦) المذكرة التى أرسلها شريف باشا (الوزير المشهور) وزير خارجية مصر فى ذلك الحين إلى الدول خاصة بضم منطقة البحيرات إلى مصر ، وخلاصتها أن غردون استولى على منطقة (مرولى) الواقعة على نهر سومرست[٢٨] ، وأن الجنود المصرية أسسوا محطة فى (ماسندى) عاصمة مملكة (أونيورو) ومحطة أخرى فى (أورندجانى) على نهر السومرست ، بالقرب من بحيرة فيكتوريا ، وأخرى على بحيرة فيكتوريا ذاتها بالقرب من شلالات (ريبون[٢٩]) ، وأخرى فى كل من (ماقنقو) و (الدفلاى) ، وعلى ذلك بسطت

---

(٢٥) مصر ومديرياتها المفقودة ص ١٢ للكولونيل شايى لونج بك

L'Egypte et ses Provinces Perdues par Chaille Long bey

(٢٦) وقد قتل فى عودته من أوغندة إلى الرجاف فى أغسطس سنة ١٨٧٥ .

خريطة مديرية خط الاستواء والخط المنقوط يمثل الطريق الذى سلكه الكولونل شايى لونج بك فى مسيره إلى أوغنده حيث عقد مع ملكها سنة ١٨٧٤ المعاهدة التى قبل بمقتضاها حماية مصر مملكته

(٢٧) مصر ومديرياتها المفقودة للكولونيل شايى لونج بك ص ٢٠٤ .

(٢٨) هو الاسم الذى أطلقه الرحالة اسبيك على النيل بين منبعه من بحيرة فيكتوريا إلى مصبه فى بحيرة ألبرت ، ويسمى أيضًا نيل فيكتوريا .

(٢٩) حيث يخرج النيل من بحيرة فيكتوريا .

مصر سلطتها على جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا ، وبحيرة ألبرت ، وسننشر نص هذه المذكرة فى قسم الوثائق التاريخية .

ونشرت (الوقائع المصرية) البيان الآتى عن أوغنده : « ورد تلغراف إلى المعية السنية من سعادة غردون باشا فى ٢ أغسطس سنة ١٨٧٦ يتضمن أن الملك امتيسى طلب منى عساكر لأجل إقامتها فى بندر حكومته ، فأرسلت إليه مائة وخمسين عسكرياً ، ورتبت ثلاثين عسكرياً فى بلدة (أورندجانى) ، ومثلها فى بلدة (بكبتيشة) ، فكانت تلك الجهات والحالة هذه فى حوزة الحكومة المصرية ، وقد وصلنا إلى (مقانقو) فى ٢٧ جمادى الثانية (سنة ١٢٩٢) بعد سفر سبعة أيام من (روفلى) ، والبحر هناك[٣٠] جيد صالح لسير السفن فيه بسهولة ، وشطوطه معمورة بكثرة الناس فيه ، وأراضيه صالحة للزراعة » .

« وبعد ثلاثة أيام نتوجه إلى (مرولى) و (أورندجانى) و (امتيسى) عاصمة أوغنده ، ويمكننا الوصول إلى سائر تلك الجهات بغاية الراحة التامة والسهولة »[٣١] .

هذا ما ذكرته « الوقائع المصرية » ، وهى الجريدة الرسمية للحكومة ، وفيها تأييد للحقائق التى أوردها شايى لونج بك ، ومن كل ذلك يتبين انضمام أوغنده ومنطقة البحيرات إلى مصر فى عهد الخديو إسماعيل .

موقف غردون

ذكر غردون فى رسائله إلى أخته : أن شايى لونج بك ، أرسل إلى الخديو إسماعيل تقريراً امتدح فيه ولاء امتيسى ، فنال رضاء الخديوى وأرسل إلى لونج بك عربة جميلة هدية للملك[٣٢] .

وظاهر من لهجة غردون فى رسائله إلى أخته أنه لم يكن مرتاحاً إلى إحكام مصر روابطها بأوغنده ، وملكها ، فقد ذكر[٣٣] أن الملك امتيسى أقسم يمين الولاء لمصر فى مارس سنة ١٨٧٦ ،

---

(٣٠) يريد النيل .

(٣١) الوقائع المصرية عدد ٦٧٤ الصادر فى ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٢ . (سبتمبر سنة ١٨٧٦م)

(٣٢) رسائل الكولونيل غردون إلى أخته ص ١٤٢ .

(٣٣) رسائل الكولونيل غردون إلى أخته ص ١٦٨ .

وأنه (أى غردون) كان يبغى بقاء ملك أوغنده مستقلاً ، ولكنه هو الذى دعا الحامية المصرية التى كان غردون معتزمًا جعلها فى (أورندجانى) إلى الاستقرار فى عاصمة أوغنده (دوباجا)[٣٤] ، وقد استقرت بها فعلا فى أغسطس سنة ١٨٧٦ [٣٥] .

وغنى عن البيان أن غردون لم يكن يبغى من استقلال أوغنده دفاعًا عن مصلحتها ، بل كان ما يبغيه أن تكون بعيدة عن التبعية المصرية ، حتى تصير فيما بعد لقمة سائغة لانجلترا ، وقد بسطت فعلاً حمايتها عليها بعد فصل السودان ، وهكذا يتبين لك أن غردون لم يكن خالص النية لمصر مثل شايى لونج بك ، بل كان يخدم السياسة الإنجليزية أثناء تقلده منصب الحكم فى مديرية خط الاستواء ، وكذلك عند ولايته حاكمًا عامًا للسودان سنة ١٨٧٧ كما سيجىء بيانه .

اكتشاف بحيرة (إبراهيم)

(سنة ١٨٧٤)

اكتشف الكولونيل شايى بك لونج ، سنة ١٨٧٤ ، بحيرة (إبراهيم) إحدى البحيرات التى ينبع منها النيل ، وهى الواقعة شمالى بحيرة فيكتوريا ، وقد سماها بحيرة (إبراهيم) باسم إبراهيم باشا أبى الخديو إسماعيل ، وكانت تسمى من قبل بحيرة (كيوجا) ، وقد غلب عليهم الاسم الأصلى فى مصورات الجغرافية (الأطالس) الحديثة وكتبها ، لأن معظم الجغرافيين من الإفرنج يأبون أن يطلقوا اسماً عربياً مصرياً على منابع النيل ، أما البحيرات الأخرى فيسبغون عليها أسماء أوروبية ويسمونها بحيرة (فيكتوريا) وبحيرة (ألبرت) ، وبحيرة (جورج) وبحيرة (إدوارد) ، أما بحيرة (إبراهيم) فلا يروق لهم تسميتها بمثل هذا الاسم المصرى فيبقون اسمها القديم (كيوجا) ، وهذا لعمرى ليس من الحق ولا من الإنصاف فى شىء .

ومن واجب مهندسى مصر وأساتذة الجغرافيا والتاريخ أن يعبروا عن هذه البحيرة باسم (بحيرة إبراهيم) ، ويتخذوه عَلماً لها فى مباحثهم ودروسهم ومؤلفاتهم وأطالسهم حتى يرسخ هذا الاسم فى أذهان النشء والجمهور ، وفى وثائق الحكومة وخرائطها ، ويذيع بين الناس فى

---

(٣٤) وتسمى أيضًا امتيسى على اسم الملك .

(٣٥) رسائل غردون إلى أخته ص ١٧٦ .

مصر والشرق . ثم فى أوروبا ، كما ذاعت أسماء بحيرة (فيكتوريا) وما إليها ، وإن اسم بحيرة (إبراهيم) أحق بالإذاعة من الأعلام الإنجليزية التى أطلقت على البحيرات الاستوائية الأخرى ، فإن اكتشاف هذه البحيرة تم على يد ضابط من ضباط الجيش المصرى ، باسم مصر ولحساب مصر ، فى عهد إسماعيل بن إبراهيم ، وبجهوده ورعايته ، ومكتشفها قد اختار لها هذا الاسم تحقيقاً لرغبة الخديو إسماعيل ذاته ، فواجب الوفاء والمنطق يقضى باحترام هذه التسمية واتباعها (انظر الخريطة ص ١٢٥)

وقد ذكرها العلامة جورج شونفرت Schweinfurth فى خريطته التى وضعها لبيان خط سير أرنست لينان دى بلفون من الرجاف إلى بحيرة فيكتوريا سنة ١٨٧٥ ، وسماها باسمها الصحيح (بحيرة إبراهيم) ، وكتب بجانبها العبارة الآتية (اكتشفها لونج بك فى أغسطس سنة ١٨٧٤) ، وتجد هذه الخريطة ملحقة بالعدد الأول من السنة الأولى لمجلة الجمعية الجغرافية الخديوية (نوفبر سنة ١٨٧٥ — فبراير سنة ١٨٧٦) ، وسماها غردون فى خريطته (بحيرة كيوجا أو بحيرة إبراهيم) ، وهى تشمل كيوجا وبحيرة كوانيا المتصلة بها .

وللكولونل شايى لونج بك رسالة مسهبة فى مجلة الجمعية الجغرافية (مجموعة ٣ عدد ٧ سبتمبر سنة ١٨٩١ ص ٥٤٠) اعترض فيها على إغفال اسم بحيرة إبراهيم ، وذكر وثائق هامة عن اكتشافه وخدماته لمصر فى مديرية خط الاستواء .

وفى الحق أن الكولونل شايى لونج بك يجب أن يقترن اسمه بأسماء مكتشفى منابع النيل ، فالرحالتان (اسبيك) و (جرانت) اكتشفا بحيرة فيكتوريا ومنبع النيل منها ، والسير (صمويل بيكر) اكتشف بحيرة ألبرت ، و (شايى لونج بك) اكتشف بحيرة إبراهيم ، ومجرى النيل من أورندجانى إلى مرولى ثم إلى فويره .

وقد ذكر فى كتابه « مصر ومديرياتها المفقودة » ص ١٤٨ أنه بعد أن اكتشف بحيرة (ابراهيم) قصد إلى (ماسندى) عاصمة (أونيورو) ، فألفى ملكها القديم (كابريقه) يناصب الحكومة العداء ، وأن كابريقه هذا هاجمه فى قوة من ٦٠٠ مقاتل ، فانسحب لونج بك إلى (فويره) الواقعة على نيل فيكتوريا .

وذكر غردون باشا [٣٦] أن كابريقه أخلى (ماسندى) فى يناير سنة ١٨٧٦ وأن المواصلات أعيدت إلى هذه العاصمة .

(٣٦) فى رسائله إلى أخته ص ١٦٥ — ١٧٦ .

استعفاء غردون من منصبه

(سنة ١٨٧٦)

بقى الكولونل غردون مديراً لعموم خط الاستواء إلى أن استعفى من منصبه سنة ١٨٧٦ ، وعاد إلى القاهرة ، ومنها إلى انجلترا ، ولعله رحل إليها ليطلع حكومته على أحوال المنطقة التى تولى حكمها ، وليتلقى تعليماتها الجديدة فيما تأمره به ، لأنه لم يلبث فى انجلترا ثلاث سنوات إلا قليلا ، حتى تدخلت الحكومة الإنجليزية لدى الخديو لتعيينه فى منصب أكبر من منصبه القديم ، إذ جعله حكمدار عموم السودان . فصارت أقاليم السودان تحت مطلق سلطته كما سيجىء بيانه .

مصير مديرية خط الاستواء

عندما غادر غردون باشا منصبه الأول سنة ١٨٧٦ استخلف فى خط الاستواء وكيله الكولونل « بروت » Prout ، وهو ضابط أمريكى التحق بخدمة الجيش المصرى وخدم تحت لواء غردون ، وفى عهد حكمدارية غردون باشا للسودان جعل إبراهيم بك فوزى مديراً لخط الاستواء ، ثم فصله وعين مكانه الدكتور إدوار اشنتزر Eduard Schnitzer وهو طبيب ألمانى صحب غردون فى السودان واعتنق الإسلام ، وعرف بأمين بك ، وأخلص لمصر ، فبقى يتولى الحكم فى خط الاستواء إلى شبوب الثورة المهدية ، ولم تستطع قوات المهدى أن تستولى على هذه المديرية وظل أمين بك يحكمها باسم الحكومة الخديوية ، ونقل عاصمتها من اللادو إلى ودلاى جنوباً ليكون بعيداً عن غزوات المهديين ، وبقى فى مركزه حتى اضطرت الحكومة المصرية بضغط الإنجليز إلى إخلاء السودان ، وأنعم عليه الخديو توفيق برتبة الباشوية جزاء إخلاصه لمصر ، فصار يعرف بأمين باشا ، وأرسل إليه نوبار باشا رئيس مجلس الوزراء وقتئذ يبلغه قرار الجلاء عن السودان وتركه وشأنه ، فآثر البقاء فى منصبه ، مخلصاً لمصر وحكومتها ، معتمداً على ولاء الضباط والجنود المصريين والسودانيين الذين تحت إمرته ، ولكن الإنجليز أبوا عليهم البقاء ، فأرسلوا الرحالة استانلى بحجة « إنقاذ أمين باشا » . والواقع لإجلائه عن مديرية

خط الاستواء والقضاء على سلطة مصر فيها ، فاضطره استانلى سنة ١٨٨٩ إلى الجلاء عنها ، وبانسحاب أمين باشا من مديرية خط الاستواء تقلص ظل السلطة المصرية عن هذا الإقليم ، وانتهزتها انجلترا فرصة فاحتلت أوغندة وجعلتها تحت حمايتها (سنة ١٨٩٣) وألحقت بها الجزء الجنوبى من مديرية خط الاستواء .

ولما تم استرجاع السودان ١٨٩٨ أكرهت مصر على توقيع اتفاقية سنة ١٨٩٩ الباطلة التى جعلت إدارة السودان مشتركة بين مصر وانجلترا ، وعدلت حدوده طبقاً لأهواء الإنجليز ، فبعد أن كانت حدود السودان المصرى تنتهى عند بحيرة فيكتوريا صارت بعد اتفاقية سنة ١٨٩٩ تنتهى عند (منجلا) شمالى غندكرو ، والآن تنتهى عند (نيمولى) — الإبراهيمية — وبذلك اغتصبت انجلترا معظم مديرية خط الاستواء القديمة ، وخسرت مصر تلك المديرية الشاسعة بعد أن بذلت فى سبيل فتحها وتعميرها ما بذلت من الجهود والأموال ، والضحايا والرجال .

منع الاتجار بالرقيق

كان الاتجار بالرقيق ممنوعاً من عهد محمد على ، ولكن هذا المنع لم يكن إلا اسمياً ، وبقيت تجارة الرقيق فى السودان قائمة إلى عهد سعيد باشا ، بعين الحكومة وبصرها ، وبتأييد موظفيها ، وكان يتولاها تجار أقوياء لهم بيوت تجارية كبيرة تتجر فى حاصلات السودان وفى الرقيق ، وتربح من كل ذلك الأرباح الطائلة ، وكان تجار الرقيق لما لهم من النفوذ والسطوة والمال يقيمون فى مختلف الجهات معاقل حصينة اتخذوها مراكز للتجارة واصطياد الرقيق .

فلما تبوأ إسماعيل عرش مصر اعتزم أن ينضم إلى حركة العاملين على تحرير الأرقاء فى أنحاء العالم ، وأن يكتسب ثناء الإنسانية فى مقاومة تجارة الرقيق ، وبذل جهوداً كبيرة فى هذا السبيل .

فى سنة ١٨٦٣ أرسل إلى موسى باشا حمدى حكمدار السودان وقتئذ يأمره بتعقب تجار الرقيق وحربهم ، فصدع الحكمدار بالأمر . وضبط سبعين سفينة مشحونة بالأرقاء بين « كاكا » و « فاشوده » وأطلق سراحهم ، وأعادهم إلى بلادهم ، واعتقل التجار الذين جلبوهم ، ولم يفرج عنهم إلا بعد أن أعطوه العهود والمواثيق ألا يعودوا إلى النخاسة .

وكان لاحتلال فاشودة سنة ١٨٦٥ أثر كبير فى سد طريق النيل فى وجه تجار الرقيق الذين

كانوا يقتنصون الأرقاء فى جهات بحر الغزال وخط الاستواء ويشحنونهم فى السفن وأصدر إسماعيل أمره بتحرير كل عبد أو جارية يثبت على سيدهما أنه أساء معاملتهما .

وفى عهد حكمدارية جعفر مظهر باشا وإسماعيل أيوب باشا بذلت الحكومة جهوداً موفقة فى محاربة تجارة الرقيق ، وقد عهد الخديو أيضاً إلى السير صموئيل بيكر ثم إلى غردون باشا من بعده العمل على تحقيق هذه الغاية كما تقدم بيان ذلك تفصيلا .

فمن الحق أن الخديو إسماعيل قام بعمل مجيد ، وأسدى إلى الإنسانية خدمة جليلة فى منع هذه التجارة الممقوتة .

لكن من الحق أن نقول أيضًا أن عمله كان فى حاجة إلى شىء من الحكمة والروية فإن تجارة الرقيق كان يقوم بها أناس أقوياء فى السودان ، لهم من أعيان البلاد أنصار وتتألف منهم طبقة كبيرة من الأهلين .

كانت هذه التجارة مصدر ثروتهم ، فضلا عن أن الأيدى العاملة فى الزراعة ورعى الماشية وغير ذلك كان معظمها من الرقيق ، وقد ألف أعيان السودان والطبقة المتوسطة من أهله استخدام الأرقاء كأتباع لهم وموال ، ونظموا حياتهم على هذا الأساس ، ففاجأة السودان بتحرير الأرقاء دفعة واحدة كانت مجازفة لا تحمد عواقبها ، هذا إلى أن الخديو قد جعل على رئاسة مقاومة الاتجار بالرقيق جماعة من الأجانب ، فاستثار وجودهم عواطف الأهلين الدينية . وكراهيتهم للحكومة ، فاجتمعت هذه العوامل وكانت من أسباب قيام الثورة المهدية .

فالأمر إذن كان فى حاجة إلى التأنى والحكمة ، اعتبر ذلك فى أن الحكومة الإنجليزية حينما قررت إبطال الرقيق فى أملاكها خصصت عدة ملايين من الجنيهات لتعويض موالى الأرقاء المحررين .

فكان من الواجب على إسماعيل باشا أن يأخذ فى مشروعه بالهوادة وبعد النظر ؛ وحسن السياسة ، لكنه لم يفعل ، واعتزم مقاومة تجارة الرقيق ومنع الاسترقاق فحسب فاستهدفت الحكومة لعداء طبقة كبيرة من أعيان السودان وتجاره ، مما ظهر أثره فى نجاح دعوة المهدى أوائل عهد توفيق باشا إذ انضم إلى الثورة تجار الرقيق فى السودان .

وفى هذا الصدد يقول المسيو « داريل » Daryl فى مقدمة « رسائل غردون إلى أخته » ما يأتى : « عهد الخديو إسماعيل إلى الكولونل غردون بمطاردة تجار الرقيق فى السودان ، ولكن المجهودات العنيفة التى بذلها ذلك الضابط الإنجليزى لم يكن لها من نتيجة عملية سوى إثارة

الطبقة التى كانت مصر تعتمد عليها فى السودان » .

وقد أبرم إسماعيل فى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ معاهدة مع الحكومة الإنجليزية[٣٧] للتعاون على منع الاتجار بالرقيق ، احتوت نصوصًا تمكن الإنجليز من الافتيات على سيادة مصر ومصالحها ، إذ أباحت لهم الرقابة على السفن الحاملة للراية المصرية وتفتيشها وضبطها بحجة تعاطيها تجارة الرقيق ، فكانت معاهدة لا خير فيها ، ولا فائدة منها لمصر.

ظهور الزبير باشا رحمت[٣٨]

كان الزبير أكبر تجار السودان ، وخاصة فى تجارة الرقيق ، وله نفوذ واسع وسلطان كبير فى إقليم بحر الغزال .

وقد شبت حرب بينه وبين أحد ملوك بحر الغزال انتهت بهزيمة هذا الملك ، فامتلك الزبير بلاده ، واتخذ عاصمته مقرًا له ، وسماها (ديم الزبير) ، فصار فيها ملكًا ، ودانت له جهات بحر الغزال ، وتقاطر الناس إليه للانتظام فى خدمته ، فجمع لنفسه جيشاً قويًّا لتأييد سلطته ، واقتناص الرقيق ، وفتح طريق التجارة من بحر الغزال إلى كردفان .

وفى سنة ١٨٦٩ جاء بحر الغزال رجل يدعى (البلالى) قادماً من الخرطوم ومعه نفر من الجند لاحتلال هذا الإقليم باسم الحكومة الخديوية ، ومعه فرمان بتسميته مديراً لبحر الغزال ، ولكن الزبير جمع جيشه ، وكمن أتباعه للبلالى فقتلوه ، ثم خشى الزبير عاقبة عدائه الحكومة المصرية ، فجنح إلى مسالمتها ، وأظهر ولاءه لها واعترف بسلطة الخديو .

واتسع سلطانه ، ففتح بلاد (شكا) الواقعة بين بحر الغزال ودارفور ، ووضع بين يدى الحكومة الخديوية الأقاليم التى دانت له لتنصب لها الحكام ، وجعل تقدمته لها دليلا على ولائه ، وقد أخلص فعلا لمصر وبقى على ولائه طول حياته .

---

(٣٧) مجموعة المعاهدات لدى مارتانس . سلسلة جديدة ج ٢ ص ٤٩٣

De Martens. Nouv. Recueil gen. des Traites 11 p. 493

وتجد نصها العربى فى قاموس جلاد ح ٢ ص ٢٣٨ طبعه سنة ١٩٠٠

(٣٨) استلخصلنا ما ذكرناه عن الزبير من ترجمة حياته بقلمه المنشور فى كتاب السودان لنعوم بك شقير ح ٢ ص ٦٧ . وما ذكره إبراهيم باشا فوزى فى كتابه ج ١ ص ١٣٦ .

فشكره الخديو على إخلاصه ، وأنعم عليه برتبة بك ، وعهد إليه حكم البلاد التى فتحها باسم الحكومة الخديوية ، وهى بحر الغزال وشكا فصار مديراً لبحر الغزال ، وجعلت مدينة شكا عاصمة للمديرية .

فتح سلطنة دارفور

(سنة ١٨٧٤)

رغب الزبير باشا إلى حكمدار السودان « إسماعيل باشا أيوب » فتح دارفورد ، وكانت إلى ذلك العصر مملكة مستقلة ، ولئن أدخلتها الفرمانات الصادرة لمحمد على ضمن أملاك مصر (انظر عصر محمد على ص ٣٤٧) إلا أنها بقيت مستقلة فعلا عن الدولة المصرية إلى ذلك الحين ، وكان عليها ملك يسمى السلطان إبراهيم يناوئ الزبير ويعمل على إجلائه عن « شكا » فأيدت الحكومة مشروع الزبير ، وعهد الخديو إلى إسماعيل باشا أيوب فتح دارفور باشتراكه مع الزبير بك .

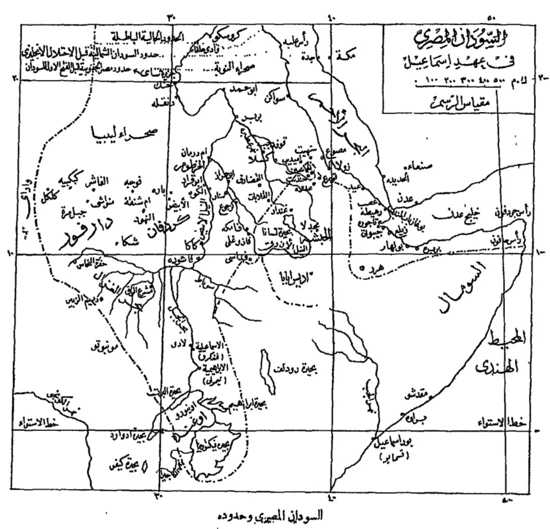
معركة منواشى

(٢٥ أكتوبر سنة ١٨٧٤)

فجهز جيشاً فى كرفان ، وعهد إلى الزبير بك حشد جيشه فى بحر الغزال كى يحاط بدارفور من الشرق ومن الجنوب ،

فسار الزبير من الجنوب ، وتلاقى مع قوات سلطان دارفور ، وكانت تتألف من نحو عشرين ألف مقاتل . فهزمها الزبير غير مرة ، واشتبك الجمعان فى « منواشى » حيث نشبت بينهما فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٧٤ معركة فاصلة ، انتهت بانتصار الزبير انتصاراً مبيناً ، وقتل السلطان إبراهيم وتشتت جيشه ، فدانت البلاد للحكم المصرى ، ودخل الزبير مدينة الفاشر عاصمة دارفور .

ثم جاء إسماعيل باشا أيوب على رأس الفرقة الزاحفة من الشرق ، فدخل المدينة فى ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٤ (٢٧ رمضان سنة ١٢٩١) . وانتهت الحرب بضم سلطنة دارفور إلى أملاك مصر .



السودان المصري وحدوده

في عهد اسماعيل

وأرسل الحكمدار يبشر الخديو بأخبار الفتح ، فابتهج بهذا النصر المبين ، وأنعم على إسماعيل باشا أيوب حكمدار السودان برتبة الفريق ، وعلى الزبير برتبة اللواء فصار يعرف بالزبير باشا ، وعهد إلى الحكمدار تبليغ أفراد الجيش الذى تولى هذا الفتح ثناءه وتحياته ، لما أبلوه فى فتح دارفور ، فلما تلقى الحكمدار هذه الرسالة جمع الجيش فى الفاشر ، وتلا عليهم تبليغ الخديو فى احتفال عسكرى مهيب ، وأطلقت المدافع ابتهاجاً وإجلالا (٣٩) .

وبفتح دارفور زاد عدد سكان الدولة المصرية نحو ثلاثة ملايين نسمة .

وأقام إسماعيل باشا أيوب حصناً منيعاً فى الفاشر ، وبنى داراً للحكومة ، ومنزلا للحاكم ، وثكنة للجنود ، ووطد دعائم الأمن والطمأنينة ، وأقام فى المدينة سوقاً عامرة للتجارة .

على أن الزبير باشا شكا من فداحة الضرائب التى فرضها إسماعيل باشا أيوب على الأهلين ، فاستاء الحكمدار من هذه الشكوى ، ورفع الأمر إلى الخديو ، فأرسل يأمر الزبير باشا بعدم التعرض للحكمدار فى إدارة البلاد ، فطلب الزبير من الخديو أن يجىء إلى مصر ليعرض عليه حقيقة الحال ، ويفضى إليه بآرائه فى تنظيم الإقليم ، فأجابه الخديو إلى طلبه وأذن له بالحضور ، فسار إلى مصر ، واستخلف ابنه سليمان فى قيادة جنده .

ولما جاء مصر أكرم الخديو وفادته ، ولكنه لم يأذن له بالعودة إلى السودان ، فأدرك أن المراد من إبقائه أن يكون رهينة لولائه للحكومة ، فأذعن للبقاء والإقامة فى مصر مشمولا بعطف الحكومة وإكرامها .

ضم زيلع وبربرة

(سنة ١٨٧٥)

« زيلع » و « بربرة » من بلاد الصومال الشمالية الواقعة على خليج عدن ، ذكرهما ياقوت فى معجم البلدان ج ٢ ص ١٠٦ و ج ٤ ص ٤٢٥ .

وأهم مدنها ثغور « زيلع » و « بربرة » و « بولهار » ، وتعد الأولى ميناء سلطنة هرر على خليج عدن ، وملتقى متاجر هذه البلاد من البن وسن الفيل والجلود وريش النعام والصمغ العربى والمر وغير ذلك . ولهذه الثغور عامة أهمية بحرية ، لأن من يملكها يتسلط على الملاحة فى

(٣٩) عن الوقائع المصرية . العدد ٥٨٥ الصادر فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٧٤ .

خليج عدن إلى مدخل البحر الأحمر.

ومن بلاد زيلع بلدة (جبرت) التى نشأ منها أجداد (الجبرتى) المؤرخ المصرى المشهور. فقد ارتحل جده السابع (الشيخ عبد الرحمن) إلى مصر فى أوائل القرن العاشر للهجرة. واستطونت أسرة الجبرتى مصر من ذلك العهد.

كانت زيلع وبربرة من أملاك تركيا، تابعتين للواء (الحديدة) باليمن، ففكر الخديو إسماعيل فى ضمها إلى أملاك مصر حينما اعتزم فتح سلطنة (هرر) لأن زيلع هى ميناء هرر كما قدمنا، فسعى إلى ذلك لدى الحكومة العثمانية، ونجح فى مسعاه، إذ صدر له فرمان من السلطان فى أول يوليه سنة ١٨٧٥ (٢٧ جمادى الأولى سنة ١٨٩٢) بالتنازل له عن (زيلع) وملحقاتها، وذلك مقابل زيادة فى الجزية السنوية قدرها ١٥,٠٠٠ جنيه عثمانى[٤٠] (١٣,٣٦٥ جنيه مصرى)، ويدخل فى ملحقات زيلع ثغور «بربرة» و«بولهار» و(تاجوره).

وقد جعل الخديو من هذه البلاد محافظتين عرفتا بمحافظة «زيلع»، ومحافظة «بربرة»، وأرسل الحاميات المصرية إلى الثغرين المذكورين، فجاءت زيلع كتيبة من الجند بقيادة محمد رءوف باشا الذى مر ذكره فى الكلام عن مديرية خط الاستواء، وجُعل رءوف باشا محافظاً لزيلع، والأميرال رضوان باشا محافظاً لبربره، وكان هذا الأميرال يقود السفينة الحربية المصرية التى أقلت الحامية إلى الميناء المذكور.

وجُعل الأمير أبو بكر إبراهيم أمير زيلع السابق وكيلا لمحافظتها وملحقاتها، وأنعم عليه بالرتبة الثالثة[٤١] ثم رقى إلى منصب المحافظ[٤٢].

وعين الحكام العسكريون والملكيون فى المحافظتين، وعنوا بعمرانهما. فأقاموا بهما عدة مبان للحكومة وللجمارك والثكنات العسكرية، وأنشأوا مسجداً فى «بربره» وصهريجا لخزان المياه العذبة بها، ومدوا أنابيب الماء فيها، وأنشئت مكاتب للبريد فى كلا الثغرين، قال غردون باشا فى رسائله «ص ٢٧» إن المنشآت التى أقيمت فى بربره كلفت مصر سبعين ألف جنيه.

وبضم زيلع وبربره امتدت سلطة مصر من سواحل البحر الأحمر إلى سواحل خليج عدن الشمالية، أى من سواكن إلى مصوع، فزولا، فعيد، فعصب، فتاجوره، فزيلع،

(٤٠) الوقائع المصرية العدد ٦١٥ (١٥ يوليه سنة ١٨٧٥).

(٤١) و(٤٢) الوقائع المصرية العدد ٦٢٨ — ٧ أكتوبر سنة ١٨٧٥، والعدد ٦٣١ — ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥

فبولهار . فبربره ، ثم وصلت إلى رأس جردفون (جردفوى) على المحيط الهندى .

وقد بقيت محافظتا زيلع وبربره ملكًا لمصر . إلى أن اغتصبهما الإنجليز بعد شبوب الثورة المهدية ، إذ أكرهوا الحكومة المصرية على الجلاء عن السودان ، وشمل القرار هاتين المحافظتين ، فأخلتهما الحامية المصرية فى مايو سنة ١٨٨٥ ؛ واحتلها الإنجليز من ذلك الحين ، وما زالوا يحتلونها إلى اليوم (١٩٣٢) ، ولكنه احتلال غير شرعى ، لأن مصر لم تتنازل عن حقوقها فى تلك البلاد ، ولم تقر الاحتلال الإنجليزى بها .

فتح هرر

(سنة ١٨٧٥)

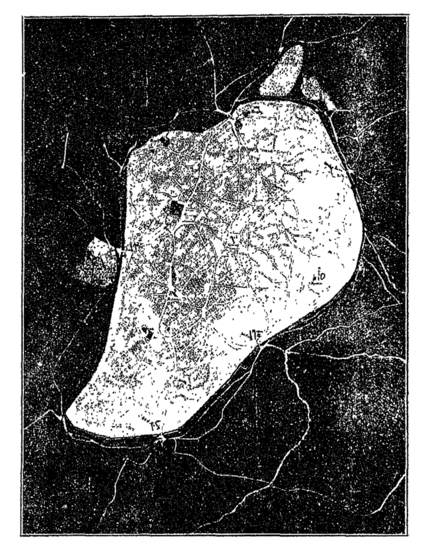
تقع سلطنة (هرر) شرقى الحبشة وغربى زيلع ، وهى إمارة إسلامية مستقلة ، يبلغ عدد سكانها نحو مليونى نسمة ، وأرضها زراعية ، تجود فيها زراعة البن والقمح والذرة والفول والعدس والموز والفاكهة والقصب ، ويزرع فيها أيضاً القطن وهو أقل مرتبة من القطن المصرى ، وتنسج منه أقمشة متينة ، وأهم حاصلاتها البن الذى لا يقل جودة عن البن اليمنى .

وتتبادل هرر المتاجر مع الخارج ، فتصدر البن والصمغ وريش النعام والزعفران والمر والزبد والجلود على اختلاف أنواعها ، وتستورد الأقمشة والمنسوجات والنحاس والزجاج وما إلى ذلك .

وعاصمتها مدينة « هرر » الواقعة على بعد ٢٣٢ ميلا من زيلع وهى من المدن العامرة ، يسكنها ٣٥ ألف نسمة ، وهم على جانب من الحضارة ، ذكر عنهم اللواء محمد مختار باشا أن التعليم منتشر بينهم ، وفيهم الشعراء والأدباء ، وأن جميع الصغار فيهم يتعلمون القراءة والكتابة والرياضيات والفقه على مذهب الإمام الشافعى ، وأن عادة تعدد الزوجات معدومة بين أهلها ، والطلاق نادر فيهم ، قال : إنه قضى فى المدينة سنة كاملة (من أواخر سنة ١٨٧٥ إلى ١٨٧٦) لم يشهد فيها حادثة طلاق واحدة[٤٣] ، وكان على هرر قبل الفتح المصرى أمير يدعى محمد عبد الشكور ، سار فى حكمه سيرة ظلم ، وإرهاق ، فنقم منه الأهلون اعتسافه وتمنوا أن يُدال منه .

---

(٤٣) انظر مبحث اللواء محمد مختار باشا عن هرر ، تلاه بالجمعية الجغرافية بجلسة ٢ فبراير سنة ١٨٧٧ ونشر بمجلة الجمعية مجموعة ١ عدد ٣ ص ٣٥١ و ٣٦٦ .



خريطة مدينة هرر سنة ١٨٧٦

مصغرة عن خريطة بالفرنسية وضعها محمد مختار بك « باشا » وعبد الله بك فوزى « باشا » من ضباط أركان حرب الجيش المصرى فى حملة هرر ، وتجد بالخريطة المعالم الآتية :

١ سوق المدينة – ٢ ميدان ٣ و ٤ و ٥ و ٦ و ٧ – مساجد – ٨ و ٩ سور المدينة – ١٠ باب السلام (من أبواب المدينة) – ١١ باب الحاكم – ١٢ باب النصر – ١٣ باب الفتوح ١٤ – باب الرحمة – ١٥ و ١٦ و ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ حدائق – ٢١ مدابغ – ٢٢ نهر هرر

واعتزم إسماعيل فتح هذه السلطنة لما لموقعها من الأهمية ، ولأنها تعد من البلاد المكملة للسودان ، فأخذت الجنود المصرية المرابطة فى زيلع تستطلع أحوالها وتتعرف طرق الوصول إليها ، وبعد أن تم لها ذلك وحفت فرقة من الجيش المصرى بقيادة محمد رءوف باشا فى سبتمبر سنة ١٨٧٥ قاصدة إلى « هرر » عاصمة الإمارة ، ورافق الحملة بعض ضباط أركان الحرب بقيادة البكباشى محمد مختار بك ، وهو الذى صار فيما بعد اللواء محمد مختار باشا صاحب الكتاب القيم « التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية » ، وله المحاضرات النفيسة فى الجمعية الجغرافية .

لم تلق الفرقة فى زحفها مقاومة تذكر ، اللهم إلا ما كان من بعض قبائل الجلا إذ اعترضوا زحفها ، واصطدموا بالحملة فى معركتين ، دامت إحداهما سبع ساعات وانتهت بتسليم القبائل[٤٤] ، واستأنفت الحملة سيرها إلى أن وصلت إلى مدينة هرر . وفتحتها فى ١١ أكتوبر سنة ١٨٧٥ ورفعت العلم المصرى على أبوابها وفوق قصر أميرها ، وبذلك ضمت تلك السلطنة إلى أملاك مصر[٤٥] .

ثم ظهرت بوادر الانتقاض بين بعض قبائل الجلا التى كانت لها الصولة والسطوة فى عهد الأمير محمد عبد الشكور ، فطلب رءوف باشا مدداً من الجند على سبيل الاحتياط ، فجاءه المدد من السويس إلى زيلع على ظهر الباخرة (المحروسة) ، ووصل الجند إلى هرر فأذعنت القبائل ، واستتب الأمن فى أنحاء البلاد ، وانتظمت الإدارة فيها .

وجعل رءوف باشا حكمداراً (حاكماً عاماً) لهرر ، وعين أميرها السابق محمد عبد الشكور محافظاً لمدينتها[٤٦] واطمأن الأهلون إلى الحكم المصرى .

لكن رءوف باشا لم يلبث أن تنكر لأمير هرر وقتله ، بعد أن كان يثنى عليه فى تقاريره إلى الحكومة ويمتدح ولاءه ، ولم يعرف السبب الذى دعاه إلى قتله . ولكن الآراء متفقة على أن قتله كان عملاً لا مبرر له ، ويقول غردون باشا فى رسائله[٤٧] إن هذا العمل لم يكن له

---

(٤٤) هرر فى ظل الحكم المصرى للأستاذ بوليتشيكى Paulitschke مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة نمرة ٢ عدد ١٠ (مارس سنة ١٨٨٧) ص ٥٧٥ والمسيو بوليتشكى هذا هو عالم نمسوى جاء هذه البلاد فى بعثة علمية وشهد الحكم المصرى بها .

(٤٥) الوقائع المصرية العدد ٦٣١ ، ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥ .

(٤٦) الوقائع المصرية العدد ٦٣١ ، ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥ .

(٤٧) رسائل غردون إلى أخته ص ٢٧٤ .

مسوغ ، وأن ابن الأمير ذهب إلى مصر ليشكو الحكمدار إلى الخديو فغضب إسماعيل لهذا العمل ، لكنه لم يفعل شيئاً .

وقد رسم الضباط المصريون الذين شهدوا فتح هرر خريطة تلك البلاد ، ومن هؤلاء الضباط محمد مختار بك (باشا) وعبد الله فوزى بك (باشا) ، وخططوا المعالم والمواقع بين زيلع وهرر والجهات المجاورة .

وفى عهد الحكم المصرى بنيت دار للحكومة ، وأقيم مسجد جديد ، وشيدت أربع ثكنات لإقامة الجند ، وعدة منازل للموظفين ، ولم يسخر أحد من الأهلين فى إقامة هذه المبانى ، بل تولى الجنود المصريون إقامتها .

وبقى رءوف باشا يتولى الحكم إلى أن أقاله غردون باشا حين عين حاكماً عاماً للسودان وأعاده إلى مصر ، وعهد بالحكم إلى رضوان باشا محافظ بربره ، ثم خلفه سنة ١٨٨٠ محمد نادى باشا ، فعنى بضبط الأمن وتحصين المدينة . وبقى يتولى الحكم إلى أن شبت الثورة العرابية فى مصر ، ثم الثورة المهدية فى السودان ، فلم يضطرب حبل النظام بين الجند فى هرر ، وفى سنة ١٨٨٢ عين على رضا باشا ، خلفاً لنادى باشا ، وظل الحكم المصرى مستقرًّا فى تلك البلاد ، إلى أن أكرهت انجلترا حكومة مصر على إخلاء السودان وملحقاته ، فأرسلت تدعو القوات المصرية إلى الجلاء عن هرر ، فصدعت بالأمر وانسحبت منها سنة ١٨٨٥ ، وكان عددها حين الجلاء ٣٤١١ جندى ، يصحبهم ١٦٠ من الموظفين ورجال البوليس والعمال و ٥٠٠٠ من النساء والأطفال من عائلات الجند والموظفين ، فكان مجموع المصريين الذين انسحبوا من هرر ٨٥٧١ قصدوا إلى زيلع ، وأقلعت بهم البواخر إلى مصر.

طوى العلم المصرى من تلك البلاد ، بعد أن ظل يخفق على ربوعها عشر سنوات سوياً ، كان فى خلالها رمزًا للنظام والحضارة ، فقد استتب فيها الأمن ، وانتظمت الإدارة ونشطت الزراعة والتجارة ، وعوّد المصريون الأهالى بعض الزراعات والفواكه المصرية كالعنب والخوخ واللوز والليمون ، وقصب السكر والبطاطس والخضر وما إلى ذلك ، وازدادت عدد القوافل التى تنقل المتاجر من داخل البلاد إلى السواحل ، فبينماكان عددها سبعين قافلة على عهد الأمراء السابقين ، بلغت اربعمائة قافلة كل سنة فى عهد الحكم المصرى[٤٨] .

ولما جلا المصريون عن هرر تسلم سلطة الحكم فيها أمير من سلالة الأمراء الذين كانوا

(٤٨) بوليتشكى . المرجع السابق .

يحكمونها قبل الفتح المصرى ، ثم أغار عليها ملك الحبشة وأخذها عنوة وضمها إلى أملاكه ، وما زالت تابعة لها إلى اليوم (١٩٣٢) .

حملة الصومال

(سنة ١٨٧٥)

اعتزم الخديو إسماعيل فتح بقية بلاد الصومال[٤٩] ، فجرد لهذا الغرض سنة ١٨٧٥ حملة ، مقصدها فتح بقية شواطىء الصومال . والوصول إلى مصب نهر جوبا (الجب)[٥٠] .

ثم فتح الطريق من هناك إلى منطقة البحيرات ، لكى تتصل مصر بأملاكها فى هذه المنطقة ، من طريق البحر الأحمر والمحيط الهندى ، فضلاً عن الطريق الذى يتبع مجرى النيل .

ففى الوقت الذى أنفذ فيه حملة هرر ، جهز حملة الصومال بقيادة الأميرال ماكيلوب باشا مدير الموانئ والمنارات المصرية ، وتولى قيادة جنود البر فى هذه الحملة الأميرالاى شايى لونج بك ، ذلك الضابط الشهم الذى تكلمنا عنه آنفاً ، وكان غردون باشا إذ ذاك حاكماً لخط الاستواء ، فعهد إليه إسماعيل الاتصال بالحملة .

أقلعت العمارة المصرية من السويس ، تقل الجنود المصريين ، فى فبراير سنة ١٨٧٥ ، واجتازت البحر الأحمر ، ثم بوغاز باب المندب ، فخليج عدن ، ورست فى ميناء بربره ، ريثما تستريح وتأخذ أهبتها ، وتستكمل معداتها ، ثم أقلعت ثانية ، واتجهت إلى المحيط الهندى ، فوصلت إلى رأس (حافون) جنوبى رأس جردفون (جردفوى) ، وركز قائد الحملة العلم المصرى هناك ، ودعا رؤساء القبائل إلى الدخول فى طاعة الحكومة المصرية ، فلبوا الطلب طائعين ، ثم أقلعت العمارة تخوض عُباب المحيط الهندى ، حتى وصلت إلى بلدة (براوه) الواقعة شرقى نهر الجوبا (الجب) ، فأذعنت القبائل هناك للحكم المصرى ؛ وترك بها ماكيلوب باشا حامية من الجند ، وعين عليها محافظاً ، ثم اتجه إلى بلدة « قسمايو »[٥١] ،

---

(٤٩) تطلق بلاد الصومال على الجهات الواقعة فى المثلث الذى تنتهى إليه إفريقية بين خليج عدن والمحيط الهندى .

(٥٠) نهر ينبع جنوبى الحبشة ويصب فى الأقيانوس الهندى شمالى زنجبار .

(٥١) جنوبى خط الاستواء . وقد سميت فى الخريطة التى وضعها ضباط أركان حرب الجيش المصرى « بور إسماعيل » .

الواقعة على مصب الجب ففتحها ، وسارت القوارب تحمل الجنود فى نهر الجوبا نحو ١٥٠ ميلاً ، ولكن الملاحة تعذرت فيه ؛ فرجعوا إلى بلدة قسمايو « بور إسماعيل » ، وتأهبت الحملة البرية للسير غرباً ، قاصدة بحيرة فيكتوريا ، وفقاً للخطة المرسومة لها من قبل ، ولكنها أبطأت فى الزحف من قسمايو ، ويقول شايى لونج بك : إن من أسباب إخفاقها إغضاء غردون عن الاتصال بها رغم الأمر الصادر له من الخديو إسماعيل .

وينسب لونج بك هذا الإغضاء إلى احتمال وصول تعليمات من الحكومة الإنجليزية إلى غردون توجب عليه عدم التعاون مع هذه الحملة[٥٢] ، وهذا يدلك على عدم إخلاص غردون لمصر ، وعدم ولائه للحكومة المصرية ، وقد اعترف غردون فى رسائله أنه بالرغم من تكليف الخديو ماكيلوب باشا وشايى لونج بك انتظاره على نهر الجوبا « فإن انتظاره سيكون على غير جدوى »[٥٣] ، فكأنه كان مُصِرًّا على إهمال العمل بأوامر الخديو .

وكانت هذه الحملة قد أزعجت الإنجليز ، فخابرت إسماعيل فى الكف عنها ، وأرسل وزير خارجية انجلترا إلى الخديو مذكرة بهذا المعنى ، فخشى عواقب المشاكل بينه وبين الحكومة الإنجليزية ، وكان فى الوقت نفسه يجهز الحملة على الحبشة ، فاستدعى ماكيلوب باشا ، وانسحبت الحملة من الجوبا فى يناير سنة ١٨٧٦ ، وعادت إلى مصر[٥٤] .

وهكذا أخفقت تلك الحملة ، ولم تصل إلى تحقيق غايتها ، وهى بسط نفوذ مصر على شواطئ المحيط الهندى ، ومنها إلى منابع النيل ، وذهبت الجهود التى بذلت فيها سدى ، ويرجع إخفاقها كما ترى إلى تدخل السياسة الإنجليزية ، ومعارضتها الخديو فى الاستمرار فيها ، وكان إسماعيل قد استغرق فى الديون ، وشعر بحاجته إلى إرضاء الإنجليز ومجاملتهم فاضطر تحت تأثير هذه الحاجة إلى الإذعان للتدخل الإنجليزى ، والعدول عن الحملة .

اعتراف انجلترا بسلطة مصر فى الصومال

على أن الحكومة الإنجليزية اعترفت بامتلاك مصر بلاد الصومال الشمالية الواقعة على خليج عدن . ذلك أنها عقدت وإياها معاهدة فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ [٥٥] ، اعترفت فيها لمصر

(٥٢) كتاب « مصر ومديرياتها المفقودة » للكولونيل شايى لونج بك ص ١٢٤ .

(٥٣) رسائل غردون إلى أخته ص ١٦٤ .

(٥٤) مصر ومديرياتها المفقودة للكولونيل لونج بك ص ١٥١ .

(٥٥) منشورة فى قاموس الإدارة والقضاء لفيليب وجلاد (النسخة الفرنسية) ج ٢ ص ٤٩٠ .

بامتلاكها سواحل بلاد الصومال لغاية رأس جردفون « جردفوى » ثم رأس « حَفّون » الواقع جنوبيه على المحيط الهندى .

وقد وقع على المعاهدة كل من شريف باشا وزير خارجية مصر بالنيابة عن الحكومة المصرية ، والمستر « فيفيان » قنصل انجلترا العام بالنيابة عن الحكومة الإنجليزية .

أقرت الحكومة الإنجليزية فى هذه المعاهدة سلطة الحكومة المصرية فى سواحل الصومال .

وقبلت مصر أن تبقى « بربرة » و « بولهار » ثغرين حرين ، وألا تعطى فيهما أى امتياز أو احتكار لأحد ما ، ولا تأذن بإجراء أى عمل يعطل حركة التجارة فيهما ، وألا تأخذ رسوماً عن الواردات أكثر من خمسة فى المائة ، ولا تزيد الرسوم الجمركية عن واحد فى المائة فى موانئ « تاجوره » و « زيلع » وسائر سواحل بلاد الصومال التابعة لها ، وأن تعامل مصر رعايا انجلترا وسفنها فى تلك الجهات معاملة دولة ممتازة ، وتعهد الخديو بألا يعطى أى قطعة من هذه البلاد إلى أية دولة أجنبية « بند ٢ » .

ورخصت مصر للحكومة الإنجليزية تعيين مأمورى قنصليات فى جميع الثغور والبلاد الكائنة على سواحل البلاد المذكورة ، على أنه لا يجوز لها تعيين مأمورى قنصليات من أهالى البلاد أو من أهالى البلاد المجاورة لها .

ففى هذه المعاهدة إقرار من انجلترا بسلطة مصر فى بلاد الصومال الشمالية ، ومن تهكم القدر أن الدولة التى أقرت بذلك سنة ١٨٧٧ وأخذت على مصر عهداً بألا تتنازل لدولة أجنبية عن جزء من تلك البلاد ، هى ذاتها التى اغتصبتها بعد أن أكرهت مصر على إخلاء السودان ، فوضعت يدها على زيلع وبربره وملحقاتهما وأخذتها من أسلاب مصر ، كما أخذت فرنسا تاجوره وملحقاتها ، وإيطاليا رأس جردفون « جردفوى » .

النزاع بين مصر والحبشة

للنزاع بين مصر والحبشة فى عهد إسماعيل صفحة طويلة ، خلاصتها أن العلائق بين البلدين لم تكن ودية طيلة مدة حكمه ، بل كان يشوبها الجفاء والخصام ، ثم الحرب والصدام .

ويرجع الخلاف إلى أن إسماعيل بعد أن ظفر بضم محافظتى سواكن ومصوع نهائياً إلى

مصر ، اعتزم أن يصل بين مصوع وكسله بخط حديدى ، يمر بسنهيت [٥٦] ، ويسهل سبيل المواصلات بين السودان والبحر الأحمر ، ويبسط رواق العمران فى شرق السودان ، وكان يعد البلاد الواقعة بين البلدين وخاصة مدينة « سنهيت » أرضًا مصرية منذ الفتح الأول « فى عهد محمد على » .

ولكن النجاشى « تيودورس » ملك الحبشة عارض الخديو فى ذلك ، وادعى أن سنهيت أرض حبشية ، فوقع الجفاء بينهما .

الحرب بين الإنجليز والحبشة
(سنة ١٨٦٧ - ١٨٦٨)

وظهر أثر هذا الجفاء فى موقف الخديو تجاه الحبشة حين قام الخلاف بينها وبين الإنجليز سنة ١٨٦٧ ، فقد اعتقل الملك « تيودورس » بعض التجار الإنجليز ومنهم المستر كامرون قنصل انجلترا ، فغضبت الحكومة الإنجليزية من هذا العمل العدائى ، وطالبت بإطلاق سراح المعتقلين ، فرفض النجاشى إجابة طلبها ، واشتد الخلاف بين الدولتين ، فانحاز الخديو إلى جانب الإنجليز وأرسل إلى النجاشى كتاباً [٥٧] ، من إنشاء عبد الله باشا فكرى ، يطلب إليه فيه أن يحسم الخلاف بإطلاق سراح المعتقلين وإرسالهم إلى مصوع ، وحذره عواقب إصراره على اعتقالهم ، وتهدده بنشوب الحرب بينه وبين الإنجليز ، وبأنه فى هذه الحالة لا يمانع الإنجليز فى اجتياز الأراضى المصرية لمهاجمته .

فأصر النجاشى على الرفض ، فجردت انجلترا على الحبشة سنة ١٨٦٧ حملة عسكرية بقيادة اللورد نابييه Napier . وانتهز الخديو هذه الحرب فأمد الإنجليز فيها بالمعونة والتأييد ، وأمر عبد القادر باشا الطوبجى محافظ مصوع وقتئذ بمعاونة الجيش الإنجليزى فى نزوله إلى البر ، ووضع الأسطول المصرى تحت تصرف الإنجليز لينقل مهماتهم ومؤونتهم من السويس إلى مصوع .

---

(٥٦) شمالى مصوع ، وتسمى أيضًا . كرن . Keren ووردت بهذا الاسم فى معظم مصورات الجغرافية ، وهى عاصمة إقليم « البوغوس » .

(٥٧) بتاريخ جمادى الآخر سنة ١٢٨٤ (سبتمبر ١٨٦٧) .

وانتهت هذه الحرب بفوز الإنجليز واحتلالهم مدينة « مجدلا » شمالى أديس أبابا ، وقتل النجاشى تيودورس سنة ١٨٦٨ ، ثم عاد الإنجليز إلى بلادهم .

وآل عرش الحبشة إلى الملك « يوحنا » الذى كان يعاونه الإنجليز ضد الملك تيودورس والملك يوحنا هو من أعظم ملوك الحبشة شأنًا ، وأشدهم بأساً ، وفى عهده وقعت الحرب بين مصر والحبشة كما سيجئ بيانه .

فلما خلف يوحنا الملك تيودورس على عرش الحبشة اغتنم الخديو فرصة انصرافه إلى محاربة قبائل « الجلا » لتحقيق غرضه الأول وتوسيع أملاك مصر من ناحية الحبشة .

منزنجر باشا Munzinger pacha

وقد استحثه على تحقيق هذا الغرض المسيو منزنجر قنصل فرنسا فى مصوع .

ومنزنجر هذا له شأن كبير فى تاريخ العلاقات بين مصر والحبشة فى عهد إسماعيل ، وهو رجل سويسرى الجنس ، جاء مصر ، ثم جاب أنحاء السودان والحبشة ، وأقام فى مصوع منذ سنة ١٨٦٠ ، وتزوج بسيدة حبشية من أهالى البوغوس ، ثم شغل منصب قنصل فرنسا فى ذلك الثغر ، وعاون الإنجليز فى حربهم مع الحبشة بما له من الدراية بأحوال البلاد ولغتها ومسالكها (٥٨) .

وفى سنة ١٨٧٠ عينه الخديو محافظًا لمصوع ، ثم أسند إليه فيما بعد منصبًا أعلى ، إذ جعله محافظًا لسواحل البحر الأحمر ومديراً لشرقى السودان ، وأنعم عليه برتبة البكوية ، ثم الباشوية ، فصار يعرف بمنزنجر باشا ، وعين أراكيل بك نوبار من أقرباء نوبار باشا محافظا لمصوع تحت إمرته (وهو غير أراكيل بك الذى تكلمنا عنه ص ٤٥) .

ومنزنجر باشا هو الذى زين للخديو إسماعيل فكرة فتح الحبشة ، وألقى فى روعة أنه لطول مكثه فى هذه الجهات قد سبر غورها ، وعرف أسرارها ، وأقنعه أن فتح الحبشة لا يكلف مصر عناءً كبيرًا ، لما كانت عليه من الضعف والفوضى والانقسام .

فأعجب إسماعيل بالفكرة ، وشرع فى تحقيقها ، وعهد إلى منزنجر ذاته فتح إقليم (البوغوس) وعاصمته سنهيت .

---

(٥٨) عن ترجمة منزنجر باشا . بقلم المسيو دوربك فى مجلة الجمعية الجغرافية ، العدد الأول من السنة الأولى « نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، فبراير سنة ١٨٧٦) ص ١٢١ .

فتح سهيت وضم إقليم البوغوس

فسار منزنجر باشا من مصوع فى قوة من ألف وخمسمائة مقاتل ، وقصد إلى سهيت وفتحها باسم مصر .

ووسع نطاق مصر من هذه الناحية ، فتم على يده فتح بلاد البوغوس ، وضمها إلى مصر ، واشترى مقاطعة (إيلت) الواقعة بين مصوع والحماسين من حاكمها الذى كان خلاف مع النجاشى ، وشملت سلطة منزنجر سواكن ومصوع وبلاد البوغوس ، والتاكا ، والقضارف ، والقلابات ، وأميديب ، وبركه ، أى السودان الشرقى فى أقصى حدوده .

وقد نقم الملك يوحنا من مصر هذا التوسع ، وازدادت العلاقات بين البلدين توتراً ، وكادت الحرب تنشب بينهما ، لولا اشتغال الخديو بفتح هرر والحملة على الصومال .

حرب الحبشة

(سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦)

هى الحرب العقيم التى خاضتها مصر فى عهد إسماعيل ، والعقبة الكأداء التى اصطدمت بها فتوح مصر فى حوض النيل وملحقاته ، ومن أى ناحية نظرنا إليها نجد أن مصر لم تكن فى حاجة إليها ، ولا مصلحة لها فى خوضها ، وإنما ساق إليها النزق ، وسوء التدبير ، فانتهت بالهزيمة والخسران .

رأيتَ مما تقدم بيانه ، أن مصر قد ضمت الجهات الواقعة بين الحبشة والبحر الأحمر وفتحت (سهيت) وبلاد (البوغوس) الواقعة شماليها ، و (هرر) المجاورة لها من الجنوب الشرقى ، فأحاطتها من الشمال والشرق والجنوب ، فضلا عن مجاورتها لها من الغرب منذ عهد محمد على .

فهذه المواقع كان يكفى مصر أن تثبت سلطانها وتدعم نفوذها فيها ، وبذلك تبقى الحبشة مسالمة لها ، إذ تحتاج إليها للوصول إلى البحر الأحمر ، ولكن إسماعيل حدثته نفسه بفتح الحبشة ، واكتساحها من طريقه ، دون أن يقدر صعوبة هذه المهمة وعواقبها الوخيمة ، فالحبشة كما يعرفها الذين خبروها وسبروا غورها ، بلاد جبلية لا يسهل على دولة أجنبية أن

تحتلها أو تجتاز جبالها الوعرة ومفاوزها الجرداء ، فضلا على أن حربها لا تفيد مصر بحال من الأحوال ، بل تخلق لها من المشاكل وتكبدها من الخسائر والضحايا ما هى فى غنى عنه .

لم يجاهر إسماعيل بنيته فى فتح الحبشة ، ولكن سياسته إزاءها كانت تنم عن هذه الغاية ، فقد تحرش بها ، وعمل على إثارة الحرب معها ، على غير جدوى ، ووقع القتال على غير استعداد من مصر ، فحلت الهزيمة بالجيش المصرى ، وأصابته الخسائر الفادحة ، وكبدت الحرب الخزانة المصرية الأموال الطائلة ، فى وقت ارتبكت فيه أحوالها ، واشتد بها الضيق ، فكانت حرب الحبشة عقيما من كل ناحية .

اعتزم إسماعيل تجريد حملتين فى وقت واحد على بلاد الحبشة ، الأولى تهاجمها شمالا من طريق مصوع ، والأخرى جنوبا من طريق ميناء « تاجوره » الواقعة على خليج عدن ، وعهد بقيادة الأولى إلى الكولونل أرندروب بك Arendrupp[٥٩]، والثانية إلى منزنجر باشا .

حملة أرندروب بك

(سنة ١٨٧٥)

زحفت الحملة الأولى من مصوع ، وكانت مؤلفة من ٣٢٠٠ مقاتل[٦٠] مزودين ببطاريتين من المدافع ، واقتحمت حدود الحبشة ، واستولت على « الحماسين » الواقعة جنوبى سنهيت ، دون أن تلقى مقاومة تذكر ، وتقدمت قاصدة « جونديت » ولما علم الملك يوحنا بزحفها حشد جموعه ، وأعد جيشاً من ثلاثين ألف مقاتل ، سار به قاصداً مصادمة الجيش المصرى ، وأرسل ارندروب بك رسالة إلى الملك يوحنا يطلب إليه فيها جعل نهر الجاش حداً فاصلا بين الحبشة ومصر ، فلم يعبأ بالرسالة ، وسجن الرسولين الذين أوفدهما إليه أرندروب بك ، فتقدم الجيش المصرى ليسبق الأحباش إلى الهجوم .

---

(٥٩) هو من ضباط أركان الحرب . أصله دانمركى . ثم جاء مصر وتعرف إلى الجنرال استون باشا ، رئيس أركان الحرب ، فرغب إليه الخدمة فى الجيش المصرى فقبل . ثم تولى قيادة الحملة كما ترى فى سياق الكلام .

(٦٠) إحصاء المسيو سوتزارا Suzzara قنصل النمسا العام فى مصر على عهد إسماعيل فى تقريره المسهب عن حرب الحبشة ، وقد نشر هذا التقرير فى مجلة مصر Revue d'Egypte للمسيو جليياردو بض عدد مارس وأبريل ومايو سنة ١٨٩٦ ص ٦٢٦ و ٦٧٣ و ٧٣٧ .

هزيمة جونديت

(نوفمبر ١٨٧٥)

فاشتبك الجيشان فى جونديت يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، وكان جيش الحبشة أكثر عدداً وأشد حماسة من الجيش المصرى ، فحمى وطيس القتال ، وانتهت المعركة بهزيمة الجيش المصرى ، وقتل معظم رجاله ، ولم ينج منهم إلا النزر اليسير ، وكان من بين القتلى أرندروب بك وإراكيل بك نوبار محافظ مصوع ، وارتدت فلول الحملة منهزمة إلى مصوع .

حملة منزنجر باشا

أما الحملة الأخرى فقد تولاها منزنجر باشا ، فأبحر من مصوع على رأس ثلاثة بلوكات من الجنود المصرية والسودانية ، ونزل فى « تاجوره » ليستكمل منها معدات الحملة من الإبل ، وترك معظم الجند فى تاجوره حتى يتم إعداد الحملة ، وأقلع هو فى قوة صغيرة من الجند يصحبة الرأس « بورو » الذى كان على خلاف مع الملك يوحنا ، ونزل فى رأس « جيلا جيفو » الذى يبعد عن تاجوره غرباً بخمسة عشرة ميلا ، وقصد إلى بحيرة « أوسا » Aoussa الواقعة فى الجنوب الشرقى من الحبشة ، ووصل إليها يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، بعد مسيرة سبعة أيام .

مقتل منزنجر باشا

(نوفمبر سنة ١٨٧٥)

قابل منزنجر باشا فى طريقه إلى بحيرة « أوسا » ابن الشيخ محمد الحدة أمير ذلك الإقليم ، فتظاهر له بالولاء للحكومة المصرية ، ولكنه كان يضمر له السوء ، فاطمأن إليه منزنجر ، واتخذه مرشداً ونصيراً ، وسارت الحملة إلى أن عسكرت بالقرب من شاطىء البحيرة ، ففيما كان الجنود نياما (ليلة ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥) هجم عليهم رجال القبائل غيلة بقيادة الشيخ محمد الحدة ، وأعملوا فيهم السيف ، وفتكوا بهم فتكا ذريعا ، وشبت الواقعة فى جنح الظلام

دون أن يأخذ المصريون عدتهم لها ، فأوقع بهم الأحباش وقتلوا منزنجر وزوجته ومعظم رجاله ، وارتدت فلول الحملة فى أسوأ حال إلى « زيلع » بقيادة البكباشى محمد أفندى عزت ، وكان عدد الباقين منهم ١٥٠ مقاتل .

الحملة الكبيرة بقيادة راتب باشا

(سنة ١٨٧٦)

وصلت أنباء هذه الهزائم إلى مصر ، فقوبلت بالجزع والدهشة ، وتزلزلت لها هيبة الجيش المصرى ، وغضب إسماعيل لهذه الهزائم ، وخشى عواقبها المعنوية والسياسية ، فأراد أن يزيل تأثيرها بتجريد جيش جرار على الحبشة يغسل الإهانة التى لحقت بمصر ، وفى الحق أن الموقف كان عصيباً ، لأن هزيمة مصر أمام الحبشة تسقط هيبتها فى وقت كانت تكتنفها المطامع الأوروبية ، ولكن الخديو لم يأخذ فى أمره منذ البداية بالأناة وحسن الاستعداد وتقدير الموقف من كل وجوهه ، فلما جاءته أخبار الهزائم الأولى ، تعجل بإعداد حملة مبتسرة ، مؤلفة من نحو خمسة عشر ألف مقاتل ، دلت مقدماتها على أنها سائرة حتماً إلى الهزيمة والخسران ، وأهم عيب فى تأليفها افتقارها إلى كفاءة القيادة وحسن النظام .

فقد عقد الخديو لواءها للسردار راتب ، وهو ضابط خلو من الكفاءة وحسن التدبير.

وجعل على رآسة أركان الحرب الجنرال لورنجً باشا Loring من القواد الأمريكيين فى الجيش المصرى ، ولم يكن التفاهم سائداً بين القائد العام وهيئة أركان الحرب ، ففقد الجيش أهم عوامل النجاح ، وهى وحدة القيادة وكفايتها .

وصحب الحملة الأمير حسن باشا أحد أنجال الخديو ، وكان قد عاد من ألمانيا بعد أن درس بها قليلا من الفنون الحربية ، ولم يكن له من الكفاءة والخبرة ما يجعل منه قائد يعتمد عليه فى مثل هذه الحرب .

وقد تطوع فى القسم الطبى للحملة بعض كبار أطباء مصر فى ذلك العصر ، كالدكتور محمد على باشا البقلى ، الذى لقى مصرعه فيها[٦١] ، والدكتور محمد بك بدر .

---

(٦١) راجع ترجمته فى كتابنا « عصر محمد على » ص ٥١٢ (من الطبعة الأولى)

أبحرت الحملة من السويس تقلها بواخر الشركة الخديوية والسفن الحربية المصرية ، ونزلت فى ميناك (مصوع) . وأخذ الجيش يزحف على الحبشة .

هزيمة « قورع »

(٧ مارس سنة ١٨٧٦)

أوغل المصريون فى مفاوز الحبشة ، دون أن يستطلعوا أحوالها ويتعرفوا قوات الأعداء ومواقعهم ، فوصل الجيش فى زحفه إلى بلدة « قورع »(٦٢) التى تبعد عن مصوع نحو ٥٥ ميلا ، فعسكر فيها ، وأخذ يقيم فيها الاستحكامات . فبنى حصناً بها ثم حصنين فى أول السهل الواصل إليها من (قياخور) .

وقد أعد الملك يوحنا جيشاً كبيراً بلغ نحو أربعين ألف مقاتل ، وسار لمهاجمة المصريين فى « قياخور » وكانت تحتلها قوة من الجيش المصرى ، وتحميها استحكامات منيعة لم يقو الأحباش على مهاجمتها .

فقصدوا مهاجمة مركز الجيش المصرى فى (قورع) ، ونشبت بها يوم ٧ مارس سنة ١٨٧٦ معركة كبيرة ، انتهت بهزيمة الجيش المصرى ، وتشتت شمله ، وقتل معظم رجاله ، ولم يتمكن القائد العام والأمير حسن باشا وأركان حربهما من النجاة إلا بعد أن عاينوا الموت ، وكاد الأحباش يفتكون بهم ، وأسروا من المصريين نحو ٢٥٠ أسير .

وقد خسر الأحباش فى هذه الواقعة خسائر فادحة لا تقل فى عددها عن خسائر المصريين ، ولكنهم فازوا بالنصر المبين .

عقد الصلح

وكان ضمن الأسرى المصريين محمد بك رفعت رئيس القلم التركى بديوان الجهادية ، وقد رافق الحملة صحبة السردار ، فأخذ يسعى فى عقد الصلح مع الملك يوحنا ، على أن تنسحب

---

(٦٢) جاء اسمها هكذا فى الوقائع المصرية عدد ٦٤٩ وإن كان معظم المؤلفين يكتبها « قرع » وهذا الوضع « قورع » يرافق النطق الفرنسى Goura

الجنود المصرية من أرض الحبشة ، ويرد الملك الأسرى إلى مصر ، ويفتح طريق النجاة بين مصوع والحبشة .

فأسفرت مساعى رفعت بك عن عقد الصلح وبقيت سنهيت فى أملاك مصر[٦٣] ، وعاد هو وباقى الأسرى إلى مصوع ، وأبحرت فلول الحملة إلى السويس ، وبلغت خسائر مصر من الرجال فى الحملات التى جردتها على الحبشة ٨,٥٠٠ قتيل .

نتائج حرب الحبشة

تكبدت مصر فى هذه الحرب العقيم خسائر فادحة فى الرجال والمال ، وتصدعت هيبتها لما أصابها من الهزائم المتوالية ، وكلفت الخزانة المصرية نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات[٦٤] ، فى وقت كانت تنوء فيه بالديون الجسيمة ، وتعانى أشد ضروب الارتباك المالى .

وليس يخفى أن هذه الحرب وقعت فى الوقت الذى تحفزت فيه الدول الاستعمارية ، وخاصة انجلترا ، للتدخل فى شئون مصر المالية والسياسية ، فانهزام الجيش المصرى ، فى تلك الحرب ، قد ضاعف آمال انجلترا فى التطلع إلى احتلال مصر ، ذلك أنها كانت تحسب حساباً كبيراً لقوة الجيش المصرى ، منذ تبينت مكانته وبسالته فى المعارك التى خاض غمارها تحت لواء ابراهيم باشا ، ولكن هزيمته فى الحرب الحبشية كشفت عن ضعفه ، وعن الفوضى الضاربة أطنابها فى نظامه ، ففقد المهابة التى كانت له من قبل .

فالحرب الحبشية كانت تجربة مؤلمة ، أظهرت ضعف قوة مصر الحربية ، ولم يكن من سبيل إلى تجديد هذه القوة فى وقت أشرفت فيه الحكومة على العجز والعسر المالى ، فى أواخر عهد إسماعيل ، وليس ثمة شك فى أن هذه النتيجة كان من شأنها أن تغرى انجلترا بتحقيق أطماعها فى مصر ، فلا جرم أن تضاعف مساعيها فى وضع يدها على البلاد ، وما زالت تدأب على تلك الخطة مدى خمس سنوات حتى وقعت الحوادث العرابية التى انتهت بالاحتلال الإنجليزى .

---

(٦٣) أخذتها إيطاليا بعد إخلاء مصر للسودان وجعلتها جزءاً من مستعمرة أريتيريا .

(٦٤) إحصاء المسيو سوتزارا قنصل النمسا فى مصر على عهد إسماعيل فى تقريره المسهب المؤرخ يوليه سنة ١٨٧٧ السابق ذكره .

حكمدارو السودان فى عهد إسماعيل

انتهينا من بيان الحوادث الهامة فى السودان على عهد الخديو إسماعيل ، والآن نذكر نبذة عامة عن حكمدارى السودان على النحو الذى اتبعناه فى كلامنا عن عهد محمد على باشا (عصر محمد على ص ١٧٧ من الطبعة الأولى) .

موسى باشا حمدى

كان على السودان حين تولى إسماعيل الحكم (موسى باشا حمدى) ذو الأعمال الجمة والمآثر الحسنة ، وقد سر الخديو من أعماله ، وأنعم عليه برتبة الفريق ، فذهب إلى مصر فى يوليه سنة ١٨٦٣ ليؤدى واجب الشكر ، وأطلع الخديو على أحوال البلاد التى يحكمها ، فلقى من إسماعيل باشا عطفاً كبيراً ، ثم عاد إلى مقر عمله بالخرطوم .

وعنى بزيادة عدد الجند فوصل عددهم فى عهده إلى ثلاثين ألفا من الجنود النظاميين والباشبوزق ، وسار فى حكمه بهمة ودراية ، وبقى حكمداراً للسوادن إلى أن توفى سنة ١٨٦٥ بالخرطوم ، ودفن بها .

جعفر صادق باشا

(١٨٦٥ – ١٨٦٦)

ثم خلفه جعفر صادق باشا . وفى عهده فتح الجنود المصريون فاشوده سنة ١٨٦٥ كما تقدم البيان .

إخماد ثورة كسلا

وفى عهده أيضاً أخمدت ثورة شبت بين الجنود السودانيين المرابطين فى (كسلا) وعدتهم نحو أربعة آلاف جندى .

ظهرت هذه الثورة فى أواخر عهد موسى باشا حمدى ، وترجع أسبابها إلى سوء إدارة الحكام ، وتأخير دفع رواتب الجند ثمانية عشر شهراً ، فثاروا وعصوا الأوامر وتمردوا على

رؤسائهم ، وقتلوا بعض الضباط ، ونهبوا أموال الأهلين ، وخربوا بعض القرى ، فأخذتهم الحكومة بالحيلة تارة ، وبالعنف والقسوة تارة أخرى ، ولما بلغ الخديو إسماعيل نبأ هذه الثورة اهتم بأمرها اهتماماً كبيراً ، وبعث بجعفر صادق باشا حكمداراً على السودان ، وأرسل أوامره إلى السلطات المحلية بإمداد قوات الحكومة فى كسلا لإخماد الفتنة .

وقد كان الفضل فى إخمادها لضابط سودانى كبير يسمى (آدم بك) . وهو من خيرة ضباط الجيش المصرى ، تلقى التعليم الحربى فى مصر على عهد محمد على باشا ، ورافق إبراهيم باشا فى حروبه بسوريا ، واشتهر بالبسالة والإقدام ، إلى المهارة والكفاءة ، وقد أرسل إليه الخديو خطاباً يدل على تقديره لشجاعته استحثه فيه على العمل لإخماد الفتنة وختمه بقوله :

« وإنى أعلم ببسالتك وحسن سياستك ، منذ كنت مع المرحوم والدنا فى سوريا ، فحقق آمالنا بك ، وعند انتهار الثورة احضر إلى مصر والسلام » سبتمبر سنة ١٨٦٥ [٦٥] .

أدى آدم بك مهمته خير أداء ، أخذ الثائرين بالحسنى ، ووعدهم بأن يحصل لهم على عفو من الخديو ، فأخلدوا إلى الطاعة ، ثم جاء حسن باشا القائد العام للجند ، وعقد مجلساً عسكرياً للنظر فى أمر العصاة ، فقرر تجريدهم من السلاح ، واعتقالهم جميعاً حتى يرد أمر الخديو فى شأنهم ، فثارت ثائرتهم من جديد ، بسبب غطرسة بعض ضباط الباشبوزق فأطلق الجند الرصاص على الثائرين فقتل كثير منهم ، واعتقل الباقون .

جعفر مظهر باشا

(١٨٦٦ – ١٨٧١)

ثم حضر جعفر مظهر باشا وكيل الحكمدار ، فحقق أسباب الثورة ، وأوقع العقاب بمن اشتركوا فيها . وانتهى على يده إخمادها .

وأنعم الخديو على آدم بك برتبة اللواء مكافأة له على ما بذله من الهمة فى إخماد الثورة .

وفى غضون ذلك مرض جعفر صادق باشا وعاد إلى مصر ، فعين جعفر مظهر باشا حكمداراً للسودان ، فسار سيرة عدل وإصلاح ، وكان من خيرة حكام السودان . ونظم

---

(٦٥) عن كتاب السودان لنعوم بك شقير ج ٢ ص٤٢ .

الإدارة ، وأصلح دار صناعة الخرطوم ، وأنشأ بعض المدارس وفتح عدة محاكم للفصل فى منازعات الناس .

وفى عهده عين آدم بك الضابط السودانى المتقدم ذكره قائداً عاما للجيش المصرى بالسودان ، وأنعم عليه بالباشوية ، فصار يعرف بآدم باشا ، وقد أظهر ولاء صادقا لمصر والحكم المصرى .

وفى عهده أيضاً نشطت الحكومة المصرية فى مطاردة تجار الرقيق ، وزحف صمويل بيكر باشا بقوة من الجيش المصرى على إقليم خط الاستواء وضمه إلى أملاك مصر كما أسلفنا ، وكان مظهر باشا يعاونه فى مهمته .

واشتهر مظهر باشا بالعدل والنزاهة ، ولا غرو فهو أعظم ولاة السودان شأنا ، وأحسنهم سيرة ، وكان يقرب إليه علماء السودان ويكرمهم ، ذكر عنه إبراهيم باشا فوزى أنه فارق الخرطوم وعليه دين يربى على ألف جنيه ، وهذا من أقوى الدلائل على نزاهته ، وقال أن راتبه لم يكن يفى بحاجاته ، لكثرة ما كان ينفقه على الفقراء والمعوزين ، وما كان يقيمه من المآدب للعلماء وذوى الفضل ، قال ولا يزال السوادنيون يذكرون له هذه الميزات ، وهم مجمعون على أن أيام ولايته كانت غرة فى جبين السودان[٦٦] .

وقد عين فى سبتمبر سنة ١٨٧١ عضواً بمجلس الأحكام بمصر[٦٧] فانفصل عن منصبه فى السودان ، وعين فى مكانه ممتاز باشا .

ممتاز باشا

(١٨٧١ – ١٨٧٣)

هو من ضباط الفرسان فى الجيش المصرى ، وكان سيىء السيرة ، مرتكباً للرشوة فتشكاه الأهلون إلى الخديو ، فامر بالتحقيق معه ، وسجن بالخرطوم رهن التحقيق ، ومات بالسجن ، والأثر الوحيد الذى تركه أنه علّم الأهلين زراعة القطن .

---

(٦٦) السودان بين يدى غردون وكتشنر . ج ١ ص ٦٧ .

(٦٧) الوقائع المصرية العدد ٤٢٦ الصادر فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٧١ .

إسماعيل باشا أيوب

(١٨٧٣ – ١٨٧٧)

فى عهده اتسعت فتوح مصر اتساعاً عظيماً ، ففتحت سلطنة دارفور على يد الزبير باشا رحمت ، وضمت زيلع وبربره ، وفتحت سلطنة هرركما بيناه فى موضعه ، وله فضل كبير فى بسط رواق العمران فى السودان ، فقد أمّن السبل ، ووطد دعائم الأمن فى نواحيه ، ونشط الزراعة والتجارة والصناعة ، وعلى يده أنشئت محطات عسكرية بين الخرطوم ودارفور إلى حدود واداى ، وبين بربر على النيل وسواكن على البحر الأحمر ، لتأمين سبل المواصلات ، مما كان له أثره فى تنشيط التجارة ، وعنى بتوسيع زراعة القطن وأنشأ معملين لحليج الأقطان ونسجها ، وفى عهده أنشئت عدة مكاتب للبريد فى أهم العواصم ، وقد بقى فى منصبه إلى أن تدخلت السياسة الإنجليزية ، وأوعزت إلى الخديو إسماعيل بتعيين غردون باشا مكانه ، فنقل إسماعيل باشا أيوب عضواً بالمجلس الخصوصى العالى (مجلس الوزراء) ، وهذا التعيين وإن كان دليل الرضا عنه ، لكنه أدى إلى اقصائه عن السودان ، ثم ترقى فى المناصب ، إلى أن صار وزيرا للداخلية عقب الاحتلال الإنجليزى ، وإليه ينسب امتناع الحكومة عن إرسال النجدة التى طلبها عبد القادر باشا حلمى حكمدار السودان لإخماد الفتنة المهدية ، ثم استدعاؤه من السودان سنة ١٨٨٣ ، مما كان سبباً فى استفحال الثورة ، وخدمة المطامع الإنجليزية ، كما سنبينه فى موضعه ، وتوفى سنة ١٨٨٤ .

غردون باشا

(١٨٧٧ – ١٨٧٩)

لم ينقطع الكولونل غردون عن السودان طويلا ، فبعد أن استعفى سنة ١٨٧٦ من منصبه الأول وعاد إلى انجلترا ، سعت الحكومة الإنجليزية لدى الخديو كى يعينه حكمداراً عاما للسودان ، وهكذا تدرجت السياسة الإنجليزية فى تدخلها فى شؤون السودان ، فبعد أن كان غردون حاكما لخط الاستواء ، صار الحاكم العام للأقاليم السودانية جميعها ، وهذه أول مرة

ولى فيها هذا المنصب الخطير حاكم أجنبى ، وهو ليس حاكما أجنبيا فحسب ، بل ينتمى إلى دولة لها فى مصر مآرب استعمارية لا تخفى ، إذكانت تتطلع إلى مصر ، وتعمل على إنشاء إمبراطورية إفريقية انجليزية تبيها على أنقاض الإمبراطورية المصرية .

فتعيين غردون حاكماً عاماً على السودان هو فوز كبير للسياسة الإنجليزية . ودليل على مبلغ ما أدركته من النفوذ السياسى فى بلاد إسماعيل ، ولا يخفى أن هذا التعيين وقع سنة ١٨٧٧ ، أى بعد أن خطت انجلترا الخطوات الأولى للتدخل فى شئون مصر ، إذ بدأ تدخلها الفعلى بشرائها أسهم مصر فى قناة السويس سنة ١٨٧٥ ، وأعقب ذلك تدخلها والدول فى شؤون مصر المالية بانشاء صندوق الدين ، ثم فرض الرقابة الثنائية على مالية الحكومة سنة ١٨٧٦ . فتعيين غردون هو من آثار ارتباك مصر المالى ، ومن نتائج سياسة إسماعيل المالية ، فقد كان يظن أنه يستطيع بمثل هذا التعيين كسب عطف انجلترا ، لتعاونه فى محنته ، لكنه لم ينل أى مقابل لهذه المنحة العظيمة ، وعلى العكس ، كانت انجلترا أشد عليه وطأة من الدول الأخرى ، وكذلك شأن السياسة الإنجليزية فى مصر ، تأخذ كل ما تستطيع أخذه ، دون أن تعطى شيئاً .

ويستفاد من رسائل غردون أن إسماعيل كان متردداً فى إسناد هذا المنصب الخطير إليه ، ولكن غردون رفض أن يذهب إلى السودان ما لم يعين حاكما عليه ، وكان يظن أن الخديو لا يقبل هذا الشرط[٦٨] ولكن ضغط السياسة الإنجليزية ، والتماس الخديو النجدة منها فى محنته المالية ، كل ذلك مال به إلى التساهل والتسليم ، وأصدر فى ١٧ فبراير سنة ١٨٧٧ فرماناً لغردون باشا بالولاية على جميع أصقاع السودان بما فيها دارفور ، .وبحر الغزال ، وخط الاستواء ، وهرر ، وسواحل البحر الأحمر مع مصوع ، وسواكن ، وزيلع ، وبربره[٦٩] ، وخوّله فى حكمه سلطة مطلقة ، عسكرية ومدنية ، وكان سلطان مصر فى السودان قد بلغ وقتئذ أقصى مداه ، إذ امتد من سواحل البحر الأحمر وخليج عدن والإقيانوس الهندى شرقاً ، إلى حدود واداى غرباً ، والبحيرات الاستوائية جنوباً .

لم يكن غردون على كفاءة للاضطلاع بأعباء المنصب الكبير الذى تولاه ، بل كان سريع التأثر ، سهل الانقياد لمن يثق به ، كثير التضارب فى آرائه ، ولم يقترن اسمه إلا بمحاربة الاتجار بالرقيق ، واحتكار العاج ، لكنه أسرف فى عمله ، ولم يأخذ الأمور بالحكمة وبعد النظر .

---

(٦٨) رسائل غردون إلى أخته ص ١٩٥ .

(٦٩) كما وردت فى « الوقائع المصرية » بالعددين ٦٩٨ و ٦٩٩ الصادرين فى ٢٥ فبراير و ٤ مارس سنة ١٨٧٧ .

قال شايى لونج بك : « إن أمر غردون باحتكار الحكومة محصول العاج قد أثار تجار السودان على الحكومة ، وهؤلاء التجار كانوا سادات السودان الحقيقيين ، فكان هذا العمل المنطوى على الظلم النواة الأولى للثورة المهدية ، وكانت إدارته فوضى ، وبالجملة فقد تولى حكم السودان ، والأمن واليسار بسودانه ، ولما غادره سنة ١٨٧٩ ، كان ينوء تحت أعباء الديون ، والثورة تتمخض فى أحشائه[٧٠] .

وقد جعل غردون اعتماده على الموظفين الأجانب فى تلك الأصقاع النائية ، فعين مسداليا بك Messedaglia مديراً للفاشر (دارفور) وكان إيطالياً ، وجيسى باشا Gessi pacha الإيطالى مديراً لبحر الغزال . وفرديك روسى Rosset قنصل ألمانيا فى الخرطوم مديراً لدارفور ، وشارل ريجوليه Rigolei الفرنسوى مديراً لداره ، واميليانى Emiliani مديراً لكبكبيه ، والدكتور زوربخين مفتشاً للصحة ، والضابط (سلاتين) أحد ضباط الجيش النمسوى مفتشاً للمالية ، وهو الذى صار فيما بعد سلاطين باشا صاحب المواقف المشهورة أثناء الثورة المهدية ، وجيكلر باشا النمسوى ، مديراً عاماً لمنع تجارة الرقيق ، وهلم جراً .

وكان الكولونل (بروت) الأمريكانى يتولى الحكم فى مديرية خط الاستواء ؛ فعين بدله إبراهيم فوزى (باشا) ، ثم ما لبث أن أقاله وعين فى مكانه الدكتور شنتزر الألمانى الذى عرف بعد ذلك بأمين باشا .

وأهمل غردون شأن المقاطعات الاستوائية ، ولم يعن بتوطيد سلطة الحكومة المصرية فيها ، فكأنه كان يبغى إقصاءها عن الحكم المصرى ، تمهيداً لإدخالها فى منطقة النفوذ الانجليزى .

وأقفل المدارس التى فتحها الولاة من قبل ، وتذرع إلى ذلك بقلة المال ، ومنع إرسال الطلبة الناجحين بمدرسة الخرطوم إلى مصر ، وعزل الموظفين منهم .

وشغلت الفتن والثورات معظم مدته ، وكان عهده نذيراً بشبوب الثورة المهدية ، وساعد على شبوب الفتن تشدده فى إبطال الرقيق ، ونقص قوة الجيش المصرى فى السودان ، بما أخذته الحكومة من صفوفه من الأمداد التى أرسلتها إلى تركيا فى حرب البلقان (سنة ١٨٧٧) .

ثار سليمان بن الزبير باشا سنة ١٨٧٧ انتقاما لأبيه ، إذ كان ممنوعا من الرجوع إلى السودان ،

---

(٧٠) مصر ومديرياتها المفقودة » للكولونل شايى لونج بك ص ١٨٦ .

وطمع فى الاستقلال ببحر الغزال ، فأنفذ إليه غردون باشا حملة طاردته وأوقعت به .

ثم عاد يقاوم الحكومة ، فأنفذ إليه غردون حملة بقيادة جيسى باشا ، انتهت بهزيمة سليمان ومقتله (يوليه سنة ١٨٧٩) ، وقد حزن عليه أبوه الزبير باشا حزناً شديداً ، لكنه بقى موالياً للحكومة المصرية .

وثار قائد من قواد جيش الزبير يدعى (الصباحى) ، فطاردته الجنود المصرية حتى أدركته ، وحوكم أمام مجلس عسكرى وحكم عليه بالإعدام (مارس سنة ١٨٧٩) .

وثار فى دارفور أمير من سلالة سلاطينها يدعى هارون ولقب نفسه بالرشيد ، وبايعه الأهلون سلطاناً عليهم فى أوائل سنة ١٨٧٧ ، فحاربته الجنود المصرية حرباً طويلة ، انتهت بقتله فى أوائل سنة ١٨٨٠ [٧١] ، وسعى غردون فى الاتفاق مع يوحنا ملك الحبشة على تحديد التخوم بينه وبين مصر ، فلم يوفق إلى ذلك ، وفى أواخر سة ١٨٧٩ جاء إلى مصر ، وكان ذلك فى أوائل حكم الخديو توفيق باشا ، وقدم استعفاءه من منصبه ، فعينت الحكومة محمد رءوف باشا حكمداراً للسودان خلفاً له ، وهو آخر الولاة الذين حكموا السودان قبل الثورة المهدية ، وفى عهده ظهرت بوادر تلك الثورة المشئومة التى قضت على نفوذ مصر فى السودان ؛ ومهدت للحكم الإنجليزى فى أرجائه .

التقسيم الإدارى

دخل على التقسيم الإدارى فى عهد إسماعيل تعديلات أفضى إليها فى الغالب التوسع فى الفتح وضم بلاد جديدة إلى السودان .

فصار مؤلفاً من المديريات والمحافظات الآتية [٧٢] :

المديريات والمحافظات	العاصمة
مديرية الخرطوم	الخرطوم
مديرية سنار وفازوغلى	سنار
مديرية بربر	بربر

---

(٧١) دارفور فى عهد غردون باشا لمسداليا بك ، مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ٣ عدد ١ ص ٦٧ (مايو سنة ١٨٨٨)

(٧٢) انظر إحصاء شيلو بك Chwlu Bey كبير مفتشى الرى بالسودان فى كتابه (النيل والسودان ومصر) ص ٩٧ ، ونعوم بك شقير فى كتابه السودان ج ١ ص ٦٧

المديريات والمحفظات		العاصمة
مديرية دنقلة		دنقلة
مديرية كسلا أو التاكه		كسلا
مديرية فاشوده		فاشوده
مديرية كردفان		الأبيض
مديرية الفاشر		الفاشر
مديرية داره	مديريات دارفور[٧٣]	داره
مديرية كبكبيه		كبكبيه
مديرية بحر الغزال		ديم الزبير
مديرية خط الاستواء		الإسماعيلية (غندكرو) ثم اللادو ثم ودلاى

وكانت مقسمة إلى مأموريات لاتوكا ، وبور ، ومكركه ، ومنبوتو وودلاى ، وفويره

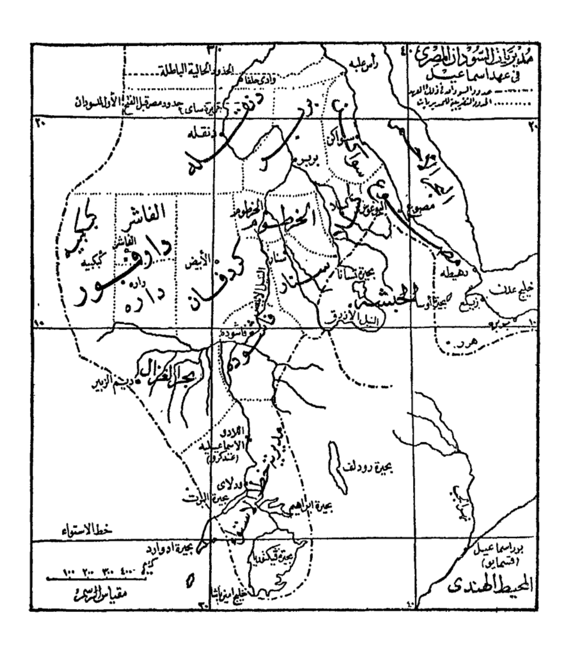
محافظة سواكن	سواكن
محافظة مصوع	مصوع
حكمدارية هرر	هرر
محافظة زيلع	زيلع
محافظة بربره	بربره

الجيش المصرى فى السودان

بلغ الجيش المصرى فى السودان على عهد إسماعيل نحو ٣٠ ألف مقاتل موزعين على المراكز الآتية :

دنقله ، بربر ، الخرطوم ، سنار ، القلابات ، الجيرة . (بالقرب من حدود الحبشة) القضارف ، كسلا ، أميديب ، سنهيت ، سواكن ، كردفان ، دارفور ، بحر الغزال ، خط الاستواء ، مصوع ، هرر ، زيلع ، بربره .

(٧٣) كما ذكرها مسداليا بك مدير دارفور فى عهد غردون باشا فى بحثه المنشور بمجلة الجمعية الجغرافية الخديوية مجموعة ٣ عدد ١ (مايو سنة ١٨٨٨) ص ٤٦ مع تسمية مديرية كبكبية باسم كلكل ويوافق التقسيم الوارد فى خريطة مسداليا بك ذاته عن السودان الملحقة بالكتاب الأزرق الإنجليزى Blue Book سنة ١٨٨٣ ح ١١ ص ٣٨


مديريات السودان المصري
في عهد اسماعيل
حدود السودان في ذلك العهد
الحدود التقريبية للمديريات
الحدود الحالية الباطلة
وادي حلفا
راس علبه
جزيرة ساي حدود مصر قبل الفتح الأول للسودان
دنقله
بربر
سواكن
مصوع
الخرطوم
الفاشر
كبكبية
داره
الأبيض
كردفان
دارفور
سنار
بحيرة تسانا
الحبشة
النيل الأزرق
زيلع
خليج عدن
هرر
فاشوده
بحر الغزال
ديم الزبير
اللادو
الاسماعيلية
(غندكرو)
ودلاي
بحيرة البرت
بحيرة ابراهيم
بحيرة رودلف
خط الاستواء
بحيرة ادوارد
بحيرة فكتوريا
خليج اميرباشا
بر اسماعيل
(قسمايو)
المحيط الهندي
مقياس الرسم

أعمال العمران

بيّنا فى « عصر محمد على » (ص ١٨٠ وما بعدها طبعة أولى) عمران السودان فى عهد محمد على ، ثم ذكرنا فى الفصل الثانى من كتابنا الحالى ما تم على يد سعيد باشا من الإصلاح ، والآن نذكر أعمال العمران التى تمت فى عهد إسماعيل ، عدا ما ذكرناه فيما تقدم من البيان .

استتباب الأمن

كان من أول ما عنى به الحكم المصرى فى السودان بسط رواق الأمن ؛ وهو قوام العمران وأساس تقدم الزراعة والتجارة ، ويكفى دليلا على فضل الحكم المصرى من هذه الناحية كلمة السير صمويل بيكر فى هذا الصدد ، قال : « إن السائح الأوروبى يمكنه أن يجوب تلك الأصقاع البعيدة ، دون أن يخشى على نفسه أكثر مما يخشاه من يتنزه بعد غروب الشمس فى حديقة هايدبارك بلندن » .

الزراعــــة

وانتشرت الزراعات الحديثة فى أنحاء السودان وخاصة فى عهد إسماعيل باشا أيوب ، فقد عمل على توسيع مناطق زرع القطن ، واستقدم لهذا الغرض كثيراً من آلات الرى لتوفير المياه اللازمة للقطن ، وأنفق فى هذا السبيل أموالا طائلة لشراء الآلات ونقلها عن طريق سواكن ، وأنشأ معملين لحليج القطن فى كسلا والخرطوم[٧٤] ، وكان فى نيته إنشاء معمل آخر فى (بربر) لكنه فصل عن حكمدارية السودان سنة ١٨٧٦ ، وعين بدله غردون باشا .

وانتشرت زراعة القطن فى السودان الشرقى ، وأنشئت أسواق لبيع محصوله فى كسلا والقضارف (أبوسن) والقلابات ، وصار لكسلا أهمية تجارية كبيرة لكثرة مزارع القطن حولها ، فضلا عن موقعها الحربى .

---

(٧٤) ذكرت الوقائع المصرية عدد ٥٤٨ الصادر فى ١٠ مارس سنة ١٨٧٤ وابور حليج الأقطان بكسلا ، وجاء ذكر وابور الخرطوم فى كتاب شيلو بك ، النيل والسودان ومصر ، ص ١٠٥ .

وزرع الدخان فى القضارف ، وأنتج صنفا لا يقل جودة عن دخان الأناضول ، واستعمله المدخنون فى جميع نواحى السودان[٧٥] وأنشأ أمين بك (باشا) حقولا للتجارب الزراعية بجوار (الرجاف)[٧٦] .

وكثر النخيل فى دنقله ، وزاد محصول التمر كل سنة ، وكان ينقل إلى بربر والخرطوم ومن هناك يرسل إلى أقاصى السودان حتى خط الاستواء والحبشة .

طرق المواصلات

نشطت المواصلات بين مختلف بلدان السودان فى عهد الحكم المصرى ، واليك أهم الطرق التى كانت تسلكها القوافل أو السفن[٧٧] .

١ – من الخرطوم إلى الأبيض عاصمة كردفان – ١٢ مرحلة بسير القوافل .

٢ – من الخرطوم إلى الفاشر عاصمة دارفور – ٣٢ مرحلة بسير القوافل .

٣ – من الخرطوم إلى غندكرو (الإسماعيلية) بطريق النيل والمسافة بينهما بالبواخر فى ثمانية عشر يوما .

٤ – من الخرطوم إلى قوز رجب على نهر عطبره – ست مراحل .

٥ – من الخرطوم إلى دنقلة – ٨ مراحل .

٦ – من الخرطوم إلى أبو حراز فالقضارف وتقطع المسافة بينهما فى ثلاثة أيام بالبواخر ثم خمسة أخرى على ظهور الجمال .

٧ – من الخرطوم إلى قوز رجب فكسلا فى ثمانية أيام بالجمال .

٨ – من القضارف إلى القلابات فى أربعة أيام على ظهور الجمال .

٩ – من القضارف إلى (الجيرة) فى يوم ونصف على الجمال .

١٠ – من القضارف إلى كسلا فى خمسة أيام بالجمال .

---

(٧٥) النيل والسودان ومصر للمسيو شيلو بك ص ١٠٥ .

(٧٦) مجلة الجمعية الجغرافية عدد فبراير سنة ١٨٨١ ص ٣٢ .

(٧٧) كما ذكرها الكولونل ستوارت فى تقريره المنشور بالكتاب الأزرق الإنجليزى عن مصر سنة ١٨٨٣ (ج ١١ ص ٨) .

١١ – من قوز رجب إلى سواكن فى أحد عشر يوما على ظهور الجمال .

١٢ – من مصوّع إلى سنهيت (عاصمة البوغوس) فى خمسة أيام على الجمال .

١٣ – من سنهيت إلى كسلا فى سبعة أيام بالجمال .

١٤ – من غندكرو إلى الدفلاى سيرًا على الأقدام فى تسعة أيام .

١٥ – من غندكرو إلى منبوتو فى ٣٤ يومًا سيرًا على الأقدام .

١٦ – من غندكرو إلى فويره فى ١٨ يوماً سيراً على الأقدام .

١٧ – من غندكرو إلى لاتوكا فى سبعة أيام سيراً على الأقدام .

١٨ – من غندكرو إلى مكركا فى سبعة أيام سيراً على الأقدام .

١٩ – من الفاشر إلى أسيوط فى أربعين يوماً على ظهور الإبل .

المواصلات النيلية ودار الصناعة بالخرطوم

وأصلح مجرى النيل فى شلال (عبكه) جنوبى وادى حلفا ، ونسفت الصخور والعقبات التى كانت تعترض السفن فيه ، فصار صالحا للملاحة النيلية ومرور السفن الشراعية والبواخر ، فسهلت المواصلات بين مصر والسودان(٧٨) وأزيل جزء من السدود على النيل الأعلى(٧٩) .

وأصلحت ترسانة الخرطوم التى كان إنشاؤها فى عهد محمد على ، وكثرت بها البواخر النيلية ، وبلغ عددها ١٥ باخرة وعدة ذهبيات مصنوعة من الحديد والخشب ، وقد أرسلت هذه البواخر من مصر إلى الخرطوم بطريق النيل عدا الباخرة (الإسماعيلية) التى اتخذها الحكمدارون لركوبهم فإنها نقلت قطعاً مفككة ورُكبت فى ترسانة الخرطوم وانشئت فى هذه الترسانة أربع بواخر جديدة(٨٠) .

الملاحة البحرية والفنارات

وأنشىء فنار فى ميناء (بربره) على خليج عدن لهداية السفن وتسهيل الملاحة ، وبنى بها أيضاً رصيف لإيواء السفن بمعرفتها .

---

(٧٨) الوقائع المصرية العدد ٣٦٧ .

(٧٩) الوقائع المصرية العدد ٥٥٢ (٧ أبريل سنة ١٨٧٤) .

(٨٠) شيلو بك ص ١٧١ .

وعهد الخديو إسماعيل سنة ١٨٧٨ إلى الكولونل جريفز Graives والقائمقام محمد مختار بك (باشا) ارتياد شواطىء السومال التابعة لمصر والواقعة على المحيط الهندى لاختيار موقع يقام فيه فنار يرشد السفن فى طريقها بين المحيط وخليج عدن ، وقد اضطلعا بهذه المهمة وخطط القائمقام مختار بك خريطة هذه الجهة ومكان الفنار . وهو يقع على بعد ثمانية أميال جنوبى رأس جردفون (جردفوى)[٨١] وعلى مسافة ثمانمائة متر من مصب نهر صغير يجرى فيه الماء العذب بواد يعرف بوادى التخوم ولكن الفنار لم ينشأ ، لانتهاء حكم إسماعيل فى يونيه سنة ١٨٧٩ .

وتجد بالصفحة الآتية خريطة رأس جردفون وموقع الفنار الذى كان مزمعاً إنشاؤه كما خططها القائمقام محمد مختار بك .

مشروع السكة الحديدية

وعهد الخديو إسماعيل إلى جماعة من المهندسين تخطيط السكة الحديدية التى تصل السودان بمصر .

وشرع فى مد الخط الحديدى على طول النيل من وادى حلفا إلى (حنك) ، وأنفق فى ذلك نحو ٤٠٠ ألف جنيه ، ومدّ من الخط نحو ٥٧ كيلو متراً فقط من وادى حلفا ، ومهد الطريق على بعد ٤٧ كيلو متراً أخرى ، ثم وقف العمل سنة ١٨٧٨ بسبب ارتباك الحكومة المالى .

المدارس

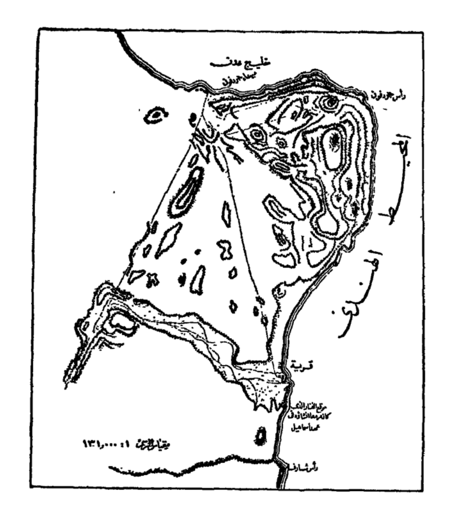
وأنشئت بعض المدارس لتهذيب الأهلين وتثقيفهم ، وعهد بالتدريس فيها إلى المتخرجين من مدرسة الخرطوم التى أنشئت فى عهد عباس الأول .

وقد رأينا فى (الوقائع المصرية)[٨٢] وصف احتفال فخم أقامته مدرسة (بربر) الابتدائية ، لمناسبة امتحانها النهائى ، أنشد فيه نجباء التلاميذ القصائد المنظومة ، وتم الاحتفال

---

(٨١) انظر مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ١ عدد ٩ (أغسطس - نوفمبر سنة ١٨٨٠ ص ٢٩) .

(٨٢) العدد ٦١١ - ٢٠ يونيه سنة ١٨٧٥ .



رأس جردفون « جردفوى »

وكان من أملاك مصر على المحيط الهندى فى عهد الخديو إسماعيل ، وترى موقع الفنار الذى اعتزم إسماعيل باشا إنشاءه سنة ١٨٧٧

وهذه الخريطة مصغرة عن خريطة وضعها بالفرنسية اللواء محمد مختار باشا ونشرت فى مجلة الجمعية الجغرافية سنة ١٨٨٠ .

على نظام الحفلات المدرسية فى عهد إسماعيل .

وأنشأ أمين بك (باشا) فى اللادو عاصمة مديرية خط الاستواء مدرسة لتعليم أبناء الأهلين ومستشفى ومسجدا (٨٣) .

---

(٨٣) مجلة الجمعية الجغرافية – عدد فبراير سنة ١٨٨١ ص ٣٢ .

التجـــارة

بسط الحكم المصرى رواق الأمن فى السودان ، فنشطت حركة التجارة فى بلدانه ، واتسع نطاق المواصلات التجارية بينه وبين مصر ، وانشئت فيه بيوت تجاريه كبيرة تتولى إصدار متاجر السودان إلى مصر وأوروبا وتجلب إلى السودان واردات أوروبا ومصر ، وقد أثرت هذه البيوت ، وصار لها شأن يذكر ، وأكبرها بيت السيد أحمد العقاد ، وبيت على أبى عمورى ، وفرج الله الموصلى ، والخواجة غطاس ، وجيليو ، وامبرواز وغيرهم ، وقد مد هؤلاء تجارتهم إلى أقاصى السودان ، وصار لكل منهم قوة مسلحة من السودانيين ، وأماكن للتجارة فى مختلف الجهات تسمى « مشارع » ، يقيمونها على شكل مربع من عروق الأشجار ، ويقيم التاجر أو كيله فيها بحراسة رجاله المسلحين ، ولهؤلاء الحراس مهمة أخرى ، وهى اقتناص الرقيق للاتجار بهم فى أسواق مصر ، وقد درّت عليهم تجارة الرقيق ثروات كبيرة لما فيها من الأرباح الطائلة ، ومما يدل على اتساع نفوذ هذه البيوت التجارية أن (الزبير باشا) الذى صار له شأن كبير فى السودان كان فى بداية أمره وكيلا لبيت على أبى عمورى .

ولما اعتزم الخديو إسماعيل منع تجارة الرقيق عهد إلى ولاة السودان الاتفاق مع أصحاب « المشارع » على أن يتخلوا عنها للحكومة مقابل تعويضات تدفع إليهم .

وكانت هذه البيوت تتولى إصدار متاجر السودان ، كالعاج ، وريش النعام ، والتبر ، والصمغ ، والجلود ، والغنم ، والمواشى ، والتمر الهندى ، والبن ، والكحل ، وقرن الخرتيت ، وما إلى ذلك .

وظلت التجارة مزدهرة فى ظل الحكم المصرى ، وبلغ عدد البيوت التجارية المملوكة للمصريين فى السودان ثلاثة آلاف بيت ، والمملوكة للأوروبيين ألف بيت ، وبلغت واردات السودان فى السنة مليونين من الجنيهات وصادراته تعادل هذا القدر[٨٤] .

(٨٤) عن بيان قدمه التجار الوطنيون والأجانب فى مصر احتجاجاً على إخلاء السودان سنة ١٨٨٤ ، وضحوا فيه أن إخلاءه يؤدى إلى بوار متاجرهم فيه (كوشرى - المركز الدولى لمصر والسودان ص ٢٨٦) .

البريد

عهد الخديو إسماعيل إلى موتشى بك مدير مصلحة البريد المصرية إنشاء مكاتب منتظمة للبريد فى عواصم السودان ، فصدع بالأمر وأنشأ بها عدة مكاتب ، وأنشئت إدارة للبريد فى الخرطوم سنة ١٨٧٣ احتفل بافتتاحها احتفالا فخما[٨٥] .

وأنشئت مكاتب منتظمة للبريد فى الخرطوم ، ودنقله ، وبربر ، وكسلا ، وفتحت أيضاً مكاتب أخرى فى سنار ، والمسلمية ، والقضارف ، وفازوغلى ، وكرجوع ، وفاشوده ، والأبيض ، والفاشر ، وبقيت هذه المكاتب تؤدى مهمتها ، إلى أن تعطلت بعد شبوب الثورة المهدية سنة ١٨٨٣ ، وظل مكتب الخرطوم مفتوحاً إلى أن سقطت المدينة فى أيدى الثوار سنة ١٨٨٥ .

التلغرافات

بلغت الخطوط التلغرافية التى انشئت فى السودان لغاية سنة ١٨٧٠ ، ٢١١٠ كيلومتر ، وبلغ عدد مكاتب التلغراف فى مدن السودان ٢١ مكتبا ، وذلك سنة ١٨٧٧ .

وهاك بيان الخطوط التلغرافية والمدن التى وصلت بينها[٨٦] .

١ – مصر – دنقله – بربر – الخرطوم .

٢ – الخرطوم – أبو قراد – الأبيض – فوجه .

٣ – الخرطوم – أبو حراز – المسلمية – سنار – فازوغلى .

٤ – المسلمية – الكوه .

٥ – أبو حراز – القضارف – كسله – سنهيت – مصوع .

٦ – كسله – قوز رجب (على نهر عطبره) – بربر .

٧ – سواكن – كسله .

---

(٨٥) الوقائع المصرية العدد ٥٤٨ (١٠ مارس سنة ١٨٧٤) .

(٨٦) تقرير الكولونيل ستوارت عن السودان المنشور فى الكتاب الأزرق الإنجليزى Blue Book عن مصر سنة ١٨٨٣ ج ١١ ص ٨ .

٨ – القضارف – دوكه – جنوبى القضارف – القلابات .

٩ – القضارف – الجيرة (بالقرب من حدود الحبشة) .

وكان مركز هذه الخطوط فى الخرطوم وقد ظلت قائمة إلى أن عطلت فى عهد الثورة المهدية .

ميزانية السودان

ذكر غردون باشا فى رسائله « ص ٢٨١ » أن ميزانية السودان سنة ١٨٧٨ . تتألف من الأرقام الآتية :

٣٢٧,٠٠٠ جنيه دين السودان .

٥٧٩,٠٠٠ جنيه إيرادات الحكومة .

٦٥١,٠٠٠ جنيه مصروفاتها .

٠٧٢,٠٠٠ جنيه العجز .

الرحلات والبعثات الجغرافية

إن بسط سيادة مصر وسلطانها على وادى النيل قد مهد الطريق للاكتشافات والتحقيقات الجغرافية والعلمية فى أرجاء السودان ، فحفل عصر إسماعيل بالبعثات والحملات التى أنفذها الخديو لهذا الغرض على نفقة الحكومة المصرية ، وقوامها صباط أركان حرب الجيش المصرى . فكان لهم الفضل الكبير فى مدرواق الحكم المصرى ، ونشر لواء الحضارة فى السودان ، ولهم فضل لا ينكر فى تقدم علم الجغرافيا والاكتشافات ، بما أضافوا إليها من الحقائق الهامة ، والبيانات المبتكرة ، والخرائط والرسوم الدقيقة .

وإنا ذاكرون بالفخر والإعجاب موجز أعمال هذه البعثات والحملات المصرية ، وما وصلت إليه من الاكتشافات الجغرافية .

فأول هذه البعثات حملة صمويل بيكر باشا إلى منابع النيل وقد أسلفنا الكلام عنها

وفى سنة ١٨٧١ قامت بعثة برآسة الأميرالاى (بوردى بك) Purdy أحد ضباط أركان حرب الأمريكان فى الجيش المصرى ومعه طائفة من الضباط المصريين ، فجابوا

الجهات الواقعة بين النيل والبحر الأحمر ، من القاهرة والسويس شمالا ، إلى قنا والقصير جنوباً ، واكتشفوا طرق المواصلات ومناجم المعادن والمحاجر فى تلك الجهات .

وفى سنة ١٨٧٣ سار الأميرالاى بوردى بك بحراً إلى موقع برنيس (برنيقه) القديمة على البحر الأحمر (غربى رأس بناس) ولحقه بها الأميرالاى كولستن Colston أحد الضباط الأمريكان فى الجيش المصرى من طريق قنا براً ، وخططا الجهات المقفرة الواقعة بين برنيس و (بربر) على النيل وقضيا فى هذه المهمة نيفا وسبعة أشهر[٨٧] .

وفى سنة ١٨٧٤ اكتشف الأميرالاى شايى لونج بك Chaille Long بحيرة إبراهيم كما بيناه فى موضعه ، واكتشف معظم مجرى النيل المعروف بنيل فيكتوريا ، وحقق نقطة كانت غامضة وهى أن نيل فيكتوريا يصب فى بحيرة ألبرت ، ورسم الطريق بين اللادو ومكركه جنوبى بحر الغزال .

وبعد أن تم فتح دارفور سنة ١٨٧٤ أنفذ الخديو ثلاث بعثات كبرى مؤلفة من ضباط أركان الحرب لاكتشاف جهات كردفان ودارفور .

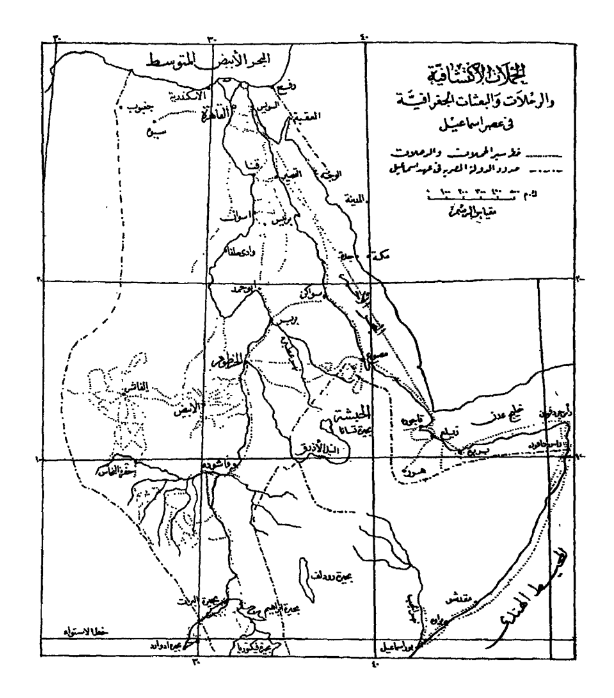
البعثة الأولى : برآسة الأميرالاى بوردى بك ، ومن أعضائها القائمقام ميزون بك Maison من الضباط الأمريكان فى الجيش المصرى ، والملازمون محمود أفندى صبرى (باشا) ، ومحمد أفندى سامى ، وسعيد أفندى نصر (باشا) ، وخليل أفندى حلمى ، والدكتور محمد أفندى أمين ، ومهمتها اكتشاف جهات دارفور ، فكشفت المواقع وطرق المواصلات بين النيل و (حفرة النحاس) بأقصى حدود دارفور جنوبا بغرب[٨٨] ، وجابت أرجاء هذا الإقليم العظيم ، وكشفت من الطرق ما طوله ٦٥٠٠ ميل ، وحققت ٢٢ موقعاً من المواقع الفلكية ، ورسمت خريطة دقيقة لهذه البلاد .

والبعثة الثانية : برآسة الأميرالاى كلستون ، ومن أعضائها الصاغ أحمد أفندى حمدى (باشا) والأميرالاى بروت Prout من الضباط الأمريكان فى الجيش المصرى ، والملازمون عمر أفندى رشدى (باشا) ، ومحمد أفندى ماهر (باشا) ، ويوسف أفندى

---

(٨٧) راجع تقرير الأميرالاى بوردى عن هذه الرحلة فى مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة نمره عدد ٨ ص ٤٣١ ، وتقرير الأميرالاى كزلستن بالمجلة المذكورة مجموعة نمرة ٢ عدد ٩ (أغسطس سنة ١٨٨٦) ص ٤٨٩ ، وبحث الأستاذ كورا عن رحلة كولستن من قنا إلى برنيس وخريطة الرحلة فى مجلة الجمعية مجموعة ٣ عدد ٧ (سبتمبر سنة ١٨٩١) ص ٥٣٣ .

(٨٨) راجع بحث الأميرالاى (اللواء) بوردى باشا عن هذه البعثة بمجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ١ عدد ٨ (مايو سنة ١٨٨٠) ص ٥ والخريطة الملحقة بهذا العدد .



الحملات الاكتشافية
والرحلات والبعثات الجغرافية
في عصر اسماعيل
خط سير الحملات والرحلات
حدود الدولة المصرية في عهد اسماعيل
مقياس الرسم
البحر الأبيض المتوسط
رفح
الاسكندرية
القاهرة
السويس
العقبة
جغبوب
سيوه
قنا
القصير
الوجه
المدينة
أسوان
وادي حلفا
مكة
جدة
أبو حمد
سواكن
بربر
الخرطوم
مصوع
الفاشر
الأبيض
الحبشة
بحيرة تانا
النيل الأزرق
خليج عدن
تاجوره
زيلع
بربره
هرر
رأس جردفون
رأس حافون
فاشوده
حفرة النحاس
بحيرة رودلف
بحيرة ابراهيم
بحيرة البرت
بحيرة ادوارد
بحيرة فكتوريا
خط الاستواء
مقدشو
براوه
بور اسماعيل
المحيط الهندي

حلمى ، وخليل أفندى فوزى ، والدكتور بفوند Pfund العالم الطبيعى ، وقد اكتشفت جهات كردفان ، وحققت مواقعها ومدنها وطرق المواصلات فيها ، ورسمت خريطة دقيقة عنها ، ومرض رئيس هذه البعثة خلال الرحلة فتولى الرآسة بدله الأميرالاى بروت .

وقضى أعضاء البعثتين ثلاث سنوات يقطعون المراحل ويطوون الفدافد ويستهدفون المتاعب المضنية فى سبيل الاضطلاع بمهمتهم .

والبعثة الثالثة : برآسة المهندس الأمريكى متشل Michel[٨٩] يصحبه الضابط عبد الفتاح افندى فتحى لاكتشاف المعادن بين النيل والبحر الأحمر ، وقد كشفت هذه البعثة مناجم للذهب فى (الحمامة) شمالى قنا ، ثم عرجت بثغور البحر الأحمر وخليج عدن ، كالقصير ، ومصوع ، وتاجوره ، وزيلع ، وأوغلت فى الداخل ، ثم عادت إلى مصوع وكشفت الجهات الشرقية من الحبشة .

ورسم أرنست لينان دى بلفون (ابن لينان باشا) الطريق بين غندكرو ودوباجا عاصمة أوغنده ، وقد قتل وهو عائد من مهمته ، ومن بياناته وضع العلامة جورج شونفرت خريطته عن تلك الجهات .

ورسم البكباشى محمد أفندى عزت أحد ضباط منزنجر باشا خريطة الجهات الواقعة بين تاجوره وبحيرة «أوسا» بالحبشة .

ورسم محمد مختار بك (باشا) وعبد الله بك فوزى (باشا) خريطة بلاد هرر ، ورسم الأول خريطة المدينة ، ووضع خريطة أخرى لرأس جردفون[٩٠] (جردفوى) وموقع الفنار الذى أزمع إسماعيل إنشاءه فى تلك الجهة كما تقدم بيانه .

ورسم ضباط أركان حرب نادى باشا الجهات الواقعة بين هرر وزيلع .

ووضع القائمقام عبد الرازق بك نظمى خريطة بربره وملحقاتها .

وكشفت حملة السومال التى أنفذها إسماعيل سنة ١٨٧٥ سواحل البنادر الواقعة على المحيط الهندى وجهات قسمايو (بور إسماعيل) ونهر الجوبا ، وهى الجهات التى قصدت إليها الحملة كما فصلناه فى موضعه .

---

(٨٩) عالم فى طبقات الأرض ومهندس مناجم وكان ملحقًا بقسم أركان حرب الجيش المصرى وتجد تقريره عن هذه البعثة فى مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية مجموعة ١ عدد ٦ (أكتوبر سنة ١٨٧٩) ص ٧ و ١٥ .

(٩٠) الاسم الصحيح (جردفون) كما حققه العلامة أحمد زكى باشا .

وفى سنة ١٨٧٧ جاب الأميرالاى ميزون بك Maison بحيرة (ألبرت) وأتم الاكتشاف الذى بدأه فيها السير صمويل بيكر ووضع لها خريطة دقيقة[٩١] .

وأنفذ الخديو سنة ١٨٧٧ بعثة برآسة المستر برتون لاكتشاف المعادن التى بجهات (مدين) بجزيرة العرب .

وحقق ضباط أركان الحرب برآسة البكباشى عبد الله بك فوزى (باشا) حدود الحبشة الشمالية والطرق بين مصوع والخرطوم ورسموا خريطتها .

وحقق جيسى باشا مواقع بحر الغزال .

وجاب الأميرالاى محمد مختار بك (باشا) نواحى السودان الشرقى حين كان رئيساً لأركان حرب السودان سنة ١٨٨٠ يصحبه من ضباط أركان الحرب خليل بك فوزى والملازمان محمد خير الله وعلى خيرى ، وله مبحث مسهب فى تخطيط أبو حراز ، والقضارف (أبو سن) ، والقلابات ، وطومات ، وأميديب وغيرها من مدن السودان الشرقى[٩٢] .

واكتشف أمين باشا مدير خط الاستواء نهر السمليكى الواصل بين بحيرة إدوارد وبحيرة ألبرت .

ورسم ضباط أركان حرب الجيش المصرى سنة ١٨٧٧ خريطة لأفريقية ، وهى أدق خريطة عرفت إلى ذلك الحين . اشترك فى رسمها كل من الأميرالاى لوكت **Lochett** ، والقائمقام محمد مختار بك (باشا) . والصاغ عبد الله بك فوزى ، وعبد الرزاق بك نظمى ، والضابط محمود صبرى (باشا) ، وأحمد فائق (باشا) ، ومصطفى كامل ، وأحمد فهمى ، وحسن حارس (باشا) ، وحسن صفوت ، وإبراهيم حلمى ، ومحمد جودت ، ومحمد خير الله ، ويوسف ضيا (باشا) ، وعلى حيدر (باشا) ، وأحمد رشيد .

وهذه الخريطة مودعة ضمن محفوظات الجمعية الجغرافية الملكية .

ذكر الجنرال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى فى عهد إسماعيل أن الجهات التى جابها ضباط أركان الحرب وحققوها ، ورسموا مواقعها ، تبلغ فى اتساع مداها مجموع مساحة فرنسا وألمانيا والنمسا والمجر[٩٣] بحدودها القديمة ، هذا يدلك على عظم الاكتشافات

(٩١) مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ١ عدد ٥ (مايو سنة ١٨٧٧ – فبراير سنة ١٨٧٨) ص ٥ .

(٩٢) مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ١ عدد ١١ (فبراير سنة ١٨٨١) ص ٥ .

(٩٣) الرحلات المصرية فى أفريقية للجنرال استون باشا – مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ٢ عدد ٧ (مايو ١٨٨٥) ص ٣٤٣ .

والتحقيقات التى تمت على أيديهم .

وقد ضاع كثير من مباحث هذه البعثات ، لأن الاحتلال الإنجليزى تعمد أن يبدد أعمالها وخرائطها ومجاميعها النفيسة ، وذلك لكى يقطع الصلة بين جيشنا القديم المجيد والجيش الذى ألفه الإنجليز بعد الاحتلال ، على أن المباحث الباقية لأعضاء هذه البعثات تسجل لضابط الجيش المصرى أجلّ الخدمات للعلم والحضارة والعمران ، فإن الاكتشافات والحملات البعيدة المدى التى اضطلعوا بها جديرة بأن تعد من مفاخر تاريخنا القومى ، ومن الصفحات المشرفة فى تاريخ الجيش المصرى والضباط المصريين .

الحكم المصرى فى السودان وشهادة الثقات من الأجانب

ذكرنا فى كتاب « عصر محمد على » (ص ١٨٣ من الطبعة الأولى) أقوال الثقات من الأجانب فيما بلغه السودان من العمران على عهد محمد على .

والآن نذكر ما شهدوا به عن عمران السودانى على عهد خلفائه وخاصة فى عصر إسماعيل .

قال السير صمويل بيكر سنة ١٨٧٣ فى كتابه (الإسماعيلية) : « أن مصر وحدها هى التى تستطيع تمدين أفريقية النيلية بإنشاء حكومة نظامية ، وحسبها أن تمد حدودها إلى خط الاستواء ، وبذلك تضمن حياة السائحين فى تلك الأقطار ، واليوم قد أصبح امتداد حدودها الجنوبية إلى خط الاستواء أمراً واقعاً ، فانفتحت أفريقيه الوسطى للحضارة والعمران[٩٤] .

وقال المسيو سوتزارا Suzzara قنصل النمسا على عهد إسماعيل : « إذا علمنا ما كانت عليه الشعوب فى تلك الأقطار من الهمجية ، وجب علينا أن نعد خضوعها لسلطة الخديو تدرجا نحو التقدم ، فإن هذه الشعوب أخذت تألف الإدارة المنتظمة القائمة على قواعد الاستقرار والنظام ، ومن جهة أخرى فإن الأقطار السودانية التى كانت مقفلة قد فتحت للتجارة والرحلات ، مما مهد السبيل لدخول الحضارة إليها »[٩٥] .

وقال رودلف سلاطين (باشا) فى كتابه (النار والسيف فى السودان) الذى وضعه سنة

(٩٤) الإسماعيلية للسير صمويل بيكر ص ٤١٢ .

(٩٥) تقرير سوتزارا المنشور فى مجلة Revue d'Egypte للمسيو جاليادرو بك عدد مارس سنة ١٨٩٦ ص ٦٢٩ .

١٨٩٥ عقب خلاصه من أسر التعايشى[٩٦] .

« إن السودان المصرى يحكمه الآن (سنة ١٨٩٥) الخليفة عبد الله التعايشى : الرئيس المستبد لدعاة المهدى ، وقد كانت السنوات العشر من حكم المهديين كافية لنشر العبودية فى نواحيه ، ومن الحق أن نقول إن السودان ظل سبعين سنة ونيفا ، منذ عهد محمد على مستظلا بالحكم المصرى ، مفتوحاً للحضارة والمدنية ، والمتاجر المصرية والأوروبية تزدهر فى عواصمه ، والدول الأجنبية توفد قناصلها إلى الخرطوم ، والسائحون على اختلاف أجناسهم يجوبون خلال البلاد ، دون أن يلقوا ممانعة ، بل كانوا يلقون عطفا ورعاية من ولاة الأمور ، وانتظمت طرق المواصلات والتلغرافات وإدارة البريد ، فسهلت الاتصال بين أرجاء السودان القاصية ، وأدى الناس الشعائر الدينية بملء الحرية سواء فى المساجد أو الكنائس ، وقامت مدارس البعثات إلى جانب مدارس الحكومة ، وعلى الرغم من تعدد القبائل التى تسكن السودان وما كان بينها من العداء ، وتحفزها للاقتتال ، فإن حزم الحكومة وسطوتها كانا كافيين لتوطيد دعائم الأمن والسلام فى مختلف أصقاعه » .

وقال فى موضع آخر يصف تبدل الحال بعد غلبة الثورة المهدية :

« لقد شهدنا فى السودان منظراً محزناً ، إذ رأينا الحضارة الجديدة التى دخلته مع الحكم المصرى ، تتداعى أركانها ويندك صرحها بأيدى أقوام جهلاء يكادون يكونون من الهمج ، فأسسوا على أنقاض هذه الحضارة حكومة وضعوا لها نظاماً يشبه فى بعض أشكاله نظم الحكم المصرى ، ولكنهم قضوا على ما ازدان به من العدل والتهذيب ، فأقاموا فى السودان صرح الظلم والانحطاط ، ولا يكاد المرء يشهد فى التاريخ الحديث بلاداً أخرى سادت فيها الحضارة الناشئة زهاء نصف قرن من الزمان ، ثم انقلبت إلى حالة أقرب ما تكون إلى الهمجية ، فإن الخليفة والقبائل التى تناصره ، بعد أن اغتصبوا سلطة الحكم وانتزعوها من أيدى المصريين ، يحكمون الآن الأهلين التعساء حكماً جائرا ، ويسوقونهم بعصا من حديد ، ويسومونهم من الخسف والنكال ما جعلهم يتوقفون إلى التخلص من هذه الدولة ويتطلعون إلى حكومة يجدون فى ظلها الراحة والسلام ، وليس أدل على مبلغ ما عاناه السودان فى عهد المهديين أكثر من فناء ما يقرب من ثلاثة أرباع أهله ، ممن اجتاحتهم الحروب والمجاعات ، والأمراض المختلفة ، والتقتيل والتنكيل » .

---

(٩٦) النار والسيف فى السودان ـ النسخة الفرنسية ج ٢ ص ١٨٤ وما بعدها .

وقال فى موضع آخر : « لقد بعد العهد بحالة السودان تحت حكم إسماعيل ، إذ كانت الحكومة المصرية تحمل فى ربوعه لواء الحضارة والمدنية ، على حين كانت البقاع الخارجة عن منطقة النفوذ المصرى فى حالة الانحطاط والتأخر ، فالسودان بعد أن دخلته الحضارة فى ظل الحكم المصرى قد تطرقت إليه الهمجية على عهد المهديين » .

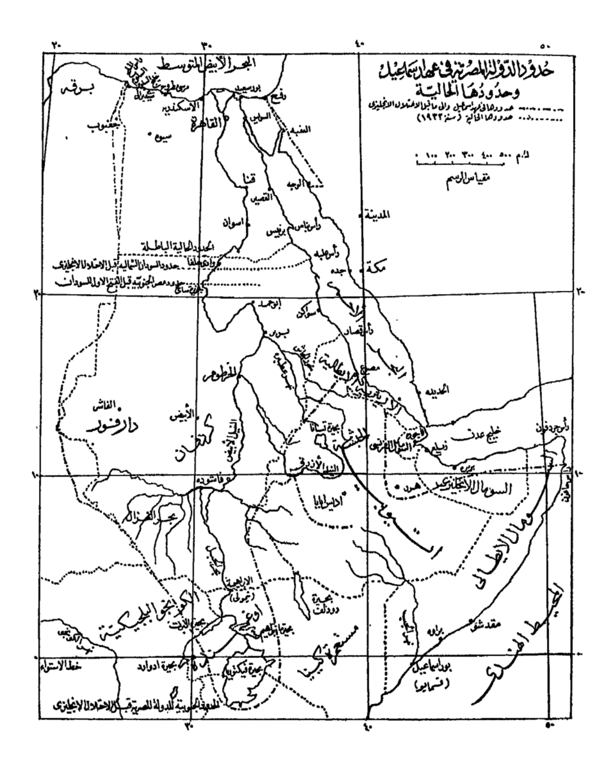
وقال ما يأتى عن ارتباط السودان بمصر ، مما يجدر بنا أن نذكره « على الدوام ونتخذه عبرة وعظة لنا وقاعدة لا تتبدل لسياستنا فى السودان :

« أرى واجبًا علىّ أن أبين وجهة نظرى فى أهمية السودان وقيمته لمصر ، وأبدى الرأى الذى ثبتُ فى قرارة نفسى فأقول ، إن الأسباب التى دعت محمد على منذ خمس وسبعين سنة إلى امتلاك السودان لا تزال قائمة إلى اليوم ، فالسودان هو مصدر الحياة لمصر ، وكل جهودها يجب أن تتجه إلى صيانة وادى النيل من أية غارة أجنبية ، فإن كل خطوة تخطوها دولة أخرى نحو النيل ينظر إليها بعين الفزع من كل من يقدر خطر السيطرة الأجنبية على ذلك النهر العظيم وما تجره من تضحية سعادة مصر وتقدمها وتعريضها لأعظم المضار » .

حدود السودان المصرى أمس واليوم

اكتمل الفتح المصرى فى السودان وبلغت الدولة المصرية حدودها الطبيعية على عهد إسماعيل ، فشملت جنوبًا بحيرة ألبرت وبحيرة فيكتوريا والبلاد التى بينهما ، إذ ضمت مملكة أونيورو وبسطت حمايتها على مملكة أوغنده ، وبلغت شرقًا سواحل البحر الأحمر وخليج عدن ، ووصلت حدودها الجنوبية الشرقية إلى المحيط الهندى ، وضمت إليها فى هذه النواحى سواكن ومصوع وزيلع وبربره وهرر وسواحل السومال الشمالية ، وصارت جميع شواطىء البحر الأحمر الغربية من السويس شمالاً إلى بوغاز باب المندب جنوبًا ملكًا لمصر وامتدت سلطتها إلى شواطىء خليج عدن ، من بوغاز باب المندب إلى رأس جردفون (جردفوى) ثم إلى رأس حافون الواقعين على المحيط الهندى ، وبلغت حدود الدولة المصرية غربًا إلى مملكة واداى الواقعة غربى درافور .

وإليك ما ذكره الكولونل ستوارت Stewart عن حدود السودان المصرى سنة ١٨٨٢ ، فى تقريره الذى قدمه إلى البرلمان البريطانى سنة ١٨٨٣ (بعد الاحتلال الإنجليزى)


حدود الدولة المصرية في عهد إسماعيل
وحدودها الحالية
حدودها في عهد إسماعيل وإلى ما قبل الاحتلال الإنجليزي
حدودها الحالية (سنة ١٩٣٢)
ك.م ٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
مقياس الرسم
البحر الأبيض المتوسط
برقة
جغبوب
سيوه
الإسكندرية
بورسعيد
رفح
القاهرة
السويس
العقبة
قنا
الوجه
القصير
المدينة
اسوان
رأس بناس برنيس
مكة
جده
الحدود الحالية الباطلة
حدود السودان الشمالية قبل الاحتلال الإنجليزي
حدود مصر الجنوبية قبل الفتح الأول للسودان
أبو حمد
سواكن
بربر
الخرطوم
الحديده
الفاشر
دارفور
الأبيض
كردفان
بحيرة تسانا
النيل الأبيض
النيل الأزرق
خليج عدن
زيلع
السومال الفرنسي
السومال الإنجليزي
هرر
بربره
فاشوده
بحر الغزال
اديس ابابا
الحبشة
السومال الإيطالي
مقدشو
براوه
بور إسماعيل
(قسمايو)
بحيرة رودلف
الكونغو البلجيكية
بحيرة ألبرت
بحيرة ادوارد
بحيرة فيكتوريا
أوغندا
مستعمرة كينيا
خط الاستواء
المحيط الهندي
الحدود الجنوبية للدولة المصرية قبل الاحتلال الإنجليزي
٢٠
٣٠
٤٠
٥٠
١٠
٠

وهو يقرب من التحديد الذى ذكرناه ، قال :

« تبدأ حدود السودان المصرى من ضواحى برنيس على البحر الأحمر (صح من رأس علبه) ، وتتبع الخط ٢٤ من خطوط العرض الشمالى إلى نقطة غير معينة فى جوف الصحراء اللوبية ، بالقرب من الخط ٢٨ من خطوط الطول ، ومن هناك يتجه الحد جنوبًا بغرب ، حتى يتلقى بالركن الشمالى الغربى من دارفور حيث الخط ٢٣ من خطوط الطول ، ثم يتجه جنوبًا حتى يصل إلى ما بين الخط ١١ – ١٢ من خطوط العرض ، ثم جنوبًا بشرق ماراً بمونبوتو وبحيرة ألبرت إلى أن يتصل ببحيرة فيكتوريا ، ومن هناك يصعد شمالاً بشرق ويشمل إقليم هرر ، ثم يصل إلى شواطىء المحيط الهندى عند رأس جردفون (جردفوى) ، ومن ثم يعود محاذيا الشاطىء حتى يصل إلى برنيس »[٩٧] .

ومعنى ذلك أن جميع سواحل البحر الأحمر الغربية وسواحل السومال الشمالية الواقعة على خليج عدن كانت من أملاك مصر ، وقد ألحق الكولونيل ستوارت بتقرير ، خريطة مسداليا بك (مدير دارفور) عن السودان بهذه الحدود ، وهى منشورة فى الكتاب الأزرق المتقدم ذكره ص ٣٨ .

وغير خاف أن هذه الحدود قد تراجعت بعد الثورة المهدية والاحتلال الإنجليزى ، إذ تواطأت انجلترا مع الدول الأخرى على انتقاص مصر من أطرافها ، فاحتلت انجلترا أوغنده وأونيورو ومنطقة البحيرات والجزء الجنوبى كله من مديرية خط الاستواء ، وصار الحد الجنوبى للسودان ينتهى الآن عند نيمولى (الإبراهيمية) بعد أن كان يشمل بحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبرت ، واغتصبت انجلترا أيضا محافظتى زيلع وبربره ، وأخذت إيطاليا مصوع والاريتريه ورأس جردفون (جردفوى) ، وفرنسا تاجوره وجيبوتى ، والحبشة بلاد هرر وبنى شنقول من أعمال فازوغلى .

ولم تكتف انجلترا بالتآمر على اقتسام أسلاب الإمبراطورية الإفريقية العظيمة التى أسستها مصر بدمائها وأموالها وجهودها ، بل شاركت مصر فى سيادتها على السودان باتفاق ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، ذلك الاتفاق الباطل الذى جعل السوادن شركة بين مصر وانجلترا ، واتخذته هذه سبيلا إلى الانفراد بحكم السودان ، وإقصاء نفوذ مصر الشرعى عن بلاد فتحتها منذ مائة

---

(٩٧) الكتاب الأزرق الإنجليزى عن مصر سنة ١٨٨٣ ج ١١ ص ٦ .

سنة ونيف ونشرت فيها لواء الأمن والحضارة والعمران ، وبذلت فيها ما بذلت من الجهود والأرواح والضحايا والأموال .

وتراجع الحدبين مصر والسودان ، فصار ينتهى عند الخط ٢٢ من خطوط العرض ، وأصبح حد السودان الشمالى يبدأ عند (فرص) شمالى وادى حلفا ، بعد أن كان الحد الجنوبى لمصر قبل الفتح الأول للسودان (فى عهد محمد على) يصل إلى جزيرة (ساى) جنوبى وادى حلفا ، وكان ينتهى قبل الاحتلال الإنجليزى عند « سرس » جنوبى واذى حلفا أيضاً .

وصارت سواكن ، ووادى حلفا وما يليها جنوباً ، تابعة لإدارة السودان المشتركة بمقتضى الاتفاق الباطل المبرم فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ .

* * *

الفصل السادس

الجيش

خلاصة تاريخ الجيش فى عهد إسماعيل أنه عنى بترقيته وتنظيمه ومضاعفة قوته ، والوصول به إلى مستوى الجيوش الكبيرة للأمم الحديثة ، وعنى أيضاً بنهضة التعليم الحربى ، فأنشأ المدارس الحربية على أرقى طراز حديث ، واختار لها أكفأ المدرسين والضباط ، وأحسن المناهج الدراسية ، فكان التقدم فى نظام الجيش يسير مطرداً مع تجديد التعليم فى المدارس الحربية .

ولكنه فى السنوات الأخيرة من حكمه أهمل شئون الجيش جملة واحدة ، فاختل نظامه ، ثم أقفل معظم المدارس الحربية التى أنشأها ، وذلك لنضوب معين المال ، وارتباك أحوال الحكومة بسبب فداحة الديون التى اقترضها من غير حساب ، بحيث لم ينته عهده حتى كان الجيش المصرى قد وصل إلى درجة محزنة من الضعف والارتباك .

تلك كلمة إجمالية عن حالة الجيش والمدارس الحربية فى عصر إسماعيل ، فالشطر الأول من ذلك العصر هو دور التقدم ، والشطر الثانى يمثل عهد التأخر والاضمحلال .

ففى الشطر الأول بذل الخديو جهوداً كبرى فى تنظيم الجيش ، وأرسل إلى فرنسا بعثة حربية تتألف من خمسة عشر ضابطا من خيرة ضباط الجيش[1] ليقضوا زمناً فى مشاهدة نظام الجيش الفرنسى ، واقتباس خبرة قواده وضباطه ، فأبحرت هذه البعثة على ظهر السفينة الحربية المصرية « شير جهاد » وأقلتهم إلى فرنسا ، فاستقبلتهم الحكومة الفرنسية بالحفاوة ، ودرسوا النظم العسكرية الفرنسية والاستحكامات والمناورات العمومية ، وغير ذلك من فنون الحرب والقتال ، وجمعوا طائفة من المؤلفات الحربية المشتملة على أساليب الجيش الفرنسى ونظاماته ،

(١) ذكرهم إسماعيل باشا سرهنك فى كتابه ج ٢ ص ٣٠٨ وهم : شاهين باشا ، إبراهيم باشا السوارى ، على بك رضا الطوبجى ، على بك وهبى . يوسف بك صديق ، محمد بك رصا ، محمود بك سامى ، اسماعيل بك أيوب ، عبد القادر بك حلمى ، مصطفى بك فهمى ، عثمان بك غالب ، أحمد أفندى حمدى ، حسن أفندى مظهر ، محمد أفندى .

وعادوا بها ليطبقوها فى مصر ، وأخذ الخديو إسماعيل فى تنظيم الجيش على نظام الجيش الفرنسى الحديث .

ولم يكتف بذلك بل أحضر من فرنسا بعثة حربية مؤلفة من بعض الضباط الفرنسيين لتنظيم المدارس الحربية المصرية ، فجاءت هذه البعثة إلى مصر سنة ١٨٦٤ برآسة الكولونل مرشر (بك) Mircher ومعه ثلاثة ضباط آخرون وهم رباتيل Rebatel ولارمى (باشا) Larmee ، وبولار Polard ، وألحق بهم الضابط دوبرناردى بك الذى كان يخدم الحكومة من عهد سعيد باشا ، فتولى هؤلاء الضباط نظارة بعض المدارس الحربية ونظموا شئونها .

ولما شرع إسماعيل فى تنظيم التعليم الحربى نقل المدرسة الحربية التى كانت بالقناطر الخيرية إلى قصر النيل ثم إلى العباسية ، وأنشأ بهذه الجهة عدة مدارس حربية أخرى بدل المدارس التى أنشئت فى عهد محمد على وعفا أثرها ، واختار جهة العباسية لقربها من الصحراء حيث يسهل على التلاميذ القيام بالتمرينات الحربية وضرب النار ، ولأنه كان بها السراى الفخمة التى أنشأها عباس باشا الأول ، وتقدم الكلام عنها ، والمبانى الملحقة بها ، وكانت تصلح مقرًا للمدارس والمعاهد والثكنات .

وجعل لهذه المدارس إدارة واحدة تدعى « إدارة المدارس الحربية » .

وفيما يلى بيان المدارس الحربية التى أنشأها الخديو بالعباسية فى أوائل حكمه :

١ – مدرسة البيادة (المشاة) أنشأها سنة ١٨٦٤ ، وكان عدد تلاميذها حين تأسيسها ٤٩٠ تلميذ ، وتولى نظارتها محمد أمين بك ، ثم دى برنارى بك ، ثم منصور أفندى حسن ، ثم محمد رعنا أفندى ، ثم جعل لها مديرى إدارة وهم على التعاقب : محمد كامل أفندى ، ثم إبراهيم عاصم أفندى ، ثم محمد صالح أفندى .

٢ – مدرسة السوارى (الفرسان) ، أنشئت سنة ١٨٦٥ وعدد تلاميذها ١٦١ تلميذ ، وتولى نظارتها الضابط الفرنسى بولار ثم ياور بك .

٣ – مدرسة الطوبجية (المدفعية) والهندسة الحربية ، انشئت سنة ١٨٦٥ وعدد تلاميذها ٢٨٠ ، تلميذ ، وتولى نظارتها الكولونل لارمى (باشا) ، وكان تلاميذها ينتخبون من بين طلبة مدرسة المهندسخانة ، وهذا يدلك على رقى المستوى العلمى لتلاميذها وخريجيها ، فلاغرو أن نبغ فيها وفى مدرسة أركان الحرب طائفة من أكفأ الضباط المصريين .

٤ – مدرسة أركان الحرب بالعباسية ، أنشئت سنة ١٨٦٥ ، وتولى نظارتها الكولونل مرشير بك ، ثم شحاتة عيسى بك أحد خريجي بعثات محمد على ، ثم رباتيل بك ، ثم عاد إلى نظارتها مرشير بك ، ثم لارمى باشا ، ويختار تلاميذها من نوابغ طلبة المدارس الحربية أو المهندسخانة ، وتعد هى ومدرسة الطوبجية من أرقى المدارس العالية التى أسسها الخديو إسماعيل .

٥ – مدرسة الخطرية بالقلعة ، أنشئت سنة ١٨٧٤ ، وهى أقل شأناً من المدارس المتقدمة والغرض منها تخريج صف الضباط ، وتولى نظارتها القائمقام خليل عفت بك ولم تمكث هذه المدرسة طويلا .

٦ – مدرسة صف الضباط انشئت سنة ١٨٧٤ :

وقد خرجت هاتان المدرستان عدداً من صف الضباط الذين استخدمتهم الحكومة فى الاكتشافات الجغرافية بالسودان .

٧ – مدرسة الطب البيطرى ، أنشئت سنة ١٨٦٨ ، وتولى نظارتها المسيو ليونار ، ووكالتها إسماعيل راضى افندى ، وأحيلت نظارتها منذ سنة ١٨٧٠ على ناظر مدرسة الفرسان (السوارى) .

٨ و ٩ – مدرسة قلفاوات الشيش ، ومدرسة الجبخانجية .

وقد أقفلت هذه المدراس فى أواخر عهد إسماعيل (فبراير سنة ١٨٧٩) لارتباك شؤون الحكومة المالية ، واضطراب أحوالها الإدارية والسياسية ، وأنشئت بدلها المدرسة الحربية المستجدة فى أبريل سنة ١٨٧٩ ، وعين لارمى باشا ناظراً لها ، وهى المدرسة الباقية إلى اليوم (١٩٣٢) .

هيئة أركان حرب الجيش

عهد الخديو إسماعيل إلى طائفة من الضباط الأمريكيين تأسيس هيئة أركان حرب للجيش المصرى ، فتألفت هذه الهيئة من الضباط المصريين الذين عادوا من البعثة الحربية بفرنسا ، ومن الضباط الأمريكيين ، وجعل على رأسهم الكولونيل (استون) Stone وهو ضابط أمريكى على جانب كبير من الكفاءة والخبرة ، غادر الولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب

الأهلية ، وجاء مصر وعرض خدماته على الخديو إسماعيل فألحقه بالجيش ، وعهد إليه سنة ١٨٧٠ برآسة هيئة أركان حرب الجيش المصرى ، لما آنسه فيه من الكفاءة ، وأنعم عليه برتبة اللواء ، فصار يعرف بالجنرال استون باشا ، واضطلع بالمهمة التى اسندت إليه ، واستعان على إحياء هذه الهيئة وتنظيمها بطائفة من الضباط الوطنيين وبطائفة أخرى من الضباط الأمريكان ومن الميكانيكيين والمهندسين والخبراء فى علم طبقات الأرض ، وانشىء فى هذه الهيئة قسم للجغرافية مهمته وضع الخرائط الطبوغرافية الدقيقة عن أنحاء مصر والسودان ، وتولى تخطيط هذه الخرائط ضباط أركان الحرب المصريون والضباط الأمريكان ممن قاموا بالرحلات الاكتشافية التى تكلمنا عنها فى موضعها ، فجاءت أعمالهم غاية فى الدقة والاحكام .

وانشئت مطبعة خاصة لهذه الهيئة ، لطبع رسومها وخرائطها ، ومكتبة نفيسة تحوى كتباً قيّمة فى الفنون الحربية وما إليها ، وألحق بها متحف حربى للأسلحة والتحف والتذكارات الخاصة بالجيش ، وتقدمت هيئة أركان الحرب تقدماً مطرداً لم يوقفه سوى ارتباك الأحوال فى أواخر عهد إسماعيل . وقيام الثورة العرابية ، ثم الاحتلال الإنجليزى[٢] .

ولكن من الحق أن نقول أن هيئة أركان الحرب فى عهد إسماعيل كان ينقصها الاتصال المتين بالقيادة العامة للجيش ، فلم يتم التعاون بين الهيئتين . بل دب النفور بينهما ، وأدى إليه فى الغالب صلف ضباط القيادة العامة ومعظمهم من الشراكسة الذين كان من أخص صفاتهم الزهو والخيلاء .. وقد كان هذا التنافر من أهم أسباب إخفاق الحملة الفرنسية فى حرب الحبشة ، كما تقدم بيانه ، وكان انفصال هيئتى أركان الحرب والقيادة العامة من العوامل التى حالت دون وحدة الجيش ، وأفضت إلى ضعفه واضمحلاله .

الصحافة الحربية

وأنشئت صحيفتان لتثقيف عقول التلاميذ والضباط ، إحداهما تدعى (جريدة أركان حرب الجيش المصرى) والأخرى (الجريدة العسكرية المصرية) ، تولى تحريرهما ضباط الجيش المصرى ، وقد اطلعنا فى دار الكتب الملكية على مجموعة من جريدة أركان الحرب ،

---

(٢) غادر استون باشا مصر نهائياً سنة ١٨٨٢ حين اعتزم الإنجليز وضع أيديهم على الجيش المصرى ، وتوفى فى نيويورك سنة ١٨٨٧ .

وهى مجلة شهرية ، صدر العدد الأول منها فى ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٩٠ (١٠ يوليه سنة ١٨٧٣) ، واستمرت تصدر بانتظام عدة سنوات ، ورأينا مجموعتها كاملة لغاية أكتوبر سنة ١٨٧٨ . وفيها مباحث قيمة للجنرال استون باشا رئيس أركان الحرب ، ولمحمد مختار افندى (باشا) ، وحماد بك عبد العاطى المدرس بالمدارس الحربية ، وعبد الرازق نظمى (بك) ، وأحمد بك عزى ، وعبد الله بك فوزى ، من ضباط أركان الحرب وغيرهم ، وكان الشيخ حسن الطويل العالم المشهور يصحح المجلة .

ورأيت فى العدد الصادر فى ١٥ شوال سنة ١٢٩١ (٢٤ نوفمبر سنة ١٨٧٤) نبذة تاريخية عن الحملة الإنجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ وهزيمتها ، استخلص كاتبها وجه العبرة منها بقوله :

« وإذا قدر الله بغزو هذه الديار مرة أخرى . فليتذكر ضباط الجيش المصرى غزوة سنة ١٨٠٧ [٣] ، وليكن كل ضابط مصمما على المدافعة والذب عن وطنه ، ولا يرتكب العار فى التسليم كما ارتكبه أمين أغا ، بل يدافع بنفسه وبعساكره عن كل نقطة يتجه الهجوم إليها ، كما فعل على بك السلانيكلى الذى اكتسب الفخر والشرف ومنع العدو وصده عن الوطن فى غزو بندر رشيد رحمة الله عليه آمين » [٤] ، فهذه العبارة تدلك على الروح التى كانت تتمشى فى مباحث المجلة ، وكيف كانت تبث فى نفوس الضباط روح الواجب والقومية ، ومن المؤلم أن البلاد قد رزئت سنة ١٨٨٢ بغزوة انجليزية أخرى كغزوة سنة ١٨٠٧ ، ولكن ضباط الجيش وجنوده لم يقوموا بالواجب الذى ذكرتهم به جريدة أركان الحرب سنة ١٨٧٤ ، فكان ما كان من الهزيمة والاحتلال .

تجديد السلاح والمصانع الحربية

أوصى الخديو إسماعيل سنة ١٨٧٦ معامل الأسلحة الفرنسية بصنع عدة آلاف من البنادق الحديثة ذات الإبر المعروفة ببنادق (شاسبو) نسبة إلى مخترعها ، وسلح بها الجيش المصرى .

ورمم حصون الإسكندرية ، وجدد أسلحتها ومدافعها ، وجلب المدافع الضخمة من طراز ارمسترنج ، وركبها فى طوابى الثغور ، وخاصة الإسكندرية ، وهى المدافع التى كان لها عمل ضئيل أثناء ضرب الأسطول البريطانى مدينة الإسكندرية سنة ١٨٨٢ ، ولم تؤثر فى سفن

---

(٣) راجع وقائع هذه الغزوة فى (عصر محمد على) ص ٤٠ وما بعدها (من الطبعة الأولى) .

(٤) جريدة أركان حرب الجيش المصرى العدد ٦ من المجلد الأول للسنة الثانية .

الأسطول لعدم تمرن رماتها على استعمالها بسبب سوء تدبير الحكومة والعرابيين .

وعنى إسماعيل بشأن المصانع الحربية ، التى كانت منشأة من عهد محمد على ، فنظم معمل الحوض المرصود . وأصلح من شأنه ، وصارت تصب فيه المدافع ، وتصنع فيه الأدوات والآلات الحربية للجيش .

وشيد بطره معملاً لصنع الأسلحة المسدسة ، وآخر لصب المدافع وآخر للبنادق ، عدا معامل الخرطوش والقنابل ، وأصلح مصانع البارود التى كانت موجودة بمصر حتى اشتهر ذكرها فى الآفاق ، وأرسل سلطان مراكش بعثة من المغاربة ليتعلموا فى مصر صناعة البارود والطباعة .

وأصلح معمل الأسلحة بالإسكندرية ووسع نطاقه .

إنشاء ميدان للرماية والتمرينات العسكرية (البوليجون)

وفى عهد وزارة الأمير حسين باشا كامل (السلطان حسين كامل) للحربية وضع لارمى بك تصميم إنشاء البوليجون للتمرين على ضرب النار ، وأخذت أورطة المهندسين فى بنائه بإشراف لارمى بك وخفاجى بك أحد أساتذة مدرسة أركان الحرب ، وجعل به عدة أقسام للتمرين ، منها قسم لتمرين ضباط المدفعية على الرمى بالمدافع ، وقسم لتمرين الضباط المشاة على الرمى بالبنادق ، وقسم لصف الضباط ، وقسم لتعليم التلغرافات العسكرية وقسم للإشارة .

إدخال النظام الألمانى

كان النظام الفرنسى هو المتبع فى الجيش المصرى ، ولكن الخديو إسماعيل اعتزم تدريبه على أساليب الجيش الألمانى ، لما ذاعت شهرته بعد انتصاره على الفرنسيين فى الحرب السبعينية ، فأمر بترجمة القوانين والنظامات الألمانية وتعديل الملابس وتغيير الأسلحة ، ولكن ارتباك شؤن الحكومة المالية فى أواخر عهده حال دون الانفاق على الجيش وتجديده .

إحصاء الجيش

ذكر إسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (ج ٢ ص ٣١١) إحصاء الجيش سنة ١٨٧٣ ، ومنه يتبين أن عدده بلغ نحو ٩٠,٠٠٠ مقاتل من جند وضباط وتلاميذ المدارس الحربية كالبيان الآتى :

٨٤،٥٣٠ جنود وصف ضباط

٠٢,٦٦٨ ضباط وقواد

١,٨٩٠ تلاميذ المدارس الحربية

٨٩,٠٨٨

وهذا عدا الجيش المرابط فى السودان ، وقد بينا أنه بلغ ثلاثين ألفا ، أى أن تعداد الجيش المصرى فى مصر والسودان بلغ على عهد إسماعيل نحو ١٢٠,٠٠٠ مقاتل .

افتقار الجيش إلى قائد عظيم

رأيت مما تقدم تطور حالة الجيش فى عهد إسماعيل وعلمت ما أصابه من الضعف فى السنوات الأخيرة من حكمه ، وترجع أسباب هذا الضعف إلى ارتباك شؤون الحكومة المالية الذى كان نتيجة لقروض الخديو ، وإلى عدم التعاون بين قيادة الجيش وهيئة أركان الحرب ، وثمة سبب جوهرى لهذا الضعف ، يتراءى فى عصر إسماعيل عامة ، وهو عجز القيادة العامة ، فقد كان الجيش يعوزه قائد كبير يضارع إبراهيم باشا فى كفاءته وعبقريته ، ويبعث فى نفوس الجند روح البطولة والمجد والبسالة ، ولم يكن إسماعيل على غرار أبيه فى النبوغ والعبقرية ، ولا ورث عنه صفاته الحربية ، ولم يألف خوض غمار القتال ، ولا وجد بين قواده من يسد الفراغ الذى كان يملؤه البطل إبراهيم ، وغنىٌّ عن البيان أن حرمان الجيش مثل القائد العظيم ، ومثل سليمان باشا الفرنساوى أو القواد الذين ازدان بهم تاريخ مصر الحربى فى معارك مصر واليونان وسوريا والاناضول ، كان العامل الأول فيما أصابه من الضعف .

وقد ظهر الضعف فى حرب الحبشة سنة ١٨٧٥ - ١٨٧٦ ، كما بيناه فى الفصل السابق ، وتبين أن أهم أسباب الهزيمة فى تلك الحرب عجز القيادة وسوء النظام ، وكانت هذه الهزيمة

موضع دهشة المصريين والأجانب على السواء ، فقد كانوا يعتقدون أن الجيش المصرى لم يزل محتفظاً بالمكانة التى نالها فى حروب محمد على أو فى حرب القرم ، ولكن حرب الحبشة زلزلت هذه المكانة وكشفت عن أعرض الضعف الذى أصاب الجيش على مر السنين فى عهد خلفاء محمد على .

وقد زاد فى ضعفه ارتباك الحكومة المالى ، وتدخل الدول فى شؤونها ، فإن هذا الارتباك أفضى إلى نقص مخصصات الجيش ، وكان من أعمال وزارة نوبار باشا الأولى تخفيض عدد الجيش ، توفيراً فى النفقات وسداً لعجز الميزانية ، فقررت إحالة ٢٥٠٠ ضابط على الاستيداع ، وتسريح عدد كبير من الجند ، واستمرت أسباب الضعف تزداد وتتفاقم ، إلى أن ظهرت نتائجها مرة أخرى فى وقائع الاحتلال الإنجليزى سنة ١٨٨٢ ، تلك الوقائع التى تعد صفحة محزنة فى تاريخ مصر الحربى .

* * *

الفصل السابع

البحرية

تولى الخديو إسماعيل الحكم والبحرية المصرية فى حالة سيئة من التأخر والضعف ، فقد بدأ اضمحلالها كما قدمنا فى عهد عباس ، ولم يعمل سعيد باشا على إحيائها ؛ لما لقيه من العقبات من ناحية تركيا .

فأخذ إسماعيل فى أوائل حكمه يعنى بتجديد الأسطول ، فبعث النشاط فى ترسانة الإسكندرية (دار الصناعة) ، « وأحيا معاملها ومصانعها ، وجلب لها العمال من الإسكندرية ومن داخل البلاد ، واستحضر لها الآلات والعتاد ، فعاد إليها نشاطها الذى كان لها فى عهد محمد على .

وأنشىء بها بعض السفن الحربية فى عهد ولاية عبد اللطيف باشا ، ثم شاهين باشا ، لوزارة البحرية ، وباسم الأول منهما سميت البارجة « لطيف » وتم فى عهد الثانى بناء البارجة « الصاعقة » .

وأوصى الخديو بصنع عدة سفن حربية مدرعة فى ترسانات أوروبا .

وجَدّد المدرسة البحرية بالإسكندرية ، وأنشأ مدرسة بحرية أخرى بجوار الترسانة ، أحضر لها المدرسين الأكفاء من مصر وأوروبا ، وعهد بنظارتها إلى ضابط من ضباط البحرية الانجليزية ، يدعى مكيلوب (باشا) ، ووكيله ضابط مصرى كفء وهو عبد الرازق بك درويش ، ثم تولى هو نظارتها من بعده[1] . ومن كبار أساتذتها سليمان قبودان حلاوه[2] من مشاهير ضباط البحرية ، وانتخب تلاميذ هذه المدرسة من نبهاء طلبة المدارس الأميرية والابتدائية ، وكانت تدرس فيها الفنون والعلوم البحرية التى تدرس فى المدارس البحرية الأوروبية ، ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ، واختارت الحكومة طائفة من خريجيها

---

(١) الوقائع المصرية العدد ٥٩٨ – ٢١ مارس سنة ١٨٧٥ .

(٢) الوقائع المصرية العدد ٤٤١ – ٢٣ يناير سنة ١٨٧٢ .

وأوفدتهم إلى انجلترا لإتمام العلوم البحرية ، منهم اثنان لتعلم فن إنشاء السفن ، وهما حسن فريد أفندى ، وحشمت أفندى ، واثنان لتعلم الميكانيكا البحرية ، وهما محمد أنيس أفندى ، ومحمد عارف أفندى ، ولما عادوا إلى مصر التحقوا بدار الصناعة بالإسكندرية ، ومن هذه المدرسة تخرج إسماعيل باشا سرهنك ، مؤلف كتاب حقائق الأخبار عن دول البحار ، وناظر المدرسة الحربية المستجدة .

بذل الخديو إسماعيل كما ترى جهوداً ممدوحة فى إحياء البحرية المصرية ، ولكن عقبات جمة اعترضته فى سبيله ، ذلك أن الحكومة التركية رأت البحرية المصرية آخذة بأسباب النشاط والقوة ، وعلمت بأن إسماعيل أوصى على ثلاث مدرعات فى فرنسا ، ومدرعتين أخريين فى النمسا ، وأن هذه المدرعات قد تم صنعها ، وأرسل الخديو سنة ١٨٦٨ طوائفها من الضباط والبحارة ليتسلموها ، فاعترضت على تسليمها ، وتذرعت بأن الفرمانات لا تبيح لمصر إنشاء السفن الحربية المدرعة ، فانتهى الخلاف بأن ابتاعتها تركيا لنفسها .

وكان هذا الاعتراض بإيعاز من انجلترا التى يسوءها أن تجدد مصر قوتها البحرية ، فاستخدمت نفوذها لدى الاستانة لتحول دون هذا التجديد ، وقد وقفت انجلترا هذا الموقف ذاته فى عهد عباس ثم فى عهد سعيد . وكانت بذلك تعمل على خطة رسمتها لنفسها منذ أنشأ محمد على الكبير الأسطول المصرى ، وهى إضعاف قوة مصر البحرية ، لكى تأمن على سلطانها فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر .

خدمات الأسطول

ورغم ما اعترض الأسطول من العقبات ؛ فإنه أدى خدمات لا تنكر ، فقد اشترك فى عدة حملات حربية على ظهر البحار ، كحملة كريت ، وحرب البلقان ؛ فكانت سفنه تقل الجنود المصرية إلى الجهات التى تقصدها ، وكان صلة الاتصال بين مصر وثغورها وأملاكها المترامية على البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندى ، وقد أقلت سفنه القوات العسكرية التى أرسلتها مصر إلى تلك الثغور البعيدة ، كمصوع ، وزيلع ، وبربرة ، ورأس جردفون (جردفوى) ، كما أقلت الحملة التى أنفذتها إلى بلاد الصومال ، ووصلت إلى ثغر قسمايو (بور إسماعيل) شمالى زنجبار على شاطىء المحيط الهندى .

وطافت بعض سفنه حول القارة الإفريقية ، متنقلة من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر عن طريق الإقيانوس الأعظم ورأس الرجاء الصالح ، قبل أن تشق قناة السويس .

إحصاء الأسطول

أحصى العلامة على باشا مبارك[٣] الأسطول المصرى فى عهد الخديو إسماعيل ، فذكر أن عدده ١٤ سفينة حربية ، وهى : المحروسة . مصر . الغربية ، محمد على . شير جهاد . لطيف . دنقله . الطور . سيناء . الخرطوم . أسيوط . وثلاثة مراكب أخرى صغيرة .

ولإسماعيل باشا سرهنك إحصاء آخر ، فقد قال (ج ٢ ص ٥٥) إن عدد سفن الأسطول ١٨ سفينة حربية ، وذكر (ص ٢٨٧) أسماءها مع ثلاث بواخر حربية أخرى مخصصة لركوب الخديو ، وهذا بيانها :

اسم البارجة	محل إنشائها	نوع معدنها	عدد مدافعها
١ – محمد على (فرقاطة)	أمريكا	حديد وخشب	٢٨
٢ – شير جهاد	تريستا	خشب	٢٨
٣ – لطيف كورفت	الإسكندرية	خشب	٦
٤ – الخرطوم (مدفعية)	انجلترا	خشب	٥
٥ – دنقله (مدرعة)	انجلترا	مدرع	٨
٦ – الصاعقة (كورفت)	الإسكندرية	خشب	٨
٧ – سنار (مدفعية)	انجلترا	خشب	٧
٨ – زرخ نمرة ١	فرنسا	مدرع	٢
٩ – زرخ نمرة ٢	فرنسا	مدرع	٢

ثلاث بواخر حربية لركوب الخديو

١٠ – المحروسة	لندن	حديد	٨
١١ – مصر	طولون (فرنسا)	حديد	٦
١٢ – الغربية	طولون (فرنسا)	حديد	٤

(٣) فى الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٨٣ .

طرادات وسفن للنقل

اسم البارجة	محل إنشائها	نوع معدنها	عدد مدافعها
١٣ — الطور	انجلترا	حديد	٢
١٤ — أسوان	انجلترا	خشب	٤
١٥ — شندى	انجلترا	خشب	٤
١٦ — أسيوط	الإسكندرية	خشب	٢
١٧ — الجعفرية	انجلترا	حديد	٣
١٨ — سمنود	انجلترا	خشب	٢
١٩ — نور الهدى	انجلترا	حديد	٢
٢٠ — مخبر	انجلترا	حديد	٢
٢١ — عجمى	انجلترا	حديد	٢

فمن هذا الإحصاء ومن مقارنته بإحصاء الأسطول الضخم الذى كان لمصر فى عهد محمد على (عصر محمد على ص ٤٣٢) يتبين لك مبلغ ما أصاب البحرية المصرية من الضعف فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ثم إذا قارنت هذين الإحصاءين بحالة أسطول مصر الآن — ١٩٣٢ — (أى بعد الاحتلال الإنجليزى) وبحثت عبثاً أين هو الأسطول ومم يتألف ؟ وماذا يعمل ؟ يعروك الدهش والأسى والألم ، لانعدام قوة مصر البحرية فى عهد الاحتلال .

الأسطول التجارى

لما وجد إسماعيل ما يعترضه من العقبات فى سبيل تجديد الأسطول الحربى ، وجه عنايته إلى الأسطول التجارى ، فأنشأ شركة للملاحة التجارية ، سميت الشركة العزيزية ، نسبة إلى السلطان عبد العزيز ، أعد بواخرها لنقل المسافرين ونقل المتاجر إلى ثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، بعد أن أبطل الشركة المجيدية التى أنشئت فى عهد سعيد باشا ، وجعل رأس مال الشركة الجديدة موزعًا على أسهم ليشترك الأفراد فيها .

فاكتتب جماعة من سراة المصريين فى رأس مالها ، وخصص لها الخديو سبع بواخر كانت موجودة من قبل ، وأوصى بإنشاء بواخر جديدة فى انجلترا ، وجعل على قيادة هذه البواخر ضباط البحرية القدماء الذين تركوا خدمة الأسطول منذ اضمحلاله ، وكذلك بحارته ، وابتاعت وزارة البحرية عدا ذلك عدة سفن شراعية كبيرة لنقل الأخشاب اللازمة لوزارتى البحرية والحربية من بلاد الأناضول ، فكان الأسطول التجارى المصرى بنوعيه من البواخر والسفن الشراعية بالغاً درجة كبرى من التقدم .

وكان لبواخر (الشركة العزيزية) فضل كبير فى نشاط حركة التجارة الخارجية لمصر ، وتسهيل مواصلاتها البحرية مع الأقطار الأخرى ، وزاحمت شركات الملاحة الأجنبية فى هذا الصدد ، ونجحت فى عملها ، ونمت إيراداتها . وربحت الأرباح الوفيرة ، ثم ابتاع الخديو إسماعيل أسهمها ، احتكاراً لأرباحها ، وحولها إلى إدارة من إدارات الحكومة عرفت بمصلحة (وابورات البوستة الخديوية) ، فاستمرت مطردة النجاح واتسع نطاق أعمالها ، وصار لها من البواخر الكبيرة ست وعشرون باخرة[٤] تجوب البحار رافعة العلم المصرى ، وتنقل الناس والمتاجر والبريد بين ثغور مصر وشواطىء البحر الأبيض المتوسط فى سوريا والأناضول وبلاد اليونان ، وشواطىء الدردنيل والبوسفور ، وثغور البحر الأحمر كسواكن ومصوع وينبع وجدة والحديدة ، وتجتاز بوغاز باب المندب إلى زيلع وبربره .

وقد ألحق بهذه المصلحة الحوض العائم الذى أنشىء بميناء الإسكندرية ، وخصص لبواخرها معمل (فابريقة) فى ترسانة الإسكندرية للقيام بما تحتاجه من الإصلاح .

وبقيت هذه الإدارة الكبيرة ببواخرها وملحقاتها كالحوض وفابريقة الترسانة ملكاً للحكومة ، إلى أن باعتها فى عهد الاحتلال ، إلى شركة إنجليزية ، بأبخس الأثمان ، فانتقلت تلك المنشآت البحرية العظيمة . وهذه الثروة القومية الضخمة ، إلى أيدى الإنجليز ، وأنزل العلم المصرى عن بواخرها ، واستبدل به العلم البريطانى ، فكانت نكبة ، وكان خسران .

---

(٤) هى : الرحمانية . التاكا . الفيوم . البحيرة . الشرقية . الدقهلية . طنطا : شندى . شبين . دسوق . كوفيت . سمنود . المنيا . الجعفرية . مسير . المنصورة . المحلة . النجيلة . دمنهور . الزقازيق . الحجاز . الحديدة . ينبع . القصير . سواكن . مصوع (كتاب إحصاء مصر سنة ١٨٧٣ – ص ٤٧) .

إتمام ميناء السويس

إن إتمام أعمال الإصلاح فى ميناء السويس ، وإصلاح ميناء الإسكندرية ، وإنشاء الفنارات البحرية ، هى من أعمال العمران التى تتصل بالبحرية ، ولذلك نتكلم عنها فى سياق الحديث عن البحرية فى عهد إسماعيل .

شرع سعيد باشا سنة ١٨٥٦ فى إنشاء ميناء جديد بالسويس لسهولة إيواء السفن ، فجعل من الثغر مرفأين ، أحدهما يسمى ميناء إبراهيم ، جعل للبواخر الحربية ، وجعل الثانى للسفن التجارية ، وأقيم حاجز من الاحجار لصد الأمواج عن الميناءين ، وبه البوغاز لدخول السفن وخروجها .

وشرع فى إقامة حوض لعمارة السفن ، وقد استمر العمل فى إتمام هذه المشروعات إلى أن كملت فى عهد إسماعيل ، وبلغت نفقات الحوض والجسر الذى يصله بميناء السويس ٢٤٠,٠٠٠ جنيه ، وقد تنازلت عنه الحكومة المصرية فى عهد الاحتلال إلى الشركة الإنجليزية التى اشترت وابورات البوستة الخديوية .

إصلاح ميناء الإسكندرية

لما اتسعت حركة العمران وازدادت المواصلات البحرية فى الإسكندرية شرع إسماعيل فى توسيع مينائها وإصلاحه ، واعتزم إنفاذ هذا الإصلاح بعدما أنشئت بورسعيد وقارب مشروع قناة السويس التمام ، فقد خشى أن تزاحم بورسعيد الإسكندرية ، وتتحول إليها حركة التجارة الخارجية ، فاعتزم توسيع ميناء الإسكندرية لتجتذب إليها السفن فى غدوها ورواحها .

فأول ما بدأ به إقامة حوض عائم من الحديد لإصلاح السفن ، بدل الحوض المبنى بالحجر من عهد محمد على ، والذى صار مع الزمن لا يفى بإصلاح السفن ، وخاصة كبيرة الحجم ، وقد جلب الحوض الجديد من فرنسا سنة ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨م) .

ثم أنشأ حاجز الأمواج الضخم الذى يقى الميناء طغيان الأمواج ، ويجعل السفن الراسية به فى مأمن من العواصف ، ولا يزال قائماً إلى اليوم ، وهو جسر من الدبش والأحجار الضخمة

والصخور ، ممتد من طرف شبه جزيرة رأس التين إلى جهة العجمى ، وفيه البوغاز لمرور السفن منه ، وأنشأ بداخل الميناء رصيفاً للشحن والتفريغ وأرصفة أخرى ممتدة فى داخل الميناء ، وكانت هذه المشروعات من أعمال العمران الضخمة التى اقتضت جهوداً كبيرة ، وكلفت الخزانة نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وقد عهد بها الخديو إلى شركة انجليزية تدعى شركة جرنفلد ، وبدء فى العمل سنة ١٨٧١ ، ولم يتم إلا بعد تسع سنوات سنة ١٨٧٩ .

الفنارات

وأنشأ عدة فنارات فى ثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر لإرشاد السفن ولتسهيل الملاحة البحرية .

وهذا بيانها :

فى البحر الأبيض المتوسط : فنار البرلس ، أنشىء سنة ١٨٦٨ ، وفنار رشيد سنة ١٨٦٨ ، وفنار دمياط (تجاه رأس البر) سنة ١٨٦٩ ، وفنار بور سعيد سنة ١٨٦٩ ، وفنار العجمى سنة ١٨٧٣ ، وفنار حاجز الميناء سنة ١٨٧٦ ، وفنار القبارى سنة ١٨٧٧ ، أما فنار رأس التين الكبير فهو منشأ من عهد محمد على .

فى البحر الأحمر : وكان بالبحر الأحمر من الفنارات قبل عصر إسماعيل فنار زنوبيا ، وفنار الزعفران جنوبى السويس ، وفنار الأشرفى ، وفنار أبى كيزان ، فرأى الخديو إسماعيل أن هذه الفنارات لا تكفى لإرشاد السفن فى البحر الأحمر ، لكثرة صخوره ومخاطره ، فأنشأ فنارات أخرى وهى :

فنار السويس . وفنار رأس الغريب جنوبى رأس الزعفران ، وفنار صخور الأخوين الشمالية ، وفنار جزيرة شدوان الذى تم سنة ١٨٨٩ ، وفنار (الوجه) من ثغور الحجاز(٥) .

وأنشأ فى خليج عدن بالأقيانوس الهندى فنار بريره السابق الكلام عنه ، وأمر بإقامة فنار فى جردفون (جردفوى) سنة ١٨٧٨ ، ولكنه لم ينشأ كما تقدم بيانه (ص ١٦٥) .

* * *

(٥) كانت متصرفية (الوجه) تابعة لحكومة مصر .

الفصل الثامن

حروب مصر فى عهد إسماعيل

خاضت مصر فى عهد إسماعيل عدة حروب . تختلف فى أهميتها ونتائجها ، ومعظمها مما دعته تركيا إلى خوض غمارها لنجدة جيشها ، ما خلا حروب السودان ، فقد كانت ابتكاراً من الخديو إسماعيل ، لبسط نفوذ مصر فى باطن إفريقية وشرقيها ، والوصول إلى الحدود الطبيعية لوادى النيل ، وحرب الحبشة التى كانت حرباً عقيماً من كل الوجوه .

ولم يكن للحروب التى خاضتها مصر تلبية لطلب تركيا من نتائج عملية لمصلحة مصر سوى أن إسماعيل كان يتخذها فى الجملة ، ذريعة لاستصدار مزايا وحقوق جديدة تقرب مصر من استقلالها التام ، ومن جهة أخرى فإنها كانت ميادين لمران الجيش المصرى وجنوده وضباطه على ممارسة القتال والإفادة من تجاريبه ووقائعه .

١ – إخماد ثورة العسير

فى أوائل عهد إسماعيل ثار الأمير محمد بن عائض أمير العسير على الدولة العثمانية ، وقصد الاستيلاء على تهامة اليمن ، فحاربه متصرف الحديدة ، وصدّه فى بعض المواقع ، ولكن الأمير استفحل أمره واستولى على بعض المدن ، فاستنجد السلطان عبد العزيز بالخديو إسماعيل ، وطلب إليه أن ينفذ جيشاً مصرياً لإخماد الثورة .

فلبى إسماعيل طلبه ، وأنفذ إلى عسير قوة من ثلاث أورط من المشاة ، زودها بالمدافع وكتائب الفرسان ، وعقد لواء قيادتها للأميرالاى إسماعيل صادق بك ، فلما وصل إلى ثغر جدة ، اتفق وواليها على تجريد الحملة المصرية صحبة الجنود العثمانية على الثوار من جهة (قنفدة) فتمكن من إخماد الثورة ، وقدم الأمير محمد بن عائض طاعته . ثم عادت الفرقة المصرية ظافرة مشكورة على ما أبلته فى القتال ، وأنعم الخديو على قائدها برتبة اللواء مكافأة له على ما أبدى من الشجاعة والكفاءة فى القيادة ، وأرسل السلطان إلى الخديو كتاب شكر وثناء

على ما بذله من الحمية والولاء ، وتوسط إسماعيل لدى السلطان عبد العزيز فى العفو عن الأمير الثائر ، فقبل شفاعته وعفا عنه وأقره فى إمارته .

٢ – حرب كريت

قامت سنة ١٨٦١ ثورة فى ولاية الهرسك إحدى ولايات البلقان بتحريض أمير الجبل الأسود ، فجردت تركيا جيوشها لمقاتلة الثوار ، ولما تولى إسماعيل عرش مصر طلبت إليه الحكومة العثمانية أن يعزز جيوشها فى الروملى بجيش مصرى حتى لا يقوى ساعد الثوار ولا تزداد اضطراباتهم فى تلك الجهات ، فأنفذ إسماعيل باشا فرقة تولى قيادتها اللواء على غالب باشا ، فوصلت الحملة المصرية إلى الاستانة ، وعرضها السلطان ، ثم سارت عن طريق (سلانيك) إلى (مناستر) ورابطت هناك .

ثم نشبت ثورة عامة فى جزيرة (كريت) سنة ١٨٦٦ ، وعجزت تركيا عن إخمادها إذ كان جنودها موزعين فى ولايات البلقان ، ولم تقو الحامية التركية فى الجزيرة على مقاومة الثورة ، فاستنجدت بمصر ، وأرسل السلطان عبد العزيز إلى الخديو يطلب إليه إنفاذ بعض فرق الجيش المصرى إلى الجزيرة لمقاتلة الثوار ، فلبى الطلب ، وأنفذ جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف مقاتل ونيف ، عقد لواءه للفريق شاهين باشا ، أحد قواد الجيش المصرى المشهورين ، يعاونه اللواء إسماعيل صادق باشا ، وكان من ضباط الجيش المصرى فى هذه الحرب راشد بك حسنى (باشا) الذى عظم شأنه فى حوادث الثورة العرابية ، وأبلى البلاء الحسن فى واقعة القصاصين ، ومحمود سامى بك البارودى (باشا) الذى صار من كبار زعماء الحركة العرابية ، وفى هذه الحرب كانت نشأة البارودى الحربية .

أقلعت الحملة إلى جزيرة كريت ، تقلها عمارة من الأسطول المصرى مؤلفة من عشر سفن ، معقوداً لواؤها للأميرال قاسم باشا ، وتولت هذه العمارة نقل القوة المصرية التى كانت مرابطة فى (مناستر) وجاءت بها إلى الجزيرة .

نزلت الحملة فى كريت ، فاشتبكت والثوار فى جهة تسمى (أبو قرون) ، جرح فيها اللواء إسماعيل صادق باشا جرحاً بليغاً نقل على أثره إلى مصر ، وتبدلت القيادة العامة للجيش المصرى ، إذ استدعى شاهين باشا إلى مصر وعين بدله الفريق إسماعيل سليم باشا وزير الحربية

وقتئذ كما تقدم بيانه (ص ٨٣) .

والتقى الجمعان فى واقعة « ارقاذى » ، وكانت من أعظم الوقائع الحربية ، هزم فيها الثوار هزيمة كبيرة ، وخسروا خسائر عظيمة ، وأبلى فيها الجنود المصريون بلاءً حسناً فى القتال ، وأبدوا من الشجاعة والإقدام ما خلد ذكرهم ، وكان راشد بك حسنى وألايه أكثرهم إقداماً ، فأنعم عليه الخديو برتبة اللواء ، وأرسل الجيش المصرى كتاباً بليغاً من إنشاء المرحوم عبد الله باشا فكرى ، يثنى فيه على حسن بلاء الجنود وضباطهم وقوادهم ، ويسجل لهم ما أبدوه من ضروب الشجاعة والكفاءة .

واستمرت الحرب سجالا حتّى أخمدت الثورة ، فعاد الجيش المصرى إلى مصر ، وقوبل بمظاهر الحفاوة البالغة ، وأقام الخديو لأفراده الولائم تكريماً لهم على حسن بلائهم فى القتال

٣ – حرب البلقان
(١٨٧٦ – ١٨٧٧)

كانت الروسيا لاتفتأ تحرض إمارات البلقان على الانتقاض على تركيا ، لكى تمهد لنفسها الدخول فى حومة الوغى بعد أن توزع تركيا قواتها فى إخماد الثورات المحلية ، فمن ذلك أنها بذرت بذور الثورة فى تلك البلاد حتّى شب أوارها فى الهرسك سنة ١٨٧٥ ، وامتدت إلى البوسنة ، وقامت الصرب تشد أزر الثوار .

فطلبت تركيا من الخديو إسماعيل إمدادها بنجدة من الجيش المصرى ، فأعد الخديو قوة من نحو سبعة آلاف مقاتل بقيادة الفريق راشد باشا حسنى ، ومن ضباطها محمود بك فهمى (باشا) الذى صار فيما بعد من زعماء الثورة العرابية ووزرائها ، وصاحب كتاب البحر الزاخر فى تاريخ الأوائل والأواخر .

أقلعت الحملة إلى الاستانة . ثم قصدت إلى حدود الصرب ، فاشتركت والجيش العثمانى فى قتال الصربيين ، وفازت عليهم ، وأظهرت شجاعة وبسالة فى المواقع التى خاضتها . مما دعا الخديو إلى الإنعام على طائفة من قوادها وضباطها بالرتب العالية .

وفى غضون ذلك تولى عرش تركيا السلطان عبد الحميد الثانى (٣١ أغسطس سنة ١٨٧٦) ، بعد أن قتل السلطان عبد العزيز ، وخلع السلطان مراد ، ورجع الجنود المصريون

إلى الاستانة إذ وقفت الحرب بين تركيا والصرب .

ثم تجدد النزاع بين تركيا والروسيا ، وأعلنت الحرب بين الدولتين ، وهى الحرب المعروفة بحرب البلقان (أبريل سنة ١٨٧٧) ، فطلبت تركيا من الخديو إنجادها فى هذه الحرب ، ولكن إسماعيل اعتذر بداءة ذى بدء بارتباك شئون الحكومة المالية ، وعجزها عن الانفاق على المدد ، فأعاد السلطان عبد الحميد الكرة ولم يقبل عذراً .

وكانت المشاكل المالية قد جعلت إسماعيل هدفاً لغضب الدائنين الأجانب ، فأخذوا يرهقونه بمطالبهم الشديدة ، والدول الأوروبية من ورائهم تشد أزرهم ، وتهدد الخديو ، فخشى عاقبة مغاضبة تركيا فى تلك الظروف العصيبة ، فاعتزم إجابة طلبها .

وكانت خزانة الحكومة فى حالة سيئة ، فاستدعى مجلس شورى النواب ، وعرض عليه ربط ضريبة جديدة تدعى « ضريبة الحرب » قدرها عشرة فى المائة من مجموع الضرائب ، لسد نفقات الحملة ، فوافق المجلس عليها ، وأعد الخديو جيشاً مؤلفاً من نحو أثنى عشر ألف مقاتل بقيادة الأمير حسن باشا ثالث أنجاله ، وبعد أن تمت معدات الحملة أقلعت بهم السفن المصرية إلى الاستانة ومنها إلى (وارنه) أحد ثغور البحر الأسود .

وقد أبلى الجنود المصريون فى هذه الحرب بلاء حسنًا واشتركوا فى القتال إلى أن وضعت الحرب أوزارها فى مارس سنة ١٨٧٨ ، ثم عادوا إلى مصر .

٤ و ٥ – حروب السودان والحبشة

كانت الحملات التى جردها الخديو إسماعيل لإتمام فتح السودان خير حروب مصر فى عهده ، وأكثرها نفعًا وبركة ، وهى تعد تكملة لحروب مصر فى عهد محمد على ، وقد وفينا الكلام عنها فى الفصل الخامس ، كما بسطنا الكلام فيه عن حرب الحبشة .

* * *

الفصل التاسع

التعليم والنهضة العلمية والأدبية

نال التعليم والنهضة العلمية نصيباً عظيماً من جهود إسماعيل ، فقد تولى الحكم ومعظم المدارس التى أنشأها محمد على مقفلة ، ولم يكن باقيًا منها سوى مدرسة الطب والصيدلة . ومدرسة الولادة (القابلات) ، ومدرسة حربية ، ومدرسة ثانوية ، وأخرى ابتدائية ، ومدرسة البحرية بالإسكندرية ، فبعث النهضة العلمية من مرقدها ، ونفخ فيها روح الحياة والنشاط ، وأعاد تأليف ديوان المدارس (وزارة المعارف) ، وعهد برآسته إلى إبراهيم أدهم باشا الذى تولاها فى عهد محمد على ، ووجه همته إلى إنشاء المدارس على اختلاف مراتبها وفنونها[1] .

المدارس الحربية

فأسس المدارس الحربية التى تكلمنا عنها فى الفصل السادس .

المدارس العالية

وأسس عدة مدارس عالية ، ازدان بها تاريخه ، وكان لها الفضل الكبير على النهضة العلمية والأدبية والفكرية التى ظهرت فى عصره ، وفى العصور التى تلته ، وإليك بيان هذه المدارس .

(١) أهم مراجع هذا الفصل عن معاهد التعليم : الوقائع المصرية الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك التعليم فى مصر لأمين سامى باشا . التعليم العام فى مصر ليعقوب أرتين باشا . التعليم العام فى مصر للمسيو دوربك .

مدرسة المهندسخانة

هى مدرسة (الرى والعمارة) وسميت المهندسخانة ، أنشئت بالعباسية سنة ١٨٦٦ بسراى الزعفران ، ثم نقلت سنة ١٨٦٨ إلى سراى درب الجماميز (ثم إلى الجيزة) ، وكان أول ناظر لها إسماعيل بك (باشا) مصطفى الفلكى ، ثم محمود بك (باشا) الفلكى ، ثم عاد إليها إسماعيل بك الفلكى .

مدرسة الحقوق

هى أعظم المعاهد العلمية التى أسسها إسماعيل ، أنشئت سنة ١٨٦٨ ، وكان اسمها مدرسة « الإدارة والألسن » ، وقد حلت محل مدرسة الألسن التى أقفلت فى عهد عباس ، وسميت « مدرسة الحقوق » منذ سنة ١٨٨٦ ، كان أول ناظر لها المسيو فيدال Vidal (باشا) أحد علماء فرنسا المشترعين ، وبقى يتولى نظارتها أربعًا وعشرين سنة إلى عام ١٨٩١ .

وفى هذه المدرسة تخرج معظم رجال القانون الذين نبغوا فى عصر إسماعيل وما يليه من العصور ، ولها الفضل الكبير على نهضة القانون والتشريع والقضاء ، وعلى النهضة الأدبية والسياسية فى البلاد .

مدرسة دار العلوم

أسست سنة ١٨٧٢ ، والغرض منها تخريج أساتذة اللغة العربية للمدارس الابتدائية والثانوية ، انتخب طلبتها من نجباء تلاميذ الأزهر ، وتولى نظارتها على التعاقب فى عهد إسماعيل : حامد افندى نيازى ، ثم محمود افندى فوزى ، ثم على بك فهمى رفاعه ، ثم حامد افندى نيازى ، وقد أدت المهمة التى أنشئت من أجلها ، وكان لها الفضل الكبير على نهضة اللغة والآداب العربية فى مصر ، وسنعود إليها فى ترجمة مؤسسها على مبارك باشا .

مدرسة الطب والولادة

وارتقت مدرسة الطب فى عهد إسماعيل ، واتسع نطاقها ، وتخرجت جماعة من أعلام الطب فى مصر ، وتولى نظارتها على التعاقب : برجيير بك Burguiere Bey ، ثم حافظ افندى محمد ، ثم محمد على بك (باشا) البقلى ، ثم محمد الشافعى بك ، ثم محمد على باشا البقلى ، ثم جلياردو بك .

مدارس البنات

بدأ إنشاء مدارس البنات فى مصر على عهد إسماعيل ، وهى ميزة تشهد له بالفضل فى نهضة الأمة ، فقد كان التعليم النسوى يعتبر من قبل فى حكم العدم ، إذ لم تكن فى البلاد مدرسة للبنات سوى مدرسة الولادة ، ولم يكن يتعلم فيها فى الغالب سوى البنات الحبشيات ، أما الفتيات من سائر الطبقات فلم يكن لهن مدارس لتعليمهن ، وكان الجهل مخيما عليهن ، اللهم إلا من كن يتعلمن فى بيوت آبائهن وأهلهن ، وقليل أولئك .

فنى سنة ١٨٧٣ أسست مدرسة السيوفية للبنات ، انشأتها السيدة جشم آفت هانم ثالث زوجات الخديو إسماعيل ، وكان بها حين افتتاحها نحو مائتى تلميذة[٢] ، وبلغ عددهن سنة ١٨٧٤ اربعمائة تلميذة ، يتعلمن مجانا ، فضلا عن الإنفاق على مأكلهن وملبسهن ويتعلمن القراءة ، والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم ، والحساب ، والجغرافية ، والتاريخ ، والتطريز والتسيج ، وغير ذلك من الصناعات[٣] وتولى نظارتها حسن أفندى صالح ، ثم مدام روزه .

وأسست مدرسة أخرى للبنات فى القربية بالقاهرة سنة ١٨٧٤ ، وألغيت سنة ١٨٧٨ .

(٢) الخطط التوفيقية ج ٢ ص ٤٦ ، وجاء فى الوقائع المصرية العدد ٥١٩ (٥ أغسطس سنة ١٨٧٣) أن عددهن حين افتتاح المدرسة ١٨٠ تلميذة .

(٣) الوقائع المصرية العدد ٥٧٦ ـ ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٧٤ .

المدارس الصناعية

وأسس إسماعيل من المدارس الصناعية :

مدرسة الفنون والصنائع ، وكانت تعرف بمدرسة (العمليات) ، أسست سنة ١٨٦٨ لتخريج الصناع الفنيين ، ومنهم مهندسو الوابورات البرية والبحرية وسواقوها . والموظفون الفنيون فى مصلحة السكك الحديدية ، وتخرج منها مهندسون لصنع عربات السكك الحديدية والبواخر والآلات البخارية .

وتولى نظارتها المسيو جيجون بك Guigon bey ، ثم عيسى شاهين أفندى ، ثم عاد لنظارتها جيجون بك . ومن كبار أساتذتها إسماعيل بوشناق بك كبير مهندسى العنابر بالسكك الحديدية .

ويشتمل برنامجها على العلوم الصناعية والهندسية ثم التمرينات العلمية .

فى السنة الأولى : يدرس الحساب ، والجبر ، والهندسة الوصفية ، والرسم ، وفن العمارة ، واللغات العربية والفرنسية والإنجليزية .

وفى السنة الثانية : تدرس أنواع الرسم ، واللغات ، والطبيعة وتطبيقها على الصناعات والميكانيكا ، والجغرافية ، والمحاسبة .

وفى السنة الثالثة : تدرس المواد المذكورة مع التاريخ وتطبيق الكيمياء على الصناعات ، ورسم الآلات البخارية وتركيبها .

وكان الطلبة يمارسون بعد الظهر التمرينات العملية فى خمسة معامل :

أولها : معمل تركيب الآلات وتصليحها .

والثانى : معمل الحدادة .

والثالث : المسبك الذى كان يعرف بالدوكمخانة .

والرابع : معمل الخراطين والنجارين والعينات التى يطلب عملها .

والخامس : معمل قدور القزانات الحديد والنحاس ، وفى المدرسة قسم لتعليم التلوين بالألوان المختلفة (٤) .

---

(٤) عن (الوقائع المصرية) عدد ٣٤١ (١٩ يناير سنة ١٨٧٠) .

١ – مدرسة التلغراف أسست سنة ١٨٦٨ ، وألغيت سنة ١٨٦٩ ، ثم الحقت بمدرسة الفنون والصنائع .

٢ – فرقة النقاشين أسست سنة ١٨٦٩ ، وألغيت سنة ١٨٧١ .

٣ – فرقة عمليات المرور أسست سنة ١٨٧٠ وألغيت سنة ١٨٧٢ ، وفرقة أخرى أسست سنة ١٨٦٨ وألغيت سنة ١٨٧٢ .

المدارس الخصوصية

وأنشأ من المدارس الخصوصية :

١ – مدرسة المساحة والمحاسبة ، أسست سنة ١٨٦٨ ، وتولى نظارتها نظار مدرسة المهندسخانة .

٢ – مدرسة اللسان المصرى القديم (اللغة الهيروغليفية) أسست سنة ١٨٦٩ وتولى نظارتها المسيو بروكش (باشا) Brugscs العالم الألمانى فى الآثار المصرية وألغيت سنة ١٨٧٦ .

وأشهر من نبغ من خريجى هذه المدرسة العالم الأثرى الكبير أحمد كمال باشا .

٣ – فرقة الرسم بالمدارس الملكية أسست سنة ١٨٦٩ وألغيت سنة ١٨٧٩ .

٤ – مدرسة الزراعة أسست سنة ١٨٦٧ وألغيت سنة ١٨٧٥ .

٥ – مدرسة العميان والخرس ، للبنين والبنات ، أسست سنة ١٨٧٥ ، وتولى نظارتها محمد أنسى بك نجل عبد الله أبو السعود أفندى .

المدارس الثانوية

وأنشأ من المدارس الثانوية :

١ – المدرسة التجهيزية بالعباسية أسست سنة ١٨٦٣ ، ثم نقلت إلى درب الجماميز سنة ١٨٦٨ ، وعرفت بالخديوية .

٢ – مدرسة رأس التين بالإسكندرية ، أسست سنة ١٨٦٣ .

المدارس الابتدائية

قلنا إن معظم المدارس الابتدائية التى أنشأها محمد على قد ألغيت فى أواخر عهده ، ولم يجدد بدلها فى عهد عباس وسعيد ، فبذل إسماعيل جهوداً كبيرة فى إنشاء المدارس الابتدائية فى القاهرة وفى مختلف العواصم .

ويرجع الفضل فى إنشاء هذه المدارس إلى شريف باشا ، ثم إلى على باشا مبارك ، الذى فكر فى تحويل التعليم فى الكتاتيب إلى التعليم الابتدائى النظامى ، وكان عدد الكتاتيب وقتئذ نحو خمسة آلاف كتاب .

وهاك بيان ما أنشأه إسماعيل من المدارس الابتدائية :

مدرسة المبتديان بالعباسية أنشئت سنة ١٨٦٣ ثم نقلت إلى الناصرية ثم إلى المنيرة

مدرسة رأس التين الابتدائية بالإسكندرية أسست سنة ١٨٦٣

مدرسة طنطا (بينها)	أسست سنة ١٨٦٨
مدرسة أسيوط	أسست سنة ١٨٦٨
مدرسة بنى سويف	أسست سنة ١٨٧٢
مدرسة المنيا	أسست سنة ١٨٧٣
مدرسة القربية	أسست سنة ١٨٧٢
مدرسة الجمالية	أسست سنة ١٨٧٣
مدرسة الحسينية	أسست سنة ١٨٧٩
مدرسة باب الشعرية	أسست سنة ١٨٧٤
مدرسة عابدين	أسست سنة ١٨٧٩
مدرسة مصر القديمة	أسست سنة ١٨٧٩
مدرسة أبو العلا ببولاق (عباس)	أسست سنة ١٨٧٢
مدرسة السيدة زينب (محمد على)	أسست سنة ١٨٧٢
مدرسة شيخون	أسست سنة ١٨٧٣

مدرسة العقادين	أسست سنة ١٨٧٢
مدرسة النحاسين	أسست سنة ١٨٧٢
مدرسة الإمام الشافعى	أسست سنة ١٨٧٩
مدرسة الحبانية	أسست سنة ١٨٧٢
مدرسة رشيد	أسست سنة ١٨٧٦
مدرسة الفشن	أسست سنة ١٨٧٩

ويضاف إلى هذه المدارس مدرسة (الصليبة) ، وقد كانت مكتباً أنشأته والدة عباس باشا الأول ، وضم إلى المدارس الابتدائية سنة ١٨٧٢ ، ومدرسة قلاوون ، والشيخ صالح للبنين ، ومدرسة محمد بك سيد أحمد ، ومدرسة حافظ باشا بالإسكندرية ، ومدرسة البوصيرى ، ومدرسة راتب باشا بالإسكندرية أيضاً .

ومدرسة (خليل أغا) ، أنشأها كبير أغاوات والدة إسماعيل ، قرب المسجد الحسينى بالقاهرة ، ثم انتقلت أخيراً إلى شارع الأمير فاروق .

ومدرسة القبة التى أنشأها الأمير محمد توفيق باشا ولى العهد على نفقته الخاصة .

الحفلات المدرسية

كان الخديو إسماعيل شديد الميل إلى إقامة الحفلات المدرسية التى تختم بها الامتحانات العامة فى المدارس على اختلاف درجاتها ، وكان لهذه الحفلات مظهر فخم فى ذلك العصر ، إذ كان يحضرها كبار رجال الدولة ، وتوزع فيها الجوائز والمكافآت على المتقدمين من الناجحين ويلقى فيها الأساتذة ونوابغ الطلبة الخطب والقصائد ، فكانت هذه الحفلات من عوامل النهضة العلمية ، ويدلك على مبلغ عناية الحكومة بها أن (الوقائع المصرية) وهى الجريدة الرسمية للحكومة كانت تعنى بوصف كل حفلة مدرسية وتنشر كل ما يلقى فيها من الخطب والقصائد ، تسجيلا لها ، وتعظيما لقائليها ، ونجد فى (الوقائع المصرية) بيانات مستفيضة عن هذه الحفلات وأسماء من يحضرونها من رجال الدولة وأعلام الأدب والعلم فى ذلك العصر ، وأسماء الأساتذة والطلبة الذين يخطبون فيها .

الأزهـر

ظل الأزهر الجامعة الإسلامية التى تدرس فيها علوم الدين والفقه واللغة ، وكان التعليم فيه يتبع الأساليب القديمة التى درج عليها من سالف العصور .

وقد بدأت روح الإصلاح والتقدم تتمشى فيه من عهد ولاية الشيخ محمد العباسى المهدى مشيخته سنة ١٨٧١ .

وباكورة الإصلاح فيه إنشاء نظام الامتحانات لتخريج العلماء والمدرسين سنة ١٨٧٢ فقد كان التدريس فى الأزهر خلوًا من القيود ، فوضع الشيخ العباسى نظامًا لامتحان العلماء ، وألف لهذا الغرض لجنة برآسته مؤلفة من ستة من كبار العلماء اثنان من الشافعية وهما الشيخ خليفة الصفتى ، والشيخ أحمد شرف الدين المرصفى ، واثنان من المالكية وهما الشيخ أحمد الرفاعى والشيخ أحمد الجيزاوى ، واثنان من الحنفية ، وهما الشيخ عبد الرحمن البحراوى ، والشيخ عبد القادر الرافعى .

ومهمة هذه اللجنة امتحان المرشحين للعالمية فى مختلف العلوم وإعطاء الناجحين منهم إجازة العالمية ، وكان تأليف هذه اللجنة أساس النظام الجديد فى الأزهر .

وجاء السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر سنة ١٨٧١ ، فنفخ فى الأزهر روح النهضة ، وغرس بذور التقدم الفكرى والعلمى ، وقد بدت ثمارها بظهور المدرسة الحديثة التى حمل لواءها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى الأزهر وخارج الأزهر .

البعثات

أعاد إسماعيل عهد البعثات التى ازدان بها عصر محمد على من قبل ، وأخذ يوفد الطلبة إلى مدارس أوروبا منذ سنة ١٨٦٣ ، وبلغ عددهم مدة حكمه ١٧٢ طالب ، وهو كما ترى أقل من عدد البعثات فى عصر محمد على .

وأنشأ مدرسة لأعضاء البعثة فى باريس بدل المدرسة التى أنشأها محمد على لهذا الغرض

وأقفلت فى أواخر عهده كما بيناه « عصر محمد على » (٤٥٢) ، لكن المدرسة التى أنشأها إسماعيل أقفلت بعد نشوب الحرب السبعينية .

مدرس الأقباط الأرثوذكس

ونشط الأقباط إلى إنشاء المدارس لتعليم أبنائهم ، ويرجع معظم الفضل فى هذه النهضة إلى جهود الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الأقباط الأرثوذكس .

فصار لهم فى عهد إسماعيل نحو ١٢ مدرسة بالقاهرة ، أهمها المدرسة البطريركية الكبرى ، ومدرسة مصر القديمة ، وأخرى بالجيزة . ومدرستان بالإسكندرية ومدرسة إكليركية لتعليم اللاهوت واللغات القبطية والطقوس الدينية ، ونشطوا إلى تعليم البنات فأنشأوا لذلك مدرستين ، واحدة بحارة السقايين ، وأخرى بالأزبكية .

وقد منح إسماعيل مدارس الأقباط مساعدات جمة أهمها أنه وهبها ١٥٠٠ فدان من أجود أطيان القطر ، ليخصص ريعها على التعليم فيها ، فكان هذا الريع يفى بمعظم ما ينفق على هذه المدارس .

المدارس الأوروبية

كثر عدد المدارس الأوروبية التى فتحتها البعثات الدينية للبنين والبنات ، فبلغ عددها فى عهد إسماعيل ٧٠ مدرسة[٥] ، ولم تنتشر فى أى عهد بمثل ما كثرت فى عهده .

وقد خرجت عدداً كبيراً من رجال الأعمال والمهن وموظفى الحكومة ، وخاصة موظفى البريد والسكك الحديدية والمحال التجارية والبنوك وتراجمة القنصليات والمحاكم المختلطة ، ونال كثير منهم الحمايات الأجنبية بواسطة القناصل ، فصاروا فى حكم الأجانب فى انتمائهم للدول الأجنبية ، وميولهم إليها ، وعدم خضوعهم للنظم الأهلية القضائية والإدارية .

---

(٥) كتاب إحصاء مصر سنة ١٨٧٣ ص ٢٥٧

وزارة المعارف

قلنا إن إسماعيل أعاد ديوان المدارس (وزارة المعارف) بعد أن ألغى فى عهد سعيد .

ولما تقدمت نهضة التعليم خصص لوزارة المعارف سراى الأمير فاضل بدرب الجماميز ، وهى سراى فخمة وَسِعَتْ ديوان المدارس وبعض المعاهد العلمية ، كمدرسة المهندسخانة ومدرسة الحقوق ، ومدرسة المساحة والمحاسبة ، والمدرسة التجهيزية ، ودار الكتب . ومعمل الطبيعة والكيمياء ، ومدرج المحاضرات (الانفتياترو) ، فصارت بمنزلة الجامعة المصرية ، وكان اختيار هذه السراى إجابة لاقتراح العلامة على باشا مبارك حينما ولى وزارة المعارف .

وتعاقب على وزارة المعارف فى عهد إسماعيل الوزراء الآتية أسماؤهم :

إبراهيم أدهم باشا (يناير -- يوليه سنة ١٨٦٣) . شريف باشا (يوليه سنة ١٨٦٣ – أبريل سنة ١٨٦٨) . على مبارك باشا (ابريل سنة ١٨٦٨ -- سبتمبر ١٨٧٠) . مصطفى بهجت باشا (سبتمبر سنة ١٨٧٠ – مايو سنة ١٨٧١) . على مبارك باشا (مايو سنة ١٨٧١ -- أغسطس سنة ١٨٧٢) . الأمير حسين كامل باشا (أغسطس سنة ١٨٧٢ -- أغسطس سنة ١٨٧٣) . مصطفى رياض باشا (أغسطس سنة ١٨٧٣ -- مايو سنة ١٨٧٤) . محمد ثابت باشا (مايو سنة ١٨٧٤ – سبتمبر سنة ١٨٧٤) . الأمير طوسون باشا (سبتمبر سنة ١٨٧٤ -- أغسطس سنة ١٨٧٥) . يحيى منصور باشا (سبتمبر سنة ١٨٧٥ -- يونيه سنة ١٨٧٦) . مصطفى رياض باشا (يونيه سنة ١٨٧٦ – أكتوبر سنة ١٨٧٧) . إسماعيل باشا أيوب (أكتوبر سنة ١٨٧٧ -- أغسطس سنة ١٨٧٨) . على باشا مبارك (أغسطس سنة ١٨٧٨ – ابريل سنة ١٨٧٩) . محمد ثابت باشا (ابريل سنة ١٨٧٩ -- يوليه سنة ١٨٧٩) .

ميزانية التعليم

كان إسماعيل ينفق بسخاء على التعليم ، فقد كانت ميزانية المعارف فى عهد سعيد لا تتجاوز ستة آلاف جنيه[٦] ، فزادها إسماعيل إلى أربعين ألفًا ، ثم بلغت كما ذكر على باشا مبارك[٧]

(٦) إدوين دى ليون مصر الخديو ص ١٦٢

(٧) الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٩



على باشا مبارك

زعيم نهضة العلم والتعليم فى عصر إسماعيل

(١٨٢٤ - ١٨٩٣)

٧٥.٠٠٠ جنيه ، منها ٤٨.٠٠٠ من وزارة المالية (الميزانية العامة) و ٢٠.٠٠٠ من إيراد تفتيش الوادى ، و ٧.٠٠٠ من ديوان الأوقاف ، وكان التعليم فى معظم المدارس مجانياً .

ثم نقصت ميزانية وزارة المعارف فى أواخر عهد إسماعيل بسبب الارتباكات المالية التى سببتها قروضه ، فهبطت إلى ٢٠.٠٠٠ جنيه .

على باشا مبارك

زعيم نهضة العلم والتعليم فى عصر إسماعيل

(١٨٢٤ – ١٨٩٣)

إن الحديث عن تقدم التعليم فى عهد إسماعيل يستتبع الكلام عن العلامة على باشا مبارك ، فإن اسمه مقرون بهذه النهضة المباركة .

فى تاريخنا القومى شخصيات مجيدة ، تعد أركاناً للنهضة القومية ، لما لها من الأثر البالغ فى تطورها ، وتوجيها إلى المثل العليا فى شتى مظاهرها ، من الناحية الأخلاقية والوطنية ، أو العلمية والأدبية ، أو الاقتصادية والاجتماعية .

ومن واجب الوفاء لهذه الشخصيات أن نذكرها دائماً بالخير ، ونخصص لها ما هى جديرة به من البحث والدرس ، ولا غرو فالشخصيات المجيدة فى تاريخ مصر هى كالكواكب النيرة فى سماء النهضة القومية .

وقد بذلنا ما استطعنا من جهد لدراسة تلك الشخصيات فى الأجزاء الثلاثة السابقة من تاريخ الحركة القومية ، كلما عرضت المناسبة للكلام عنها ، وهنا ، لمناسبة التعليم والنهضة العلمية فى عصر إسماعيل ، نرى حقًّا علينا أن نفى ببعض هذا الواجب نحو العلامة على باشا مبارك ، فهو عماد هذه النهضة ، وقلبها النابض ، ورأسها المدبر ، وهو من الشخصيات الفذة التى سطعت سطوعاً قويًّا فى عهد إسماعيل ، ويعد تاريخه قطعة من هذا العصر ، والعصور التى تلته ، إلى عصرنا الحاضر ، وإلى ما شاء الله .

نشأته الأولى (٨)

ولد المترجم فى برنبال الجديدة ، من أعمال مركز دكرنس بمديرية الدقهلية سنة ١٨٢٤م (١٢٣٩ هـ) ، أبوه الشيخ مبارك بن سليمان بن إبراهيم الروجى من أهالى هذه الناحية ، وجده الأعلى من ناحية كوم بنى مراس والخليج على بحر طناح ـ من أعمال مركز المنصورة ، « ولفشل كبير حصل فى هذا البلد تشتتت عائلته ، فأقام جده الأكبر إبراهيم الروجى فى برنبال الجديدة ، ونال فيها مكانة عالية ، فكان إمامها وخطيبها وقاضيها ، وبقيت هذه المكانة فى نسله ، حتى عرفت عائلتهم بعائلة المشايخ » .

ولاضطهاد وقع بأهل برنبال وإرهاقهم بالضرائب الثقيلة هاجرت عائلة مبارك ، وتفرقت فى البلاد ، فنزل والد المترجم بعزبة الحماديين من بلاد الشرقية (بمركز فاقوس الآن) ، وكان ابنه لم يبلغ السادسة من عمره ، ولم تطب لهم الإقامة فى هذه البلدة ، إذ لم يلقوا فيها إكراماً ، فارتحلوا منها إلى عرب السماعنة بالشرقية ، فأحسنوا وفادة والد المترجم ، وأكرموا مثواه ، ولم يكن فى بلدتهم فقهاء ، فجعلوه مرجعهم فى الأحكام الدينية ، وبنوا مسجداً جعلوه إمامه ، ولما بدأ يستريح من الشدائد التى عاناها قبل أن يهبط هذا البلد ، أخذ يعنى بتهذيب ابنه وتعليمه ، وكان المترجم قبل رحيله من برنبال ، قد بدأ يتعلم القراءة والكتابة على يد رجل ضرير من أهلها ، فلما استقر بأبيه المقام بين عرب السماعنة ، أخذ يعلمه بنفسه ، ثم أسلمه إلى فقيه اسمه الشيخ أحمد أبو خضر ، أصله من ناحية الكردى (وهى بلدة قريبة من برنبال) ، ثم ارتحل إلى قرية صغيرة على مقربة من مساكن أولئك العرب ، وهناك حفظ المترجم على يده القرآن فى سنتين .

وكان الشيخ يقسو فى معاملته ويضربه ـ كما هى عادة الفقهاء والمعلمين مع تلاميذهم فى ذلك العصر ، فامتنع عن متابعة القراءة عليه ، وأبى أن يذهب إليه ، وجعل يقرأ عند أبيه ، لكن أباه كان لا يستطيع التفرغ لتعليمه ، لكثرة مشاغله ، فتراخى المترجم فى الحفظ والدرس ـ وكاد ينسى ما حفظه ، فهمّ أبوه أن يجبره على الرجوع إلى الفقيه ، لكنه أبى أن

---

(٨) اعتمدنا فى بيان معظم « الوقائع » على ما استخلصناه من ترجمة على باشا مبارك لنفسه فى الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٣٩ .

يعود إليه ، وحدثته نفسه بالهرب ، لما كان يجده من سوء المعاملة ، فتدخل أخوته فى الأمر ، فأبدى لهم نفوره من الحفظ ، وأعرض عن أن يكون « فقيهاً » ورغب أن يكون « كاتباً » لما كان يراه على الكتاب من حسن الهيئة والقربى من الحكام .

وكان لأبيه صديق كاتب بناحية (الإخيوة) ، فأسلمه إليه ليتعلم الكتابة على يديه ، فلازمه فى داره يتعلم عنه ، ولكنه رأى منه قسوة وغلظة ، وناله منه أذى شديد ، إذ سأله يوماً عن الواحد فأجابه باثنين ، فضربه بمقلاة بن ، فشج رأسه ، وكان ذلك على ملأ من الناس ، فشكاه إلى أبيه ، فلم يحفل بشكايته ، فهرب ، وانتهى به المطاف إلى العودة وحيداً إلى برنبال ، وهناك وافاه أخوه الذى كان يبحث عنه ، فأعاده إلى أبيه ، وقد حار فى معالجته وتعليمه ، وأبدى المترجم نفوراً من الرجوع إلى الكاتب أو الفقيه ، لما رأى منهما من الإيذاء والضرب .

فارتأى أبوه أن يعهد به إلى صديق له من كتبة المساحين ، فرضى بذلك . ولازمه ثلاثة أشهر ، ثم انفصل عنه ، وبقى فى بيت أبيه يقرأ عليه ، وبعد سنة جعله مساعداً لكاتب فى مأمورية أبى كبير ، بمرتب قدره خمسون قرشاً ، ولكن الكاتب لم ينقده أجره ، إلى أن تسلم يوماً حاصل الجباية من أبى كبير ، فأخذ منه راتبه المتأخر ، فنقم منه الكاتب وأغرى به مأمور أبى كبير ، واتفق وإياه على تجنيده ، فاستدعاه المأمور واعتقله ، ووضع الغل فى عنقه ولبث فى السجن بضعة وعشرون يوماً ، قاسى فيها مر الشدائد والآلام ، ولما علم أبوه بسجنه رفع ظلامته إلى محمد على باشا عزيز مصر ، وكان إذ ذاك فى منيا القمح ، فكتب باخلاء سبيله ، وإطلاق سراحه ، وعاد أبوه بالأمر ليطلب من المأمور تنفيذه ، وقبل أن يحضر جاء السجن صديق للسجان ، وأفضى إليه أن مأمور زراعة القطن بناحية أبى كبير فى حاجة إلى كاتب ، فدله السجان على المترجم ووصفه له بالنجابة ، وحسن الخط ، وبعد قليل جاء أمر الإفراج ، وذهب إلى مأمور الزراعة ، وكان أسود حبشياً يدعى (عنبر أفندى) فاتخذه كاتباً عنده مقابل جراية يومية من الخبز ، وخمسة وسبعين قرشا فى الشهر ، فارتضى هذا العمل ، وكانت سماحة أخلاق عنبر أفندى وطيبته مما رغب إليه البقاء فى هذه الوظيفة .

ما يؤخذ من نشأته الأولى

إلى هنا ليس فى نشأة المترجم الأولى شىء مما يلفت النظر ، لكنها تصلح أن تكون صورة

مصغرة للحياة الاجتماعية فى ذلك العصر.

فانتقال عائلة المترجم من بلد إلى بلد ، من كوم بنى مراس على بحر طناح ، إلى برنبال باقصى الدقهلية شمالاً ، ثم إلى السماعنة بالشرقية ، كان نتيجة سوء معاملة الحكام للأهلين فى ذلك العصر ، وإرهاقهم بالضرائب الجائرة ، مما اضطر تلك العائلة ، وكثيراً مثلها ، إلى الرحيل فراراً من المطالب التى لم يستطيعوا أداءها ، بعد أن تجردوا من ماشيتهم ومتاعهم ، وتشدد الحكام فى استخلاصها بالسجن والضرب ، فلم يجدوا مخلصاً من هذه المظالم سوى الهجرة من موطنهم ، وهذا يعطينا صورة من مظالم الحكام فى ذلك العهد ، إذ لم يكن ثمة قانون يمنع ظلم القوى عن الضعيف ، ويحول دون اعتداء الحاكم على المحكوم ، ولا ضرائب منتظمة معلومة المقدار ، يعرف كل إنسان حدود ما عليه منها ، بل كانت متروكة لأهواء الحكام والرؤساء ، فلا جرم أن استهدف آل المترجم للتجرد من متاعهم وماشيتهم ، ثم إلى السجن والضرب ، ثم إلى الهجرة والتنقل من بلد إلى بلد. فراراً من المظالم.

وهذه النشأة تعطينا من جهة أخرى صورة لما كانت عليه حالة التعليم قبل أن يألف الناس المدارس الحديثة ، فإن فكرة تعليم الأبناء كانت موجودة عند الآباء الذين نالوا حظًّا من العلم ، يدلك على ذلك ميل والد المترجم إلى تعليم ابنه قدر ما يستطيع ، لكن طريقة التعليم كانت رديئة . لا تثمر فى تنمية الفكر وتهذيب النفس ، ففقيه القرية وكاتب الإخبوه ، وأمثالها من الفقهاء والعرفاء ، كانوا من الجهل والقسوة بحيث لا ينتج التعليم على أيديهم سوى الجهالة ، وبث روح الخوف والجبن فى أخلاق الشباب ، لأن القسوة والضرب يقتلان فى نفس التلميذ روح الشجاعة والأخلاق الفاضلة.

وليس فى نشأة المترجم الأولى حالة غير عادية تجعل منه رجلا يختلف عن معاصريه ، ولكن أمراً واحداً يلفت النظر ، ذلك هو نفوره من الذل ، ومجافاته قسوة المعلم ، فقيهاً كان أو كاتبًا ، أفلا تراه يؤثر الهجرة على احتمال القهر والضرب ؟ ثم ألا تراه كأنما يتقدم عصره ويبذ معاصريه ، فيتطلع إلى أسلوب فى التعليم أرقى من الأسلوب العتيق الذى كان مألوفًا فى عصره ؟

إن هذه ظاهرة تدل على أن نفس الفتى الصغير ، تأبى الذل ولا تقيم على الضيم ، وذلك ينبىء عن سمو الخلق ، لأن إباء الذل يدل على نفس عزيزة ، وعزة النفس تجمع حولها سمطاً من الأخلاق الكريمة ، ولا مراء فى أن تلك النفس العزيزة كانت من أسباب نبوغ المترجم .

فلو هو رضى بالذل والهوان ، لاستمر فى طريقه ، ولم يتجاوز أن يصير كاتباً صغيراً ، مرءوساً لمثل عنبر أفندى ، ولكن انظر إلى ما حدثته به نفسه — وهو يشغل هذه الوظيفة — تجد نفساً متوثبة كانت تختلج بين جوانح المترجم .

فقد روى عن نفسه أنه لما اشتغل كاتباً لعنبر أفندى رأى منه رأفة ، وشفقة وحسن معاملة ، تختلف عما لقيه من كاتب أبى كبير ، لكنه شعر بأن لو كان عنبر أفندى على غرار ذلك الكاتب ، لما وجد من ينقذه من قسوته وسوء معاملته ، ومن ثم اتجهت نفسه إلى أن يكون « بحالة لا ذل فيها ولا تخشى غوائلها » كما يقول المترجم .

فهذا الشعور ، هو فيض النفس العزيزة التى تأبى الهوان ، وتطمح إلى المعالى ، وهو شعور كريم ، كان له أثره فى حياة على مبارك .

وإن سمو هذا الشعور ليدعونا فى إعجاب ، أن نتساءل من أين اقتبسه ؟ وكيف اختص به دون أقرانه فى القرية ؟ إن هذا هو سر نبوغ العظماء ، لا تجد له تعليلاً دقيقاً ، فإذا عللته بتأثير البيئة أو الوراثة ، اعترضك فى هذا أن النابغة قد ينشأ وغيره من الناس فى بيئة واحدة ، ومن أب واحد . وأم واحدة ، ومع ذلك يتفرد بالنبوغ دون أقرانه وأخوته .

قد يكون السر فى النبوغ هو الاستعداد الفطرى للنبوغ ، يولد مع صاحبه ، أو هو الإلهام الذى يودعه الله نفس النابغة ، أو هو التوفيق والعناية الإلهية . لك أن تفسره بمعنى من هذه المعانى ، أو بها كلها مجتمعة ، ولكن علينا أن نحسب حساباً لتأثير الوسط والوراثة ، فلا شك أن على مبارك قد اقتبس شيئاً من أخلاق أبيه ، فقد كان جده الأكبر رجلا « معظماً مكرماً » ، نزل بلدة برنبال ، ولم يكن من أهلها ، فصار إمامها وخطيبها وقاضيها ، وبعد وفاته بقيت هذه الوظيفة فى نسله ، طبقة بعد طبقة ، فلو لم يكونوا على أخلاق فاضلة ، ونفوس طيبة ، لما احتفظوا بهذه المنزلة ، حتى صارت عائلتهم تعرف بعائلة « المشايخ » .

وكذلك لما هجر أبو المترجم ناحية برنبال ، وورد قرية السماعنة ، احتفظ بعزة النفس ، ونال من أهل تلك القرية مكانة ممتازة ، أدركها بعلمه وفضله ، وإنك لتلمح عزة نفسه من كونه لم يطق صبراً على اعتقال ابنه ، وذهب إلى منيا القمح ، حيث كان عزيز مصر « محمد على باشا » ، ورفع إليه ظلامته ، وشكا إليه ما حاق بابنه من السجن ، فالشكوى من الظلم ، واستصراخ ولىّ الأمر ، من الأمور التى تحتاج (فى ذلك العصر) إلى شىء من الجرأة والشجاعة ، فكم من المظالم كانت ترتكب ، ويستسلم لها المظلومون ، وإذا حدثتهم أنفسهم

بالشكوى منها ، فقلما تحفزهم الشجاعة إلى إبلاغها لأكبر رأس فى الحكومة .

فأغلب الظن أن المترجم اقتبس عن أبيه تلك النفس العزيزة ، وهذا فضل يجب أن نسجله لوالد المترجم ، الشيخ مبارك بن مبارك بن سليمان بن إبراهيم الروجى .

نشأته الثانية فى المدارس النظامية

إن طموح نفس على مبارك إلى المعالى هو الذى سلك به سبيل المدارس النظامية ، ذلك أنه حينما اشتغل كاتباً عند عنبر أفندى ، أخذ يسأل فراش المأمور عن أخبار سيده وأسباب بلوغه هذا المركز الممتاز فى الحكومة ، وكان يدهشه أن عنبر أفندى ، وهو أسود حبشى ، يصل إلى هذا المنصب ، حين كان يعتقد « أن الحكام لا يكونون إلا من الأتراك على حسب ما جرت به العادة فى تلك الأزمان » ، فعلم من الفراش عن سبب ارتقائه أنه كان مشترى سيدة من ذوات المكانة والجاه ، فأدخلته مدرسة « قصر العينى » إحدى المدارس النظامية التى أنشأها محمد على باشا ، فتعلم فيها وتخرج منها ، وصار أهلاً للمركز الذى يشغله ، وعلم أن الحكام يؤخذون من خريجى هذه المدارس .

فلما استمع المترجم لهذا الحديث ، مالت نفسه إلى دخول تلك المدارس ، ليصل إلى ما وصل وإليه عنبر أفندى ، وأخذ من تلقاء نفسه يسأل عن السبيل إلى دخول المدارس النظامية ، وسأل الفراش · هل يدخلها أحد من « الفلاحين » ؟ فقال يدخلها « صاحب الواسطة » فتعلقت نفسه بالسعى لدخولها . واعتزم ترك العمل الذى كان يشتغل به ، والذهاب إلى مصر ليلتحق بمدرسة قصر العينى .

دخوله مدرسة ميت العز

وما خالجه هذا العزم حتى أصر على إنفاذه ، دون أن يكاشف أحداً ، فطلب الإذن من رئيسه بإجازة يقضيها فى زيارة أهله ، فأذن له بخمسة عشر يوماً ، وسافر إلى وجهته ، وفيما هو يسير فى طريقه مر بقرية بنى عياض[٩] ، والتقى بجماعة من الأطفال ، يتبعون رجلا خياطا ، وكل منهم يحمل دواة وقلماً ، فاجتمع بهم تحت شجرة ، وتعرف حالتهم ، فإذا هم تلاميذ

(٩) بمركز ههيا الآن : قبل أبى كبير بشرق

مكتب ميت العز ، أحد المكاتب التى أسسها محمد على باشا ، وكان ذلك فألا حسناً للمترجم ، كما يقول عن نفسه ، إذ أنه اجتمع بالأطفال ورأى الخياط خطه أجود من خطوطهم ، رغب إليه أن يدخل مكتب ميت العز ، وأفهمه أن نجباء المكاتب ينتقلون إلى المدارس دون واسطة ، فابتهج المترجم لهذه الفكرة ، إذ وجد فيها بغيته التى ينشدها ، ولم يكن أحب إلى نفسه من أن يسلك سبيل الدخول إلى المدارس ، ويجتاز تلك العقبة التى أشار إليها فراش المأمور فى حديثه له ، وهى « الواسطة لدخول المدارس » ، ورأى أن الاجتهاد فى المكتب سيغنيه عن تلك الواسطة التى قد لا يجدها .

دخل المترجم مكتب ميت العز ، وناظره من معارف أبيه ، وكان يعلم أن دخول ابنه المكتب لا يرضيه ، فأراد أن يصرفه عن دخوله ، ولكنه رأى منه إصراراً على عزمه ، فبقى بالمكتب خمسة عشر يوما ، وأرسل الناظر ولى أبيه ، فجاء يسعى لإرجاعه عن عزمه ، فأبى ، فلجأ ولى حيلة ينتزعه بها من المدرسة ، فاتفق مع الناظر على أن ينتهز الفرصة فى خروج ابنه وإلى الفسحة وقت الظهر ، فاختطفه وعاد به قسراً إلى بلده ، وحبسه فى البيت عشرة أيام ، وأخذت أمه تبكى وتستعطفه ليرجع عن عزمه ، كى يبقى بينهم ولا يفارقهم ، فوعدها بالبقاء ، ولكنه أسر فى نفسه أن يغتنم أقرب فرصة لفراق أهله وذويه ، والرحيل فى طلب العلم ، وانتظر حتى أطمأنوا ولى عدوله عن فكرته ، ولما كانت إحدى الليالى تربص حتى ناموا جميعاً ، وأخذ دواته وأدواته ، وخرج من البيت خائفاً يترقب ، وتوجه تلقاء ميت العز ، وكان ذلك – كما يقول المترجم – آخر عهده بسكناه بين أبويه ، وكانت ليلة مقمرة ، فمشى حتى بلغ ميت العز ضحى الغد ، ولم يشعر الناظر إلا وهو داخل المكتب مع زملائه التلاميذ ، وكأنما خشى أن يجىء أبوه ويحتال عليه لاختطافه ثانية ، فلزم المكتب ، لا يخرج منه ليلا ولا نهاراً ، وجاء أبوه غير مرة ليقنعه بالعدول عن عزمه ، ويأخذه بالحسنى ، فلم ينجح فى مسعاه ، واستمر الغلام ملازماً المكتب ، مكباً على الدرس والتحصيل .

انتقاله إلى مدرسة (قصر العينى)

بقى المترجم فى مكتب ميت العز إلى أن جاء ناظر مدرسة الخانكة (عصمت أفندى) لاختيار نجباء التلاميذ من المكتب المذكور ليلتحقوا بمدرسة قصر العينى ، فكان التلميذ على مبارك ممن وقع عليهم الاختيار ، فجاء أبوه يحاول من جديد صرفه عن الذهاب إلى المدرسة ،

وشكا أمره إلى عصمت أفندى ، فأحاله على ابنه ، وقال إن الخيار له ، فخيروه بين العودة مع أبيه أو الالتحاق بالمدارس ، فاختار المدارس ، فبكى والده بكاء كثيراً وأغرى به جماعة من المعلمين ليستميلوه ، فلم يصغ لهم ، ودخل مدرسة قصر العينى سنة ١٨٣٦ ، وكان لا يتجاوز يومئذ الثانية عشرة من عمره.

وهنا تبدو ظاهرة جديدة فى شخصية المترجم ، إلى جانب ما ذكرناه عن عزة نفسه ، وطموحه إلى المعالى ، وهى ميله الفطرى إلى العلم ، وشغفه بالارتواء من منهله العذب ، وما فطر عليه من قوة الإرادة ، ومضاء العزيمة .

فانظر إلى مبلغ حبه للعلم ، والتعلم ، تجده يسعى جهده للالتحاق بالمدارس ، رغم إرادة والديه ، وليس من المألوف بين الأطفال والشبان أن يقبلوا على العلم بوازع من أنفسهم ، بل آباؤهم هم الذين يدفعونهم إلى دخول المدارس ويرغبونهم بمختلف الوسائل فى متابعة الدرس ، وكثيراً ما يتعب الآباء فى إيلاف أبنائهم المدرسة والإقبال عليها .

فالغلام الذى يتعلق بدخول المدارس رغم إرادة أبويه ، ويستهدف لغضبهما فى هذا السبيل ، لابد أن يكون قد رسخ فى نفسه شغف شديد بالعلم والتعلم .

وتتجلى أيضاً قوة عزيمة المترجم ، فى إصراره على دخول المدارس ، رغم تلك العقبات التى اعترضته ، فمن إغضاب والديه ، إلى بعد الشقة ، ووعورة الطريق ، إلى قلة ذات يده ، إلى صغر سنه ، إلى المغامرة بنفسه فى حياة يجهلها ولا يعرف مصيرها ، كل ذلك يدل على حظ عظيم من صدق العزيمة وقوة الإرادة .

فعزة النفس ، والطموح إلى المعالى ، وحب العلم ، وقوة الإرادة ، هذه هى الصفات التى تطالعنا بها شخصية على مبارك وهو بعد فى سن الطفولة والمراهقة .

وسنرى كيف لازمته هذه الصفات فى كل أدوار حياته ، فكان لها ذلك الأثر العظيم فى أعماله .

التعلم فى مدرسة قصر العينى

لم تكن مدرسة الطب قد نقلت بعد إلى قصر العينى ، حينما جاء مصر على مبارك ، بل كانت لم تزل بأبى زعبل ، أما المدرسة التى كانت بقصر العينى وقتئذ (سنة ١٨٣٦) فهى مدرسة إعدادية للمدارس الحربية والعالية .

وصف المترجم التعليم فى تلك المدرسة ، ويؤخذ من وصفه أنه لم يكن على درجة حسنة من التقدم ، لا من جهة مستوى التعليم فى ذاته ، ولا من جهة معاملة التلاميذ ، فقد ذكر أنه وجد المدارس على خلاف ماكان يظن ، وأن مدرسيها ورؤساءها كانوا لا يحسنون فهم وظائفهم ، ولا يعنون بالتلاميذ ، وكان التعليم العسكرى موضع العناية فيها ، فيتمرن الطلبة على الحركات الحربية فى معظم الأوقات ، فى الصباح ، والظهر ، وبعد الأكل ، وفى أماكن النوم ، وكان الضرب وأنواع الإيذاء من الأمور المألوفة فى التعليم ، وكذلك قلة العناية بمأكل التلاميذ ومسكنهم ، فكانت مفروشاتهم حصر الحلفاء ، وأحرمه الصوف الغليظ من صنع معمل بولاق ، ولم يكن الأكل الجارى للتلاميذ سائغاً ، فاستعاض عنه على مبارك بالجبن والزيتون .

وقد اعتراه فى المدرسة مرض ، لما اجتمع عليه من الأفكار والهموم وتغيير الطقس ، فنقل إلى مستشفى المدرسة ، ولقى فى مرضه الشدائد والآلام ، ولحقه الجوع بالمستشفى ، وفيما كان على فراش المرض . جاء أبوه إلى قصر العينى ، واتصل به بواسطة أحد الممرضين ، ورغب إليه أن يعود معه إلى بلده ، فمالت نفسه لإجابته ، وهمّ بترك المدارس ، لما لقيه فيها من التعب والنصب ، ولعدم وجدانه التعليم الذى ينشده ، ولكنه خشى عواقب الهرب من المدرسة ، إذ كانت الحكومة تتعقب الهاربين من التلاميذ ، وتعتقل أهليهم ، وتسىء معاملتهم . فخشى أن ينال أباه من عنت الحكومة ما لا يرضاه له ، فامتنع عن الهرب ، فعاد أبوه الكرة يستميله ويهوّن عليه الأمر ، فأبى واعتزم « الصبر على قضاء الله » ولما شفى انتقل من المستشفى إلى المدرسة ، واستأنف الدرس ، ولم يصب بمرض بعد ذلك أثناء دراسته .

انتقاله إلى مدرسة أبى زعبل

ولما نقلت مدرسة الطب إلى قصر العينى سنة ١٨٣٧ تحول تلاميذ القصر إلى أبى زعبل فانتقل إليها المترجم كسائر تلاميذ المدرسة .

وقد شعر بتقدم مستوى التعليم فى مدرسة أبى زعبل ، وينسب المترجم هذا التقدم إلى كفاءة ناظر المدرسة ، وهو المرحوم إبراهيم بك رأفت ، وحسن عنايته بتعليم النشء ، ومما ذكره فى هذا الصدد ، أنه كان فى بداءة عهده يجد صعوبة كبيرة فى تفهم فنون الهندسة

ىساب والنحو ، ويراها كالطلاسم ، وكلام المدرسين فيها كالسحر ، ولكن إبراهيم بك
ت أوضح للتلاميذ معانى الهندسة وقواعدها بأسلوب تقبله عقولهم ، فانفتح لحسن بيانه
ن المترجم ، وبدأ يعى ما يسمع من الدروس .
ولفت نجاح التلميذ على مبارك نظر رأفت بك ، فصار يضرب به المثل ، ويجعل نجاحه
يديه دليلا على تأثير أسلوب المدرس فى تثقيف أذهان التلاميذ .
وفى سنة ١٨٣٩ اختار ولاة الأمور نجباء مدرسة أبى زعبل لإلحاقهم بمدرسة المهندسخانة
ق ، فكان على مبارك ضمن هؤلاء .

دخوله مدرسة المهندسخانة

دخل مدرسة المهندسخانة ، وكان حينئذ يافعًا ، إذ بلغ السادسة عشرة من عمره ، فأخذ
ىجه العلمى يزداد وينمو ، ومكث خمس سنوات يتابع الدرس ، حتى استكمل جميع
م المدرسة ، وظهرت عليه مخايل الذكاء والتقدم منذ دخلها ، فكان دائمًا أول فرقته ،
اتذته فيها طائفة من علماء الرياضيات ، ممن علا ذكرهم فى فجر النهضة العلمية . أمثال :
ىد باشا الفلكى ، وطائل أفندى ، ومحمود بك أبو سن . ودقله أفندى ، وإبراهيم بك
ىان ، وأحمد بك فايد ـ وسلامه باشا إبراهيم . وناظر المدرسة المسيو لامبير بك أحد علماء
نسيس . ولهؤلاء الأساتذة فضل كبير على المترجم ، إذ تلقى على أيديهم العلوم الهندسية
ياضية ، ولم تكن ثمة كتب مؤلفة فى الفنون التى تولوا تدريسها ، بل كان المعلمون يملون ،
لاميذ يكتبون ما يسمعونه فى كراريس . كل على قدر اجتهاده ، وكان المعلمون كما شهد لهم
ت المترجم « يبذلون غاية جهدهم فى التعليم » ، وفى آخر عهده بمدرسة المهندسخانة أخذوا
ىون الكتب فى مطبعة الحجر ، فاستعان بها التلاميذ ، إلى أن تكاثر طبع الكتب المطولة فى
ىم والفنون الرياضية .

انتظامه فى سلك البعثات سنة ١٨٤٤

تعددت البعثات العلمية المدرسية فى عهد محمد على باشا ، وقد تكلمنا عنها تفصيلاً فى
ب « عصر محمد على » (ص ٤٥١ طبعة أولى) .
وتخرج من البعثات طائفة من النوابغ فى عصر محمد على ، واسماعيل ، ومن حسن توفيق

المترجم وحسن استعداده أن انتظم فى سلك البعثة الخامسة . وهى أكبر البعثات شأناً ، وفيها بعض أنجال محمد على وأحفاده ، ولذلك يسميها على باشا مبارك (بعثة الأنجال) .

تولى القائد سليمان باشا الفرنساوى اختيار أعضاء هذه البعثة من نوابغ طلبة المدارس العالية ، فكان التلميذ على مبارك ضمن من اختيروا لها من متقدمى مدرسة المهندسخانة ، وبلغ عددهم فى مبدئها ٧٠ تلميذاً ، منهم الأمير عبد الحليم ، والأمير حسين من أنجال محمد على ، والأمير أحمد رفعت ، والأمير إسماعيل (الخديو) من أنجال إبراهيم باشا ، وضمت طائفة ممن شغلوا المراكز الكبيرة فى الحكومة بعد عودتهم ، أمثال شريف باشا ، وعلى باشا مبارك ، وحماد عبد العاطى باشا ، وسليمان نجاتى بك وغيرهم[١٠] .

وقد بدا من المترجم التحاقه بهذه البعثة ، ما فطر عليه من الميل الشديد إلى العلم فإن المسيو لامبير بك ناظر مدرسة المهندسخانة رغب إليه البقاء ليجعله مدرساً بها ، وأفهمه أن بقاءه يعجل بترتيب وظيفة له ، على حين أن التحاقه بالبعثة يجعله باقياً فى سلك التلاميذ ، ويفوت عليه تلك المزية ، لكنه آثر الالتحاق بالبعثة ، ليزداد اكتساباً للعلوم ، « ولأن سفره مع الأنجال يزيده شرفاً ورفعة » .

سافرت البعثة إلى فرنسا سنة ١٨٤٤ ، ووجهتها تعلم الفنون الحربية ، وأقام أعضاؤها سنتين بباريس ، ولأجلهم أنشئت بها المدرسة المصرية لتعليم الطلبة اللغة الفرنسية ، وإعدادهم لدخول المدارس العليا بفرنسا ، وخصص لهم بها المعلمون والضباط الفرنسيون ، وكان تلاميذ البعثة يتعلمون التعليمات العسكرية كل يوم ، ولقى المترجم فى دراسة اللغة الفرنسية مصاعب جمة ، ذللها بقوة العزيمة ، فقد كان إلى عهد انتظامه فى البعثة غير عارف بتلك اللغة ، شأنه فى ذلك كشأن العلامة رفاعة بك رافع الطهطاوى حينما انتظم فى البعثة الأولى ، واقتضى نظام التعليم فى البعثة أن يجعل من المتقدمين فى الرياضيات (ومنهم المترجم) والعارفين باللغة الفرنسية فرقة واحدة ، وكلف المعلمون أن يلقوا الدروس بالفرنسية للجميع ، لا فرق بين من يفهم تلك اللغة ومن لا يفهمها ، ففعلوا ، وأحالوا غير العارفين بها على العارفين ليتعلموا منهم بعد انتهاء الدروس . ولكن العارفين بالفرنسية كانوا يبخلون على مثل على مبارك بالتعليم ، لينفردوا بالتقدم .

فمكث المترجم مدة لا يفهم الدروس التى يسمعها ، وخشى العاقبة ، فعالج هذه

---

(١٠) ذكرنا أسماءهم وترجمنا لنوابغهم فى كتاب « عصر محمد على » ص ٤٦٥ وما بعدها .

الصعوبة ، بالصبر والمثابرة ، وقوة العزيمة ، ذلك أنه أخذ يدرس الفرنسية بنفسه ، واشترى لهذا الغرض الكتب الأولية فى الهجاء واللغة ، وأكبّ على مطالعتها وتفهمها وحفظها ، وبذل فى هذا السبيل جهداً لا ينقطع ثلاثة أشهر متوالية ، مع متابعة الدروس التى تلقى بالفرنسية ، فأثمر الحفظ والجهد ثمرة كبيرة ، وصار أول البعثة كلها ، وكان يتبادل الأولية مع زميليه على إبراهيم وحماد عبد العاطى .

ولما جاء إبراهيم باشا قائد الجيوش المصرية المظفرة إلى باريس ، أقيم له احتفال حافل ، وحضر امتحان أعضاء البعثة ، فسمع ثناء مستطاباً على حسن اجتهادهم . ووزع الجوائز بنفسه على الناجحين منهم ، وناول على مبارك الجائزة الثانية بيده ، وكانت نسخة من كتاب فى الجغرافية ، لمؤلفه المسيو مالطبرون ، مع مجموعة خرائطه ، ودعا الطلبة إلى تناول الطعام على مائدته ، فكان ذلك تكريماً لهم وتشجيعاً ، وحثًّا لهم على متابعة الدرس والتحصيل

يتجلى فى هذه الصفحة من حياة المترجم بباريس ، مبلغ قوة إرادته ، ومثابرته على الدرس والتعلم ، وثمة ظاهرة أخرى ، تزين هذه الصفحة ، وهى بره بوالديه ، وحنوه عليهما ، فقد أجرت عليه الحكومة مرتبًا شهريًا قيمته خمسون ومائتا قرش ، فجعل نصفها لأهله ، يصرف لهم من مصر كل شهر ، ويكتفى هو بالنصف الآخر ، وكانت هذه سنته معهم منذ دخل المدارس .

وهذا البر بالأبوين يدلك على ما تجملت به نفس على مبارك من الوفاء ، ومكارم الأخلاق ، وإنكار الذات ، ولا شك أن هذه المزايا مما يزين شخصية المترجم ويزيدها سطوعًا وبهاء .

التحاقه بمدرسة متز الحربية

ولما انقضى عامان على إقامة البعثة بباريس ألحق الثلاثة الأول من أعضائها ، وهم على مبارك ، وحماد عبد العاطى ، وعلى إبراهيم ، بمدرسة المدفعية والهندسة الحربية الشهيرة بمتز Metz ، ونالوا رتبة الملازم الثانى فى الجيش الفرنسى ، فأقاموا سنتين أخريين يتعلمون الفنون الحربية .

وبعد أن أدوا الامتحان النهائى ألحقوا بالجيش الفرنسى ، فكان على مبارك فى الآلاى

الثالث من فرقة المهندسين الحربية ، وقضى به أقل من سنة ، وبديهى أنه اكتسب بانتظامه فى هذه الفرقة خبرة كبيرة ، فى الفنون الحربية والهندسية ، فزادت معارفه التى نالها فى مدرسة المهندسخانة ببولاق ، ومدرسة باريس ، ومدرسة متز الحربية والهندسية ، فلا غرو أن صار من نوابغ المهندسين المصريين ، وظهر نبوغه فى إدارته مصلحة السكك الحديدية ، وولايته وزارة الأشغال فى عصر إسماعيل .

وكان إبراهيم باشا يرغب فى أن يزداد أعضاء البعثة خبرة وعلماً ، وأن يطيلوا مكثهم فى الخدمة العسكرية بفرنسا ، حتى يستوفوا تجاربها ، ثم يتنقلون فى الديار الأوروبية الأخرى ليطبقوا العلم على العمل ، ويشاهدوا ما فيها من المنشآت الهندسية والحربية ، ولكن المنية حالت دون إنفاذ هذا البرنامج ، إذ توفى إبراهيم وخلفه عباس الأول ، فطلب إلى نوابغ البعثة العودة فوراً إلى مصر ، فرجعوا إليها سنة ١٨٥٠ ، وانتقل المترجم بذلك من حياة التحصيل والدراسة ، إلى دور العمل والإنتاج .

عمل المترجم فى عهد عباس

عاد المترجم كامل النضوج ، واسع الإطلاع ، صادق العزم ، مقبلا على العمل بكل ما فيه من نشاط وهمة ، ولو وجد من ولاة الأمور من يستثمر مواهبه وكفاءته فى النهوض بأعمال التقدم والعمران ، لظهرت نتائج هذه المواهب حين عودته إلى مصر ، لكنه لم يجد من يقدر قيمته ، ويستثمر كفاءته ، فانقضى نحو أربعة عشر عاما ، والبلاد تكاد تحرم من أعماله المنتجة ، وخاصة فى عهد سعيد الذى كان يبخسه حقه ، ولا يعرف قدره .

ولم يبدأ عهد إنتاجه الكبير إلا فى عصر إسماعيل الذى عرف كيف يوجه هذه القوة إلى إحياء النهضة العلمية فى البلاد .

تعيينه مدرساً بمدرسة طره الحربية

كان أول مركز شغله على مبارك بعد عودته لمصر أن عين مدرساً بمدرسة طره الحربية ، ولكن التعليم فى عهد عباس باشا الأول كان مصاباً بالجمود والإهمال ، فتناقص عدد التلاميذ فى هذه المدرسة ، وخاصة حينما أنشأ عباس مدرسة المفروزة ، واختارها الطلبة من جميع

المدارس ، بعد إلغاء معظمها ، فلم يبق بمدرسة طره إلا عدد قليل من الطلبة المتقدمين فى السن ، وأمعنت المدرسة فى التأخر حتى لم يبق فى الفرقة التى يلقى فيها على مبارك دروسه سوى تلميذ واحد .

صار المترجم إذن بلا عمل ، وليس هذا مما تميل إليه نفسه ، لأنه اعتاد الجدّ والدأب على العمل ، ولقد حدثته نفسه أن يتخلف عن المدرسة فى إجازة ليزور أهله بعد غيبته الطويلة عنهم ، فرغب إليه ناظر المدرسة فى البقاء حتى لا يقطع نصف راتبه إذا هو غاب عنها .

مصاحبته سليمان باشا الفرنساوى

وسعى له الناظر عند الجنرال سليمان باشا الفرنساوى القائد العام للجيش المصرى ، ليصطحبه فى مهمة حربية وهى اكتشاف بحيرة المنزلة وسواحل مصر الشمالية ، فتم له ما أراد . وصحب المترجم سليمان باشا إلى دمياط ، وأدى ما كان مطلوبا منه ، وهو ارتياد بحيرة المنزلة ، وخطط رسماً مفصلاً لمواقعها ، وكتب تقريراً عنها ثم ذهب إلى بلدته برنبال ، وكان أهله قد رجعوا إليها منذ مدة واستقروا بها .

زيارته لأهله

فدخل البلدة ليلاً على حين غفلة من أهلها ، وذهب من فوره إلى منزل أبويه ، وطرق الباب ، وكان أبوه غائبا بمصر ، ولم يكن بالدار سوى والدته وبعض إخوته ، وكان قد فارق أمه منذ أربع عشر سنة ، ولم تكن تتوقع حضوره تلك الليلة ، فلما طرق الباب ، قيل من أنت ؟ فقال : ابنكم البار ، فقامت مدهوشة ، وقصدت إلى ما وراء الباب ، وجعلت تنظر وتمعن النظر ، لتتحقق الخبر ، وكان هو بردائه العسكرى ، متقلداً سيفه وحاملاً شعار الضباط ، فلم تصدق أنه هو ، حتى أعادت سؤاله وتحققت أنه هو ، ففتحت الباب ، وما أن رأته حتى ارتمت عليه تعانقه ، ووقعت مغشيا عليها من الدهشة والفرح والتأثر ، ثم أفاقت وجعلت تبكى ، وتضحك ، وتزغرد ، فأقبل أهل البيت ، وجاء الأقارب والجيران يهرعون ، وامتلأت بهم الدار ، وانقضى الليل حتى الصباح ، والناس بين رائح وغاد ، يجيئون لتهنئته ، وأقامت أمه الأفراح ابتهاجاً بعودة ابنها العزيز ، وبلوغه هذه الرتبة العالية ، وبعد يومين قضاهما

بين أهله وعشيرته ، عاد إلى دمياط ، وعرض على القائد سليمان باشا الفرنساوى نتيجة تجواله فى بحيرة المنزلة ، فوقعت عنده موقع الاستحسان ، وأثنى عليه الثناء المستطاب .

التحاقه بمعية عباس باشا

وفى أثناء صحبته سليمان باشا الفرنساوى سعى له فى منصب آخر بدلا من التدريس فى مدرسة طره ، فنجح فى إلحاقه بمعية جاليس بك قومندان الاستحكامات ، وكان مقره الإسكندرية .

فذهب إليها المترجم ليتسلم منصبه الجديد ، ولكن عباس باشا قرر أن يلحقه بمعيته هو وحماد بك ، وعلى بك إبراهيم . وكلفهم إمتحان مهندسى الأقاليم ومعلمى المدارس ، وأنعم عليهم برتبة الصاغ ، فأدى المترجم هذه المهمة ، واستبدل بالمهندسين القدماء مهندسين أكفاء من خريجى مدرسة المهندسخانة ، وأتم فى خلال ذلك مهمات أخرى هندسية ، إذ أحيل عليه الكشف على شلال أسوان لدرس مشروع تسهيل الملاحة فيه ، فقدم تقريراً وافياً بهذا المشروع .

ولما عاد إلى القاهرة عهد إليه عباس بالاشتراك مع المسيو موجيل بك Mougel كبير مهندسى القناطر الخيرية وضع نظام لمرور السفن من القناطر التى كان بناؤها قد قارب التمام ، فأدى هذه المهمة ، وأحيلت عليه وعلى زميليه على إبراهيم وحماد عبد العاطى كل الأعمال الهندسية التى تطلبها دواوين الحكومة .

مشروع تنظيم المدارس

وشرع عباس فى وضع نظام جديد للمدارس ، بعد أن ألغى معظمها ، ففى أواخر سنة ١٨٥١ عرض عليه المسيو لامبير بك ناظر مدرسة المهندسخانة ميزانية للمدارس الملكية والرصدخانة تبلغ ٢٠,٠٠٠ كيس (١٠٠,٠٠٠ جنيه) ، فاستكثر عباس هذا المبلغ ، وأحال المشروع على المترجم ، فوضع للمدارس الملكية ميزانية تبلغ خمسة آلاف جنيه ، على أن تكون فى مكان واحد ، وبإدارة ناظر واحد ، واستبعد الرصدخانة من المشروع ، لعدم وجود من يقوم عليها حق القيام ولكثرة نفقاتها .

نظارته لمدرسة المهندسخانة

ولما عرض المشروع على عباس حاز إعجابه ، وأحاله على مجلس مؤلف من رؤساء الدواوين ، فبحثوه وأقروه ، وأنعم على المترجم لهذه المناسبة برتبة أميرالاى . وعهد إليه بتنفيذه ، وجعله ناظراً لمدرسة المهندسخانة وما يلحق بها من المدارس الملكية ، وكلفه اختيار مدرسى مدرسة المفروزة ، ووضع نظام للتعليم فيها ، واختيار ما يلزم لها من الكتب ، فاضطلع بهذه المهمة ، وعظمت منزلته عند عباس باشا .

وبذل جهداً عظيماً فى ترقية شأن المدارس التى تولى إدارتها ، فكان يرشد المعلمين إلى خير الطرق للتدريس ، ويتفقد فصول الدراسة وأحوالها ، ويقوم بتأليف الكتب المدرسية بنفسه ، يعاونه بعض المعلمين ، وأنشأ مطبعة حروف ومطبعة حجر طبع فيها للمدارس الحربية وألايات الجيش نحو ستين ألف نسخة ، من كتب متنوعة ، غير ما طبع فى كل فن بمطبعة الحجر للمهندسخانة ، من الكتب ذات الأطالس والرسوم ، وكان فوق ذلك يلقى بعض الدروس ، كالطبيعة والعمارة ، ويعنى شديد العناية بتوفير حاجات الطلبة فى مأكلهم ، ومشربهم ، وملبسهم ، ويسهر على حسن معاملتهم ، فارتقت حالتهم الفكرية والمعنوية ، وكاد يمتنع الضرب والسجن من المدارس .

فى عهد سعيد باشا

اشتراكه فى حرب القرم

يؤخذ مما كتبه المترجم عن نفسه أنه لم يكن مَرْضياً عنه من سعيد باشا ، فقد ذكر عنه أنه لما تولى الحكم وشى له بعض الكاشحين بمدرسة المهندسخانة ووصفوها بما ليس له نصيب من الصحة ، واختلقوا عليها معايب كثيرة ، حتى أوغروا صدر سعيد على المترجم فأمره بالاشتراك فى حرب القرم سنة ١٨٥٤ ، صحبة الحملة المصرية التى كان يقودها أحمد باشا المنكلى .

وليس من ضير على الحكومة إذا عهدت إلى مثل على بك مبارك أن يشترك فى حرب القرم . فقد نال حظاً كبيراً من التعليم الحربى ، وتخرج فى أرقى المدارس الحربية الفرنسية ، ولكن ملابسات هذا العمل تدل على أن الغرض منه لم يكن الاستفادة من خبرة المترجم ،

إذ لم يعهد إليه فى حرب القرم بعمل حربى ذى شأن ، تحرم من أجله مدرسة المهندسخانة كفاءة ناظرها القدير ، ومن جهة أخرى فقد اقترن تكليفه مرافقة الحملة بإلغاء مدرسة المهندسخانة ، فالغرض الحقيقى كان إذن إبعاد المترجم ، وإقفال هذا المعهد العلمى العظيم الذى أخذ على عاتقه ترقيته وإنهاضه ، فالعمل كما ترى ضرره أكثر من نفعه ، وشره أكثر من خيره ، ولكن أهواء سعيد باشا (وقد كان دائماً كثير التقلب فى الآراء) جعلته يصغى لوشاية الدساسين ، ويوصد أبواب تلك المدرسة ، ثم يحرم البلاد خدمات على بك مبارك العلمية ، ذلك أن على مبارك ، وإن كانت دراسته العليا عسكرية ، لكن نفسه اتجهت إلى ناحية أخرى غير الحياة الحربية ، وهى ناحية التعليم وتنظيمه والنهوض بأعبائه ، فكان واجباً على سعيد باشا أن يستخدم مواهب المترجم فى هذا الميدان ، وأن يعمل على الأقل للمحافظة على نهضة العلم والتعليم التى ازدهرت فى عهد أبيه ، ولكن المعروف أن هذه النهضة قد اضمحلت وتراجعت فى عهد عباس وسعيد ، ولم يعاودها النشاط والحياة إلا فى عصر إسماعيل .

ويستفاد مما ذكره المترجم أنه شعر بأن تكليفه مهمة السفر إلى بلاد القرم كان مقصوداً به إبعاده ، والنكاية به ، وهذا مفهوم من قوله : « أقمت بهذه السفرة قريباً من سنتين ونصفاً . وقد لطف الله بى وأحسن إلىّ .. ورد كيد الحاسدين فى نحورهم ، فإنى وإن قاسيت فيها مشاق الأسفار .. وما يلحق المجاهدين من الإرجاف والاضطرابات ، والحرمان من المألوفات ، لكنى رأيت بلاداً وعوائد كنت أجهلها ، وعرفت أناسا كنت لا أعرفهم ، واكتسبت فيها معرفة اللغة التركية » ، فيؤخذ من ذلك أن ثمة حاسدين كانوا يكيدون له ، ومن مكايدهم أنهم دبروا أمر إبعاده إلى بلاد القرم ، وإرساله إلى ميادين الحروب المحفوفة بالمكاره والأخطار ، ولكن الله لطف به إذ رد كيدهم ، وعاد من الحرب سالماً وقد نال مزايا جمة .

والواقع أنه أفاد كثيراً من هذه الحملة ، فإن الاشتراك فى الحروب من شأنه أن يقوى فى النفس روح الشجاعة والإقدام ، ولو اشترك المترجم فى اقتحام المخاطر ، والبقاء فى خط النار ، لكان أثر هذه الحملة فى نفسه أقوى وأعظم ، ولزاد حظه من الشجاعة والجرأة ، ولوقف من الحكومات المتعاقبة التى تولت الحكم فى مصر مواقف أعظم شأنا من خطة اللين والمسالمة التى اختطها لنفسه ، ومهما يكن من الأمر ، فلا نزاع فى أن مداركه قد اتسعت وخبرته قد اكتملت فى تلك الحرب .

أقام المترجم عشرة أشهر فى بلاد القرم ، وكان يعهد إليه أمر المفاوضات والمخابرات بين

الروس والترك ، وأقام ثمانية أشهر أخرى فى بلاد الأناضول ، أغلبها فى مدينة (كومشخانة) . وكان منوطاً به تسهيل نقل الجند من مدينة طرابزون الواقعة على البحر الأسود ، إلى مدينة أرض روم بأرمينيا ، وعلى أن هذه المهمة ليست من ضروب القتال الفعلية ، فقد لاقى فيها الشدائد والأهوال ، لشدة البرد ، وكثرة الثلج فى تلك الجهات ووعورة طرقها ، وصعوبة اجتياز ما فيها من العقبات ، بين جبال شاهقة وأودية سحيقة .

وقد مرض كثير من الجند لما أصابهم من البرد القارس ، وأنشأ لهم المترجم مستشفى بكومشخانة ، نظمه تنظيماً حسناً ، ونال ثناء أعيان المدينة وأكابرها ورؤساء الجيش .

عودته إلى مصر والوظائف التى تولاها

ولما عاد المترجم اعترضته عقبات ومتاعب جمة . ذلك أن سعيد باشا أمر بإخلاء سبيل الجنود وإرجاعهم إلى بلادهم ، ورفت كثيراً من ضباط الحملة ، ومنهم على بك مبارك ، فسكن فى بيت صغير ، وعانى غضاضة العسر والضيق ، وصارت حالته بعد سبع سنوات من عودته من فرنسا ، كحالته عندما عاد منها ، وفقد ما كان يناله ويؤمله من المناصب ، وفقد ماله ، وشعر بمرارة اليأس تنغص عليه حياته ، وداخله الهم والكدر ، وحدثته نفسه أن يرغب عن خدمة الحكومة والتطلع لمناصبها ، إذ لم يجد من ولاة الأمور إنصافاً ولا تقديراً ، واعتزم الرجوع إلى بلده والاشتغال بالزراعة وقال لنفسه : « عوضنا الله خيراً فى نتائج الفكر وثمرات المعارف ، ولنفرض أننا ما فارقنا البلد ، ولا خرجنا منها » .

وبينما كان يتأهب للرجوع إلى بلده صدر الأمر للضباط المرفوتين بالحضور إلى القلعة ، فكان هو ممن أعيدوا للخدمة ، فعدل عن عزمه الأول .

وبعد قليل عين معاوناً بوزارة الحربية ، وأحيل عليه النظر فى التحقيقات الخاصة بالمصانع الحربية والجبخانات (مخازن البارود) ، ولم يكن هذا العمل مما تألفه نفسه ، لتفاهته وعقمه ، ولكنه راض نفسه على الصبر ، عسى الله أن يأتى بالفرج القريب ، وحدث أثناء قيامه بهذه الوظيفة أن شرع وزير الحربية وقتئذ (إسماعيل باشا الفريق) فى وضع رسم لبعض المناورات الحربية ، فعجز عن عمله ، وحار فى إتمامه . فاستدعى على بك مبارك لما كان يعهده فيه من الكفاءة والخبرة ، فوضع الرسم المطلوب ، فأثنى عليه الفريق ، ووعده بأن يذكره بالخير عند سعيد باشا .

وقد وفى إسماعيل باشا بما وعد ، وكان من نتيجة مسعاه أن أمر سعيد باشا بإلحاق المترجم بمستودعى الداخلية ، وكان يحال عليه النظر فى بعض القضايا . ثم عهدت إليه وكالة المحكمة التجارية ، فاضطلع باعبائها بأمانة ونزاهة ، ولكن سلفه فيها وشى به لدى سعيد باشا ، فرفت منها ، وعاد لما بدا ، عاطلاً من المنصب ، واعتكف فى بيته ثلاثة أشهر ، ثم عين مفتشاً لهندسة نصف الوجه القبلى ، ثم استدعاه سعيد باشا ، وعهد إليه بوضع مشروع استحكامات الحماد ، وهو مشروع جليل الشأن ، كان الغرض منه تحصين موقع الحماد (جنوبى رشيد) ، بين فرع رشيد وبحيرة إدكو ، لمنع العدو من مهاجمة القطر المصرى من هذه الناحية ، فوضع المترجم الرسم المطلوب لهذه الاستحكامات ، وأدى المهمة على خير ما يرام ، ولكنه عندما أراد أن يعرض الرسم على سعيد باشا لم يستطع تقديمه إليه ، وتردد عليه آنًا فى طره ، وآونة فى قصر النيل ، فلم يتيسر له مقابلته ، واضطر لملازمة معيته فى السفر من بلد إلى بلد ، مدة ثلاثة أشهر ، بلا راتب ، ولا عمل ، دون أن يظفر بتقديم الرسم المطلوب ، إلى أن رآه سعيد يوما فى الجيزة ، فذكر الرسم الذى كلفه به ، وسأله عنه ، فقدمه إليه ، فنظر فيه قليلاً ولم يزد عن قوله : « أبقه حتى نجد وقتًا لإمعان النظر فيه » ، وكانت هذه الإجابة نتيجة الانتظار مدة ثلاثة أشهر ، ثم لم يلتفت إليه بعد ذلك ، ولكنه أمر بربط مرتب للمترجم ، وبقى فى معيته زمنًا طويلاً بلا عمل إلى أن أصدر سعيد أمره باختيار بعض المعلمين لتعليم الضباط الخارجين من تحت السلاح القراءة والكتابة والحساب . فتقدم على بك مبارك للقيام بهذه المهمة ، ليشغل نفسه بعمل ما ، مهما كان ضئيلا ، لأن نفسه كانت تعاف الكسل والبطالة ، فصار يدرس لهم حروف الهجاء ، والخط والمبادئ الأولية فى الرياضيات والقواعد الهندسية . وعاونه فى التدريس اثنان من المدرسين ، ووضع فى ذلك كتابا مختصرا فى الحساب والهندسة وطرق الاكتشافات العسكرية سماه (تقريب الهندسة) .

وكان يشغل أوقات فراغه بالمطالعة وتدوين بعض الملاحظات على ما يقرؤه ، جمعها بعد ذلك فى كتاب سماه (تذكرة المهندسين) ، يحتوى على فنون شتى مما يحتاج إليها المشتغلون بالهندسة ، ولما اعتزم سعيد باشا السفر إلى أوروبا أمر برفت أغلب من كان بمعيته ، فكان المترجم ضمن المرفوتين ...

وأمر قبل ذلك ببيع مهمات مدرسة المهندسخانة وأدواتها وكتبها ضمن كثير من تعلقات الحكومة التى اعتبرت « زائدة عن الحاجة » ، فدهش المترجم ، إذ رأى هذه النفائس تباع

بالمزاد بأبخس الأثمان ، وفى جملتها الكتب التى طبعها أثناء نظارته لهذه المدرسة ، فدخل المزاد واشترى من هذه الأشياء ما أمكنه ابتياعه .

ولما اشتد الضيق بالمترجم فكر فى الاشتغال بالتجارة ، فاتجر فيما اشتراه ، وعامل التجار ، وكثر منه البيع والشراء ، فربح واستعان بالربح على الإنفاق وأداء بعض الحقوق ، واستمر يتجر مدة شهرين ، ثم فكر فى التفرغ للتجارة والإعراض عن مناصب الحكومة ، لما رآه من اضطراب الأحوال وتقلب الأمور ، مما كان يفقده ثمرات العلوم ، وشعر بأنه كلما تقدم به العمر وكثر بنوه . نفد ما جمعه من الكد والتعب ، فآثر الاحتراف بالتجارة وجال بخاطره أن يعقد وبعض زملائه المهندسين المتقاعدين شركة يجعل الغرض منها بناء البيوت للبيع والتجارة . فيربحون منها ويستثمرون فيها معارفهم الهندسية وخبرتهم الفنية ، فلم يجد من يوافقه على مشروعه . ففكر فى القيام به بنفسه ، وفيما كان يفكر فى مخرج من الضيق الذى اشتد به طرق سعيد باشا طارق المنون فى أوائل سنة ١٨٦٣ . فكان لوفاته أثر كبير فى حياة المترجم ، ذلك أن إسماعيل لم يكد يعتلى العرش حتى فكر فى استخدام مواهب زميله القديم فى البعثة ، فانفتح باب الأمل والتوفيق أمام على بك مبارك .

أعماله فى عهد إسماعيل

لما تولى إسماعيل الحكم ألحق المترجم بمعينه ، ثم جعله ناظراً على القناطر الخيرية ، وكانت إلى ذلك الحين لم تستخدم أبوابها الحديدية المعدة لإقفال عيونها ، والمانع من إقفالها ما قرره المهندسون من أن القناطر لا تتحمل ضغط المياه قبل تقويتها ، وترتب على ذلك أن معظم المياه تحولت إلى فرع رشيد ، وحرم فرع دمياط مرور المياه فيه ، فلما عرض على المترجم أرتأى إقفال قناطر فرع رشيد ، لتغذية فرع دمياط ، فعمل الخديو برأيه وأمر بإقفالها ، فانحدرت المياه إلى فرع دمياط ، ونالت البلاد التى تروى منه منافع الرى وخيراته ، وأما الخلل الذى كان متوقعاً حصوله فى بعض العيون بقناطر فرع رشيد فقد تلافاه المترجم ، إذ أقام حاجزاً من الخشب أحاط بالقناطر ، فنشأت خلفها جزيرة من الرمل حفظتها من ضغط المياه ، وهكذا تبين صواب الرأى الذى ارتآه على بك مبارك .

ولما حفر رياح المنوفية[11] أحيل على المترجم إنشاء قناطره ومبانيه ، فأقامها على أحسن

(١١) حفر رياح المنوفية لأول مرة فى عهد سعيد باشا وأعيد حفره وتعميقه فى عهد إسماعيل .

نظام ، وفى سنة ١٨٦٥ ندبته الحكومة المصرية عضوًا عنها فى اللجنة التى ألفت لتقدير الأراضى التى صارت حقًّا لشركة القناة طبقا لحكم الامبراطور نابليون الثالث ، فأدى هذه المهمة خير الأداء .

وكالة وزارة المعارف

وفى سنة ١٨٦٧ جعل وكيلا لوزارة المعارف العمومية (ديوان المدارس) ، وكان يتولى هذه الوزارة شريف باشا الوزير المشهور ، فتقلد المترجم منصبه الجديد مع بقاء نظارة القناطر الخيرية فى عهدته ، ويبدأ من ذلك الحين عهد جديد للمترجم ، إذ صار له بحكم منصبه النفوذ الكبير الذى يسمح له بإنفاذ إصلاحاته فى دائرة التعليم العام .

كان من مزايا المترجم أنه يتقن كل عمل يتولاه ، ويبذل كل ما فى وسعه ليقوم به على الوجه الأكمل ، فانتهز ندب الخديو إسماعيل إيّاه لرحلة مالية إلى باريس عقيب تعيينه وكيلاً لوزارة المعارف ، وأخذ يستكمل معلوماته عن حالة التعليم ونظام المدارس فى فرنسا ، ليقتبس ما يراه صالحا لمصر ، ومع أن رحلته هذه لم تتجاوز خمسة وأربعين يومًا بما فيها الذهاب والإياب ، فقد اطلع على مناهج التعليم فى المدارس الفرنسية ، والكتب المقررة فيها ، ودرس أيضاً نظام المجارى العامة المبنية تحت الأرض فى باريس .

توليته وزارة المعارف والأشغال

وبعد عودته إلى مصر أنعم عليه الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٨ برتبة الميرميران ، فصار يعرف من ذلك العهد بعلى باشا مبارك ، وأسند إليه إدارة مصلحة السكك الحديدية ، ووزارة المعارف والأشغال ، وبعد قليل ضمت إليه نظارة ديوان الأوقاف ، فجمع بين هذه المناصب الرفيعة ، مع بقائه ناظرًا للقناطر الخيرية والتحاقه بالمعية .

العصر الذهبى فى حياة المترجم

وهنا يبدأ العصر الذهبى فى حياة المترجم ، وهو العصر الذى حفل بالأعمال العظيمة ، التى خلدت اسمه فى تاريخ مصر الحديث ، وخاصة فى نهضتها العلمية .

وأول ما يلفت النظر فى هذا الدور من حياته ، كفاءته الممتازة فى اضطلاعه بأعباء

الوزارات المختلفة ، فقد كان فى وقت واحد وزيرًا للمعارف ، والأشغال ، والأوقاف ، ومديرًا عامًّا للسكك الحديدية ، وناظرًا للقناطر الخيرية ، وهى مهام جسام ، تنوء بالعصبة من الرجال ، ولكن على باشا مبارك قام بها جميعا ، وأظهر من الكفاءة وقوة الإرادة والجلد على العمل ما يدعو حقًّا للإعجاب ، وصدقت كلمته المتواضعة التى قالها فى هذا الصدد عن نفسه : « فبذلت جهدى ، وشمرت عن ساعد جدى ، فى مباشرة تلك المصالح فقمت بواجبها » .

وهنا تتجلى ميزة كبيرة للمترجم ، تطالعنا بناحية من نواحى شخصيته ، وهى مقدرته على الاضطلاع بالمهام العظام ، فقد يكون لعلى باشا مبارك أنداد فى العلم والذكاء بين زملائه الذين تولوا مختلف الوزارات والمناصب العالية ، ولكنا نعتقد أنه بذّ أقرانه فى الجمع بين مزايا متعددة ، وهى الكفاءة والجلد على العمل ، والإخلاص ، والنزاهة فى أداء واجبه ، وإتقان الأعمال الكبيرة التى تعهد إليه ، على ما تقتضيه من جهود ومتاعب ، فالرأس الذى يسع وزارات المعارف والأشغال والأوقاف ، مع إدارة مصلحة متشعبة الأعمال كالسكك الحديدية ، والكفاءة التى تضطلع بكل هاتيك المصالح ، والهمة التى تصرف شؤونها المختلفة ، وتبتكر لها المشاريع الجمة ، كل ذلك لا يصدر إلا عن نبوغ فذ ، وهذا يعطينا فكرة صادقة عن شخصية المترجم .

وزع على باشا مبارك أوقاته بين هذه الوزارات المختلفة ، فخصص نصف النهار من الصباح إلى الظهر للمعارف والأشغال والأوقاف ، ومن بعد الظهر إلى الغروب لإدارة السكك الحديدية .

فى وزارة المعارف

كانت معظم جهوده موجهة إلى ترقية شئون التعليم فى بلاده .

نقله المدارس إلى درب الجماميز

وأول أعماله نقل المدارس من العباسية إلى درب الجماميز ، ذلك أنه رأى ما يتكبده التلاميذ وأهلوهم والأساتذة من المتاعب والمشاق والنفقات ، فى ذهابهم إلى العباسية ، وإيابهم منها ، فاستصدر من الخديو إسماعيل إذنا بنقل المدارس إلى درب الجماميز ، وخصص

لها سراى الأمير مصطفى فاضل ، فأصلحها على باشا مبارك وجعلها على استعداد لإيواء المدارس والمعاهد وخصص سلاملك السراى لوزارة المعارف ، وجعل كل مدرسة فى ناحية من السراى ، فصارت أشبه ما تكون بالجامعة وجعل بها أيضا وزارة الأشغال ، وديوان الأوقاف ، فسهل عليه القيام بأعباء الوزارات المختلفة .

ومع اضطلاعه بأعباء هذه الوزارات ، كان لا ينفك يعنى بتفقد أحوال التلاميذ والمعلمين فى المدارس ، ويدخلها كل يوم ليشهد بنفسه سير التعليم فيها ، وليطمئن على حسن نظامها وقيام المدرسين بواجباتهم

لائحة التعليم وإنشاء المدارس الابتدائية

وقد وجه عنايته منذ تولى وكالة الوزارة إلى إصلاح التعليم فى المكاتب ، وتحويل ما يمكن تحويله من الكتاتيب إلى مدارس ابتدائية نظامية ، فوضع لذلك لائحته المشهورة بلائحة ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ التى نظمت المدارس ، ودعا طائفة من المشتغلين بالتعليم ليراجعوا المشروع ويبحثوه ، ويبدو آراءهم فيه . فدرسوا اللائحة وأقروها ، وصدر أمر الخديو بإجراء العمل بمقتضاها فى مايو سنة ١٨٦٨ .

وانشىء فى عهده كثير من المدارس الابتدائية النظامية فى القاهرة وعواصم المديريات .

وكان لاجتماع وزارة المعارف ونظارة ديوان الأوقاف فى يده أثر كبير فى نهضة التعليم ، لأنه بما له من سلطة النظر على الأوقاف الخيرية استطاع إعداد كثير من الأمكنة الموقوفة لجعلها معاهد للتعليم بعد إصلاحها ، ولو لم تكن له هذه السلطة لبقيت هذه المبانى معطلة لا ينتفع بها ، ولعجزت الحكومة عن النفقات التى يقتضيها إنشاء معاهد جديدة ، وكذلك أمكنه بما له من حق الإشراف على معاهد العلم الموقوفة أن ينظمها ويحولها إلى مدارس نظامية . فأحيا هذه المعاهد بعد ما درست فى أيدى نظار الوقف الخاملين ، وكذلك أحسن ادارة أموال الأوقاف الخيرية ، واستخدم جانبًا منها فى الإنفاق على التعليم بعد أن كانت تبدد وتضيع هباء .

وجعل على أهالى التلاميذ المقتدرين مصروفات قليلة تؤخذ برغبتهم على حسب اقتدارهم ، مع ترك الباقين مجانًا ، واستوفى باقى نفقات المدارس من إيراد الأوقاف الخيرية الموقوفة على المكاتب وغيرها من وجوه الخيرات ، وخصص لها الخديو إسماعيل إيراد أطيان

تفتيش الوادى بالشرقية ، كما منحها بعض الأملاك التى آلت إلى بيت المال من بعض التركات ، فكانت هذه الموارد هى التى ينفق منها على تلك المدارس عدا ما خصص لها فى الميزانية السنوية والمصروفات الضئيلة التى يدفعها أهالى التلاميذ ذوى الاقتدار واليسار .

معلمو المدارس

إن وضع نظام صالح للتعليم يقتضى توفير العدد الكافى من الأساتذة الأكفاء ، وقد حل على باشا مبارك هذه المعضلة بما أوتى من خبرة ، ونظر صادق ، وعزيمة ماضية ، فأنشأ « دار العلوم » كما سيجىء بيانه ، لتخريج أساتذة اللغة العربية ، واختار لتدريس بقية العلوم ، كالرياضيات والتاريخ والجغرافية واللغات الأجنبية نجباء التلاميذ المتقدمين ممن أتموا دروسهم فى المدارس العالية ، كالمهندسخانة ومدرسة المحاسبة ، ومدرسة الإدارة (الحقوق) ، بأن يجعلوا أولا معيدين لدروس المعلمين زمنا ، ثم يصيرون معلمين استقلالا ، ولم تكن مدرسة المعلمين العليا قد أنشئت بعد .

دار العلوم

هى من أجل منشآت على باشا مبارك ، أسسها سنة ١٨٧٢ ، والغرض الأصلى منها تخريج أساتذة اللغة الغربية والآداب للمدارس الابتدائية ، ثم للمدارس كافة .

ومرجع الفكرة فى تأسيسها ، أنه لما أنشئت المدارس الابتدائية ، واتجه العزم إلى الإكثار منها ، مست الحاجة إلى طائفة من الأساتذة لتدريس اللغة وآدابها فى المدارس الحديثة ، فارتأى المترجم إنشاء مدرسة عالية دعاها « دار العلوم » لتخريج أولئك الأساتذة ، واختار تلاميذها من طلبة الأزهر ، ممن حفظوا القرآن الشريف وتلقوا دروس اللغة والفقه ، واختبروا لهذه المدرسة بالامتحان ، واشتمل برنامج التعليم فيها على العلوم التى لا تدرس فى الأزهر ، كالحساب والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط ، مع إتقان علوم الأزهر من لغة ونحو وتفسير وحديث وفقه .

واختار المترجم للتدريس فى دار العلوم جماعة من جلة العلماء الأكفاء فى العلوم الأزهرية

والعلوم العصرية ، وجعل التعليم فيها مجانيًا ، مع دفع مرتب شهرى للتلاميذ .

وقد أثمرت المدرسة ، وتخرج منها أساتذة اللغة والآداب العربية للمدارس الابتدائية فى القاهرة والأقاليم ، ثم للمدارس الثانوية والعالية ، ويعد إنشاء دار العلوم أعظم خدمة أسداها المترجم لإحياء اللغة العربية وآدابها فى مصر .

دار الكتب أسست سنة ١٨٧٠

انشئت دار الكتب سنة ١٨٧٠ ، ولتأسيسها مقدمات ترجع إلى عهد محمد على ، فقد أنشأ مستودعًا لبيع مطبوعات الحكومة فى بيت المال القديم ، خلف المسجد الحسينى ، ولما ولى اسماعيل الحكم أضاف إليها نحو ألفى مجلد من المخطوطات العربية والفارسية ، ابتاعها من تركة حسن باشا المناسترلى ، ثم تطورت الفكرة إلى إنشاء دار عامة للكتب .

ويستفاد مما ذكره على باشا مبارك فى الجزء التاسع من الخطط (ص ٥١) أن فكرة تأسيس دار الكتب ترجع إلى الخديو إسماعيل ، فإنه رغب فى إنشاك مكتبة عامة تجمع الكتب المتفرقة فى مخازن الحكومة ، ومكاتب الأوقاف وفى المساجد ونحوها ، وأمر المترجم بالنظر فى ذلك ، فحقق الفكرة ، وأنشأ دار الكتب فى سراى درب الجماميز بجوار المدارس .

ولكن يؤخذ مما جاء فى الجزء الثالث من الخطط (ص ١٤) أن صاحب الفكرة فى هذا المشروع الجليل هو على باشا مبارك ذاته ، فقد قال فى هذا الصدد :

« ثم ظهر لى أن أجعل كتبخانة خديوية داخل الديار المصرية ، أضاهى بها كتبخانة باريس ، فأستأذنت الخديوى إسماعيل باشا فى ذلك ، فأذن لى ، فشرعت فى بناء الكتبخانة الخديوية هناك أيضا (بدرب الجماميز) ، وبعد فراغها جمعت فيها ما تشتت من الكتب التى كانت بجهات الأوقاف ، زيادة على ما صار مشتراه من الكتب العربية والفرنجية وغيرها ، وجعلت لها ناظراً ورتبت لها خدمة ومعاونين ، وعملت لها قانوناً لضبطها ، وعدم ضياع كتبها ، فجاءت بعون الله من أنفع التجديدات التى حدثت فى عهد الخديوى إسماعيل باشا ، وحصل بها النفع العام ، للخاص والعام » .

وقد ابتاع إسماعيل باشا مجموعة الكتب القيمة التى تركها أخوه الأمير مصطفى فاضل بعد وفاته ، وأهداها إلى دار الكتب .

وأنفق على الدار من ميزانية المدارس ، وفتحت أبوابها لطلاب العلوم والمعارف ، وسهلت لهم الإطلاع على كتب ومؤلفات ومخطوطات ماكان يمكنهم الوصول إليها لولا إنشاء هذه الدار ، فأدت ولا تزال تؤدى خدمات جليلة للنهضة العلمية والأدبية .

مجلة (روضة المدارس)

ومن أجلُ منشآته العلمية إنشاء مجلة « روضة المدارس » على نفقة وزارة المعارف وبإشرافها ، وسنتكلم عنها فيما يلى .

مدرج المحاضرات (الأنفتياتر)

ورتبت دروساً عامة أو محاضرات دورية بالانفتياتر (المدرج) بسراى درب الجماميز سنة ١٨٧١ . فعهد إلى النابهين من أساتذة المدارس إلقاء هذه المحاضرات لتثقيف أذهان الطلبة .

وكان يشجع هذه الحركة فيحضر المحاضرات بنفسه ، وحذا حذوه كبار الموظفين فى مختلف الوزارات ، وخاصة وزارة المعارف ، وكان يحضرها أيضاً عدا طلبة المدارس العالية . فريق من طلبة الأزهر ، وهم الذين صاروا نواة دار العلوم التى انشئت سنة ١٨٧٢ .

وتولى إلقاء المحاضرات طائفة من العلماء المشار إليهم بالبنان ، فكان الشيخ حسين المرصفى يدرس الآداب العربية ، وإسماعيل بك (باشا) مصطفى الفلكى ناظر المهندسخانة يدرس علوم الفلك باللغة العربية ، ومنصور أفندى أحمد أحد أساتذة المهندسخانة ، يلقى محاضرات فى الطبيعيات ، وفرانس بك (باشا) كبير مهندسى الأوقاف فى المبانى ، وجيجون بك ناظر مدرسة الفنون والصنائع فى الميكانيكا ، وبروكش باشا ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم فى التاريخ العام ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى فى فقه الإمام أبى حنيفة ، والشيخ أحمد المرصفى فى التفسير والحديث ، والمسيو بكتيت فى الطبيعيات ، وأحمد بك ندا فى علم النبات وغيرهم إلخ إلخ [١٢] .

---

(١٢) من كتاب (التعليم العام فى مصر) لأمين سامى باشا ص ٢٤ .

معمل الكيمياء والطبيعة

وأنشأ بدرب الجماميز معملا للكيمياء والطبيعة لتوسيع مدارك التلاميذ فى العلوم الطبيعية واطلاعهم على تجاريبها ومشاهداتها والمران على استعمال الآلات الرياضية والطبيعية

أعماله الهندسية

إن شهرة على باشا مبارك تقوم فى الغالب على خدماته الجليلة للتعليم ، على أن له مآثر أخرى فى أعمال العمران التى تمت فى عهد إسماعيل ، منها ما يختص بالرى ، ومنها ما يتعلق بتنظيم القاهرة والمدن الأخرى .

فليس يخفى أنه بولايته وزارة الأشغال سنة ١٨٦٨ ، قد عهد إليه الخديو بمعظم الأعمال الهندسية التى استحدثت فى ذلك العهد .

فاشترك فى تنظيم القاهرة ، وتوسيع شوارعها وحاراتها ، وإنشاء أحيائها الجديدة ، ومعظم الأعمال التى تمت من هذا القبيل نفذت فى عهده ، مثل شارع محمد على ، وميدانه ، وشوارع الازبكية ، وميدانها ، والشوارع المنشأة بعابدين ، وباب اللوق وغيرها مما هو بداخل المدينة وخارجها .

قال فى هذا الصدد : « وجرى العمل على ذلك . فظهرت كل هذه المبانى الحسنة . والشوارع المستقيمة المتسعة المحفوفة بالأشجار الخضرة النضرة ، المستوجبة للقادمين على المدينة انشراح الصدور ، والفرح والسرور ، وأزيل ما كان بجهتها البحرية من التلال التى كانت تمتد من جهة الفجالة إلى قرب باب الفتوح ، ثم تبرع الخديو إسماعيل للراغبين بمواضع كثيرة ، فأنشأوا بها المبانى المشيدة ، والبساتين العديدة ، وناهيك بقصور الإسماعيلية ودورها وبساتينها وشوارعها ، التى يكل الوصف عن محاسن بهجتها » .

واشترك فى استحداث الإنارة بغاز الاستصباح ، واقامة وابور المياه لتغذية القاهرة بماء الشرب الصالح بواسطة شركتى النور والمياه ، وإقامة (كوبرى) قصر النيل البديع ، وغير ذلك من الأعمال النافعة .

وساهم أيضا فى أعمال العمران بمدينة الإسكندرية والسويس .. وما أقيم فى المديريات من الدواوين ، والجسور ، والقناطر ، والترع ، قال فى هذا الصدد : « وهذه الأعمال جميعها أو أكثرها كنت أباشر أمورها من رسومات وشروط مع المقاولين ونحو ذلك ، لتعلقها بديوان الأشغال ، فكنت فى مدة إحالة هذه الدواوين علىّ مشغولا بالمصالح الأميرية ، وتنفيذ الأغراض الخديوية ، ليلا ونهاراً ، حتى لا أرى وقتاً التفت فيه لأحوالى الخاصة بى ، ولا أدخل بيتى إلا ليلا ، بل كنت أفكر فى الليل فيما يفعل بالنهار » .

وكان متوليًا وزارة الاشغال عند افتتاح قناة السويس ، فعهد إليه الخديو إسماعيل إعداد معدات حفلاته الفخمة .

ومن أعماله فى ديوان الأوقاف أنه حكّر كثيراً من أراضى القاهرة للراغبين فى بنائها ، مقابل حكر ضئيل يدفعونه كل سنة ، فعمرت جهات كانت من قبل خرابا بلقعاً ، وأقيمت المبانى والعمائر فى أخطاط عديدة من المدينة .

وبإدارته مصلحة السكك الحديدية اشترك فى مدّ كثير من الخطوط الحديدية وإنشاء محطاتها .

انفصاله عن الوزارة ثم عودته

انفصل المترجم عن إدارة السكك الحديدية ، ثم عن وزارة المعارف (فى سبتمبر سنة ١٨٧٠) ، وعن الأشغال ثم عن الأوقاف ، لخلاف وقع بينه وبين إسماعيل صديق باشا (المفتش) وزير المالية المشهور بحظوته عند الخديو إسماعيل ، ذلك أن المفتش رغب فى أن يضم إيراد السكك الحديدية الى وزارة المالية ، فلم يقبل على باشا مبارك هذا الضم إلا إذا تعهدت المالية بجميع نفقات المصلحة ، فوقع الخلاف بين الرجلين ، ووشى إسماعيل صديق بالمترجم عند الخديو ، فأدى ذلك إلى انفصاله عن الوزارات التى كان يقوم بأعبائها ، ولزم بيته ، على أن انفصاله لم يدم طويلاً ، ولعل الخديو شعر بالفراغ الذى ترتب على انفصاله عن العمل ، ولم يجد من بين وزرائه من يسد هذا الفراغ ، فعهد اليه ثانيًا بوزارة المعارف (١٣ مايو سنة ١٨٧١) ثم بالنظر على ديوان الأوقاف ، وبعد قليل أعيد إلى ديوان الاشغال ، وبقى يتولى وزرارة المعارف إلى أغسطس سنة ١٨٧٢ .

ثم عَنَّ للخديو أن يعين ابنه الأمير حسين كامل باشا (السلطان حسين كامل) ناظرًا لهذه الدواوين فى أغسطس سنة ١٧٨٢ ، وبقى المترجم يتولى شؤونها ، وصار منصبه « مستشارا » لها ، وبعد قليل انفصل ديوان الأشغال برآسة الأمير حسين كامل وجعل المترجم وكيلاً له .

وفى أغسطس سنة ١٨٧٣ عين المترجم عضوًا بالمجلس الخصوصى الذى كان بمنزلة مجلس الوزراء ، وبعد قليل انفصل عنه لما ألقاه فى حقه الواشون كإسماعيل باشا صديق وأضرابه وما أرجفوا به من أن كتابه (نخبة الفكر) الذى كلفه الخديو تأليفه عن النيل مشتمل على نقد الحكومة الخديوية وتقبيح سياستها ، فلزم بيته ثانيًا .

وفى مارس سنة ١٨٧٤ جعل رئيسًا لقسم الهندسة بديوان الاشغال ، ولما ألحق هذا الديوان بوزارة الداخلية التى تولاها الأمير محمد توفيق ولى عهد الأريكة الخديوية وقتئذ جعل المترجم مستشارًا له ، ثم استقل ديوان الاشغال ، فبقى المترجم مستشارًا للديوان (ديسمبر سنة ١٨٧٥) .

ولاشك أن تعيين على باشا مبارك فى هذه المناصب الثانوية كان نتيجة الوشاية التى ألقاها إسماعيل صديق فى حقه عند الخديو .

فى وزارة نوبار باشا

ولما وقعت بمصر الأحداث المالية ، وحدث التدخل الأجنبى وعينت لجنة التحقيق الدولية ، كان من مطالب اللجنة تنازل الخديو عن سلطته المطلقة لمجلس النظار ، فتألفت وزارة نوبار باشا الأولى فى أغسطس سنة ١٨٧٨ ، وهى الوزارة التى دخلها الوزيران الأوربيان كما تراه مفصلا فيما يلى ، واشترك فيها المترجم إذ تولى وزارة المعارف وديوان الأوقاف ، فاستأنف عمله فى إحياء نهضة التعليم ، فشرع فى بناء بعض المدارس الابتدائية وظل قائما بعمله فى جو مملوء بالاضطرابات والارتباكات ، إلى أن استهدفت وزارة نوبار باشا لسخط الأمة ، وثار عليها الضباط ثورتهم الأولى فاستقالت فى فبراير سنة ١٨٧٩ ، وخلفتها وزارة توفيق باشا القصيرة المدى ، وكان المترجم ضمن أعضائها متوليا المعارف والأوقاف ،

ثم دعى شريف باشا الوزير المشهور إلى تأليف الوزارة الجديدة استجابة لمطالب الأحرار فألف وزارته المعروفة بالوزارة الوطنية .

وكان طبيعيًا ألا يكون المترجم من أعضائها ، لأن الوزارة النوبارية سقطت مغضوبا عليها من الشعب ، إذا كانت متهمة بممالأة الدول الأجنبية ، ووزارة توفيق باشا لم تكن مرضيًا عنها من الرأى العام .

وفى عهد وزارة شريف باشا اشتدت الأزمة السياسية ، بين الخديو إسماعيل والدول الأوربية ، وانتهت بخلعه نزولا على إرادة الدول .

فى عهد الخديو توفيق

ولما تولى توفيق باشا مسند الخديوية وعهد الى مصطفى رياض باشا تأليف الوزارة ، كان على باشا مبارك عضوًا فيها ، متقلدًا وزارة الأشغال ، فبذل جهدًا ممدوحًا فى تنظيم هذه الوزارة والقيام بكثير من أعمال الرى والعمران .

الثورة العرابية

وفى عهد هذه الوزارة هبت عواصف الثورة العرابية ، ولم يكن على باشا مبارك من أنصار الثورة ، بل كان يميل إلى الاعتدال وأخذ الأمور بالحكمة والهوادة ، ونصح العرابيين بالروية فلم يسمعوا له نصحًا ، وقد تبين أنه كان أبعد نظرًا منهم ، لأنه لا يخفى أن التطرف والشطط فى مسلك الثورة العرابية ، كان من الأسباب التى أدت إلى كارثة الاحتلال .

لم يكن المترجم إذن من أنصار الثورة ، بل كان عضوًا فى وزارة رياض باشا التى تحركت الثورة لمناوأتها وإسقاطها ، وقد سقطت فعلا فى سبتمبر سنة ١٨٨١ نزولا على إرادة الثوار ، وألف شريف الوزارة الجديدة .

ومع أن شريف باشا كان يقدر كفاءة على باشا واستقامته وإخلاصه ، إلا إنه لم يشركه فى الوزارة ، لأنه كان عضواً فى وزارة رياض المغضوب عليها من الشعب ، وهكذا قدر على المترجم أن يكون عضواً فى الوزارتين اللتين هبت عليهما عواصف الثورة واستقالتا نزولا على إرادة الثوار .

فالأولى وزارة نوبار ، التى سقطت بتأثير ثورة الضباط فى عهد إسماعيل ، والثانية وزارة رياض ، التى سقطت نزولا على إرادة العرابيين .

ولما استقالت وزارة شريف وأعقبتها وزارة محمود سامى باشا البارودى ، ظل على مبارك بعيداً عن الوزارة ، وفى عهد وزارة البارودى جاء الاسطول البريطانى إلى ثغر الإسكندرية ، ثم تلاحقت الأحداث إلى أن رزئت البلاد بالاحتلال الانجليزى .

ولما قامت الحرب بين العرابيين والانجليز ، وانحاز الخديو توفيق باشا إلى الاحتلال ، انعقدت جمعية عمومية فى القاهرة تضم أعيان البلاد وذوى المكانة فيها ، وحضر على باشا مبارك هذه الجمعية ، وكان ضمن الوفد الذى انتدبته الجمعية للسفر إلى الإسكندرية ، ومقابلة الخديو توفيق باشا ، لإبلاغه قرارات الجمعية ، فلما وصل إلى الإسكندرية سعى فى طريقه لتهدئة الحالة ، فلم ينجح ، فانحاز إلى الخديو .

فى وزارة شريف باشا الرابعة

ولما ألف شريف باشا وزارته الرابعة سنة ١٨٨٢ عقب الاحتلال كان المترجم ضمن أعضائها ، وتقلد وزارة الأشغال . فعنى بأعمال الرى والعمران ، كما كان شأنه كلما تولى هذه الوزارة .

ووزارة شريف باشا هى التى استقالت احتجاجا على إخلاء السودان ، فالمترجم له نصيب فى الموقف المشرف الذى وقفه شريف باشا بتقديم استقالته التاريخية فى يناير سنة ١٨٨٤ .

فى وزارة رياض باشا
ظهور الخطط التوفيقية

وبعد إقالة وزارة نوبار الثانية تولى رياض باشا الوزارة فى يونيه سنة ١٨٨٨ ، فكان على باشا مبارك ضمن أعضائها ، وزيراً للمعارف العمومية ، وهى الفترة التى ظهر فيها كتابه الخالد (الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة) .

وهو دائرة معارف لخطط مصر وآثارها وجغرافيتها وتاريخها فى عصورها القديمة والحديثة ، ويعد تكملة وتجديداً لخطط المقريزى ، ولكتاب تخطيط مصر الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية ، وفيه وصف شامل لمدن مصر ، وقراها ، ونيلها ، وترعها ، وبحيراتها وسواحلها ، وتخطيط كامل لأحياء القاهرة وشوارعها ، ودروبها ، وميادينها ، وما احتوت

عليه من المبانى ، والمساجد ، والزوايا ، والأضرحة ، والربط ، والتكايا ، والأسبلة ، والقصور ، والوكائل ، والحمامات ، والكنائس ، والأديرة ، والمدارس ، والمكاتب مع تراجم علماء مصر وشعرائها وأدبائها وحكامها وأمرائها ، وكان مرجع المترجم فى هذه الموسوعة الكبرى ، كتب التاريخ والخطط ، قديمها وحديثها ، وحجج الأوقاف والأملاك ، ومباحثه ومشاهداته ، وما وجده مسطوراً على الأحجار والجدران ، ولئن قيل إن العلامة على باشا مبارك استعان فى وضع الخطط بطائفة من المهندسين من تلاميذه ومرءوسيه فى وزارة الأشغال والمعارف ، فذلك لا ينقص من فضله ، ولا يقلل من عظم العمل الذى اضطلع به ، وحسبه أن إرادته وجهت مساعديه إلى معاونته فى البحث والتنقيب ، وروحه تتمشى فى جميع أبواب الكتاب ومباحثه .

وتقع الخطط التوفيقية فى عشرين مجلداً . ظهرت سنتى ١٣٠٥ و ١٣٠٦ (١٨٨٧ - ١٨٨٩) . أفرد المؤلف الأجزاء الستة الأولى للقاهرة . والجزء السابع للإسكندرية والأجزاء الأخرى لبقية مدن القطر المصرى وقراه . وخصص الجزء الثامن عشر لمقياس النيل . والتاسع عشر لترع مصر ورياحاتها ومنشآت الرى فيها . والعشرين لنقودها القديمة والحديثة . وبالجملة فهذا الكتاب غرة فى تاريخ مصر العلمى . ومأثرة خالدة للمترجم . وهو مرجع لكل باحث فى شئون مصر العلمية والهندسية والتاريخية . وله أيضاً فى عالم التأليف كتاب (علم الدين) وهو قصة عمرانية قيمة . وكتاب (تنوير الأفهام فى تغذى الأجسام) طبع سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢م) و (نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر) .

ويقول الدكتور محمد درى باشا فى ترجمته لعلى باشا مبارك (ص ٦١) أنه وضع كتابا سماه (آثار الإسلام فى المدينة والعمران) فكان هذا الكتاب آخر مؤلفاته شرح فيه ما أدخله الإسلام من العمران فى الممالك . وما ترتب عليه من المدنية والنظام . قال : « والذى نعرفه من أمره أنه لما أكمله تأليفا وتبييضًا أعطاه لأحد أفاضل العلماء الأزهريين ليعيد نظره فيه ويدقق فى مراجعته ، وهو باق فيما نعلم فى خزانة مؤلفه رحمه الله » .

وقد استأنف المترجم جهوده فى عهد وزارة رياض باشا لنشر التعليم وإنشاء المدارس ، ومن أجلّ أعماله فى هذا العهد تقريره طبع كتاب (مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان) تأليف العلامة (محمد قدرى باشا) .

كان هذا الكتاب الجليل مخطوطا ، فرأى العلامة على باشا مبارك أن يخرجه للناس

منشوراً ، لتعم فائدته . فاشتراه من ورثة المرحوم قدرى باشا ، وطبعه سنة ١٨٩٠ على نفقة الوزارة ، وقررت تدريسه فى مدرسة الحقوق ، ودار العلوم ، فأسدى بذلك خدمة عظمى للعلوم الشرعية ، والقانونية ، وللنهضة العلمية ، والتشريعية .

ولما استقالت وزارة رياض باشا سنة ١٨٩١ ، لزم المترجم بيته ثم سافر إلى بلده لتفقد أملاكه وإصلاحها ، بعد أن تركها وأهمل شأنها طوال السنين ، لاشتغاله بالمصالح العامة ، وهناك مرض بداء المثانة ، فعاد إلى مصر .

وفاته

وألحّ عليه المرض ، إلى أن وافته المنية بمصر فى منزله بالحلمية الجديدة ، فى ١٤ نوفبر سنة ١٨٩٣ ، فانطفأ المصباح الذى أضاء البلاد بأنوار العلم والعرفان ، أربعين سنة ونيفا ، وأقفلت المدارس حداداً على أبيها ، وارتجت البلاد حزناً على فقيدها وانتقل المترجم إلى عالم الخلود ، تاركا ذكرى مجيدة ، حافلة بما أسداه لمصر من جلائل الأعمال .

الجمعيات العلمية

الجمعيات العلمية هى من الوسائل الفعالة فى نشر العلوم والمعارف ، ومن مظاهر تقدم الأفكار والثقافة فى المجتمع ، وقد إزدان عصر إسماعيل بظهور الجمعيات العلمية ذات الأغراض السامية والمقاصد الجليلة .

المجمع العلمى

المجمع العلمى هو الهيئة العلمية التى أنشأها نابليون فى مصر سنة ١٧٩٨ وسبق لنا الكلام عنها (تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١١٨ — طبعة أولى —) ، وقد ألغى هذا المجمع عند جلاء الفرنسيين ، ثم أعيد إنشاؤه سنة ١٨٥٩ بالإسكندرية فى عهد سعيد باشا ، واستمر قائماً فى عهد إسماعيل يؤدى مهمته فى نشر المباحث العلمية ، وهو قائم إلى اليوم واسمه (مجلس المعارف المصرى) ، ومقره بوزارة الأشغال العمومية ، وله مجلة تنشر مباحثه .

جمعية المعارف (أسست سنة ١٨٦٨)

هى أول جمعية علمية ظهرت فى مصر لنشر الثقافة بواسطة التأليف والطباعة والنشر ، أسسها سنة ١٨٦٨ محمد عارف باشا ، أحد أفاضل العلماء فى ذلك العصر والعضو بمجلس الأحكام ، والغرض من هذه الجمعية نشر العلوم والمعارف بطبع الكتب العلمية وتأليفها وتهذيبها وتلخيصها ، وقد جعلت تحت رعاية الأمير محمد توفيق باشا ولى عهد الأريكة الخديوية وقتئذ ، وتولى وكالتها ورآستها الفعلية محمد عارف باشا ، وتألفت برأس مال موزع على أسهم طرحت للاكتتاب العام ، قيمة السهم ثلاثون قرشاً[١٣] ، واقتنت مطبعة لطبع الكتب التى تولت نشرها ، عدا ماكانت تطبعه فى دار الطباعة الأميرية ، والمطبعة الوهبية . وتولت الجمعية طبع طائفة من أمهات الكتب فى التاريخ والفقه والأدب . منها أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير فى خمسة مجلدات . وتاج العروس من شرح جواهر القاموس . والفتح الوهبى فى شرح العتبى فى مجلدين ، وتاريخ ابن الوردى . وشرح التنوير على سقط الزند (ديوان أبى العلاء المعرى) ، وديوان ابن خفاجة . والبيان والتبيين للجاحظ . وديوان ابن المعتز ، وشرح الشيخ خالد على البردة ، وعنوان المرقصات والمطربات لنور الدين أبى الحسن . والمختصر فى أخبار البشر . ومحاضرات الراغب الأصفهانى . ورسائل بديع الزمان الهمذانى . وغير ذلك من الكتب القيمة .

ولقيت الجمعية إقبالا عظيماً وتعضيداً كبيرا من الطبقات الممتازة فى المجتمع . إذ بلغ عدد أعضائها سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ - ١٨٧٠ م) ٦٦٠ ونيفا ، وردت أسماؤهم فى ذيل كتاب « الفتح الوهبى » ، نذكر هنا طائفة منهم ، نموذجا للطبقات التى اشتركت فى الجمعية . ولكى نتبين مبلغ تعضيد المجتمع فى ذلك العصر للمشروعات العلمية :

إبراهيم بك حليم من قضاة محكمة الإستئناف . إبراهيم أدهم بك وكيل محافظة الإسكندرية . السيد إبراهيم جميعى من أعيان الإسكندرية . السيد إبراهيم بك المويلحى من أعضاء المجلس الابتدائى . أبو زيد أفندى إبراهيم باشمهندس القليوبية . أتربى بك أبو العز من

(١٣) عن لائحة الجمعية المنشورة فى الوقائع المصرية العدد ٣٠١ ، ٧ يونيه سنة ١٨٦٩ .

أعضاء مجلس شورى النواب ، أحمد طلعت باشا كاتب الديوان الخديوى . الشيخ أحمد شرف الدين المرصفى من علماء الأزهر . أحمد رشيد باشا من أعضاء المجلس الخصوصى (مجلس الوزراء) . أحمد خيرى بك مهر دار الخديو . أحمد بك عبيد ناظر قلم ترجمة الكتب الحربية ، الشيخ أحمد البتنونى قاضى طنطا . الشيخ أحمد الأنصارى قاضى طهطا الشيخ أحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب ووكيل الجمعية بالاستانة . أحمد بك فتحى ناظر مدرسة الإسكندرية . أمين بك فكرى ، جعفر مظهر باشا حكمدار السودان . جعفر صادق باشا رئيس مجلس استئناف قبلى . حسن بك الشريعى . الشيخ حسونة النواوى . حسين فخرى بك (باشا) . حسين شرين باشا . خليل باشا يكن . الفريق راشد باشا حسنى . الدكتور سالم بك سالم . الشيخ عبد الرحمن الابيارى . الشيخ عبد الرحمن الرافعى . وعبد اللطيف باشا من أعضاء المجلس الخصوصى . محرم أفندى على عمدة السنبلاوين ومن أعضاء مجلس شورى النواب ، محسن بك . محمد عرفان باشا . السيد محمد بيومى مكرم . السيد محمد المويلحى . الدكتور محمد شافعى بك . مصطفى رياض باشا . يوسف صالح عمدة كفر بهيدة . أحمد رستم العلايلى من أعيام الإسكندرية . الشيخ بدراوى عاشور عمدة بهوت ، الدكتور حسين بك عوف . الشيخ حسنين حمزة من أعضاء مجلس شورى النواب . حماد بك عبد العاطى . على ذو الفقار باشا وزير الخارجية ، محمد مظهر باشا وكيل مجلس الأحكام . إبراهيم أفندى هلال مأمور ضبطية ميت غمر . أحمد صادق باشا ناظر الدائرة السنية . أحمد فريد بك ناظر قلم المحاسبة . السيد أحمد مشرفة ، أحمد ذهنى بك ناظر الجبخانات . الشيخ أحمد باشا من علماء الإسكندرية ، إسماعيل أفندي عبد الخالق وكيل ديوان الرزنامجة . إسماعيل بك زهدى ناظر مدرسة المبتديان . أمين بك سيد أحمد . السيد حسن موسى العقاد . السيد حسن المرقبى ، شفيق بك منصور . إلخ . إلخ .

وقد ظلت الجمعية قائمة تؤدى مهمتها إلى أن اشتد النزاع السياسى بين الخديو إسماعيل والأمير عبد الحليم باشا ، لتنافسهما على عرش الخديوية ، وكان عارف باشا من أنصار حليم باشا ، فهاجر إلى الأستانة خوفا من بطش إسماعيل ، وانحلت الجمعية .

الجمعية الجغرافية الخديوية (أسست سنة ١٨٧٥)

هى من أهم المنشآت العلمية فى مصر ، أسسها إسماعيل باشا سنة ١٨٧٥ ، والغرض منها العناية بالأبحاث الجغرافية والعلمية وتدوينها ونشرها ، وأول رئيس لها هو العالم الألمانى الدكتور جورج شونفرت Schweinfurth ، ووكيلاه العلامة محمود باشا الفلكى ، والجنرال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى ، ولها مجلة دورية تنشر المباحث والاكتشافات . وتؤدى خدمات جليلة للعلم والجغرافية ، وقد رجعنا فى كثير من المواطن إلى المباحث القيمة والخرائط الدقيقة المنشورة فى مجلتها .

الجمعية الخيرية الإسلامية

أنشئت بالإسكندرية سنة ١٨٧٨ (١٢٩٦ هـ) بمسعى السيد عبد الله نديم ومساعده سعد الله بك حلابه من سراة الثغر ، والباعث على إنشائها شعور الخاصة بطغيان النفوذ الأجنبى فى البلاد ، وتدخل الأجانب فى شئونها . واستئثارهم بمرافقها .

فأسست هذه الجمعية لفتح المدارس الحرة لتعليم البنين والبنات ، وتهذيب الأخلاق وإعانة الفقراء ، وقد أنشأت مدرسة بالإسكندرية لتعليم البنين والبنات ، وعقد فيها محفل للخطابة ، كانت تلقى فيه الخطب والمحاضرات مرة فى الأسبوع ، ووضع لها قانون ، وأجرت عليها الحكومة راتبا «سنويا» على سبيل الإعانة ، فاتسع نطاقها ، وذكرت جريدة « التجارة »[١٤] لأديب اسحق نبأ إنشاء هذه الجمعية بالإسكندرية ، وجمعية أخرى بالقاهرة وأخرى بدمياط .

وهى غير الجمعية الخيرية الإسلامية الحالية التى أسست سنة ١٨٩٢ .

الصحافة

لم تظهر فى مصر على عهد عباس وسعيد من الصحف المصرية سوى « الوقائع المصرية » التى أنشأها محمد على باشا . وكانت الحكومة تتولى إصدارها . ولم يظهر غيرها من الصحف

---

(١٤) العدد ٢١ من السنة الأولى – أبريل سنة ١٨٧٨ .

العربية ، وهذا من مظاهر الجمود الذى أصاب النهضة العلمية فى ذلك العهد .

ثم نشطت الحياة العلمية والأدبية فى عصر إسماعيل ، فكان من مظاهرها تأسيس الصحف العلمية والأدبية ثم السياسية ، وقد نهض بالصحافة فى ذلك العصر طائفة من العلماء والأدباء المصريين ، وطائفة أخرى من الأدباء السوريين ، وثمة عامل آخر كان له الأثر البالغ فى نهضة الصحافة ، والنهضة العلمية والأدبية عامة ، وهو تعضيد الخديو إسماعيل لها ، ومساعداته الأدبية والمالية للقائمين عليها .

وإنا ذاكرون هنا الصحف والمجلات التى ظهرت فى عصره .

١ - يجب أولا أن نذكر « الوقائع المصرية » فقد استمرت تصدر بانتظام فى عهد إسماعيل ، وارتقى أسلوبها الإنشائى ، وخدمت النهضة الصحفية خدمة تذكر ، بما كانت تنشره من الفصول العلمية والأدبية ، وكانت تعنى بذكر أخبار الحكومة والأخبار الخارجية ، وتنشر مضابط مجلس شورى النواب ، وتسهب فى وصف الحفلات العامة ، وخاصة الحفلات العلمية والمدرسية ، ثم حفلات سباق الخيل ، التى كان لها شأن كبير فى ذلك العصر ، وتعد « الوقائع » سجلا يصور لنا ناحية من حياة مصر السياسية والاجتماعية فى عصر إسماعيل ، وهى من أهم المراجع الرسمية التى لا يستغنى عنها من يكتب عن تاريخ مصر الحديث .

ونشأ إلى جانب الوقائع صحف أخرى علمية ثم سياسية .

الصحف العلمية والأدبية والحربية

٢ - أسبقها مجلة (اليعسوب) ظهرت سنة ١٨٦٥ ، وهى مجلة شهرية طبية ، أنشأها الدكتور محمد على باشا البقلى وإبراهيم الدسوقى ، ولم تعمر طويلا .

٣ - مجلة (روضة المدارس) أنشأها العلامة على مبارك باشا سنة ١٨٧٠ حين كان وزيراً للمعارف العمومية ، وهى من أجلّ أعماله ، وكانت الوزارة تتولى إصدارها والإنفاق عليها ، والغرض منها إحياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة ، أسندت رآستها إلى العلامة رفاعة بك رافع الطهطاوى ، وتولى تحريرها ابنه على بك فهمى رفاعة (باشا) ، مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن (الحقوق) وقتئذ ، وكان يحرر فيها طائفة من أعلام الأدب والعلوم

فى ذلك العصر ، أمثال على مبارك باشا ، وعبد الله بك فكرى (باشا) ، والشيخ حسين المرصفى ، ورفاعة بك رافع ، وابنه على بك فهمى رفاعة ، والميسو بروكش باشا ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم ، ومحمود باشا الفلكى ، وإسماعيل بك مصطفى الفلكى (باشا) . ومحمد قدرى بك (باشا) والدكتور محمد بك بدر ، وأحمد بك ندا العالم النباتى الشهير ، والشيخ عبد الهادى نجا الابيارى ، والسيد بك صالح مجدى ، وعبد الله أبو السعود أفندى ، محرر صحيفة وادى النيل ، والشيخ عثمان مدوخ أحد أساتذة اللغة العربية بالمدارس التجهيزية ، والشيخ حسونة النواوى ، والشيخ حمزة فتح الله ، فكانت المجلة ميداناً يتبارى فيه فطاحل الكتاب فى ذلك العصر ، وفيها المباحث الطريفة فى العلم والأدب والاجتماع والتاريخ والفلك والرياضيات ، وكانت تصدر مرتين فى الشهر ، وقد صدر العدد الأول منها فى ١٥ المحرم سنة ١٢٨٧ (سنة ١٨٧٠) ، واستمرت تصدر ثمانى سنوات ، فأفادت الثقافة فائدة كبرى ، قال عنها المسيو دور بك مفتش التعليم العام على عهد إسماعيل فى كتابه (١٥) : وهذه المجلة كانت توزع مجانا على التلاميذ ، وقد ساعدت على نشر العلوم والمعارف ، لأنها عودت الطلبة ملكة المطالعة والبحث ، وفتحت صحائفها للنابهين منهم لنشر أبحاثهم القيمة . فكان ذلك يشجعهم ويستحث هممهم على المباحث والجهود المستقلة عن دروسهم » .

وقد أصاب المسيو دور فى قوله ، فإن المجلة كانت تنشر مباحث طريفة لبعض نبهاء التلاميذ ، وقد رأيتُ فيها قصائد رقيقة من نظم المرحوم إسماعيل باشا صبرى ، يتجلى فيها روح الشعر الحديث ، وكان وقتئذ « الشاب النجيب إسماعيل أفندى صبرى أحد تلامذة مدرسة الإدارة » .

فمنها قصيدة فى مدح الخديو إسماعيل بالعدد ٢٠ من السنة الأولى (١٦) قال فى مطلعها :

سَفَرَتِ فلاح لنا هلال سعود ونمى الغرام بقلبى المعمود

وقصيدة أخرى بالعدد ٥ من السنة الثانية قال فى مطلعها(١٧) :

أغرّتك الغراء أم طلعة البدر وقامتك الهيفاء .أم عادل السمر
وشعرك أم ليل تراخى سدوله وثغرك أم عقد تنظم من در

(١٥) التعليم العام فى مصر ص ٢٥٣ للمسيو دوربك

(١٦) غاية شوال سنة ١٢٨٧ .

(١٧) ربيع الأول سنة ١٢٨٨ .

وأخرى بالعدد ٢٣ من السنة الثانية[١٨] استهلها بقوله :

لا والهوى العذرى والوجد عذل عذولى فيك لا يجدى

إنى مع الصدّ وطول الجفا باق على الميثاق والعهد

ويتبين من ذلك أن مدرسة الشعر الحديثة قد بدأت باكورتها تظهر فى مجلة روضة المدارس[١٩] .

٤ و ٥ - جريدة (أركان حرب الجيش المصرى) و (الجريدة العسكرية المصرية) وقد سبق الكلام عنهما ص (١٨٤) .

الصحف السياسية

وظهر من الصحف السياسية :

٦ - صحيفة (وادى النيل) ، أنشأها الشاعر الناثر عبد الله أبو السعود أفندى سنة ١٨٦٧ وهى أقدم صحيفة سياسية ظهرت فى مصر ، وكانت تصدر مرتين فى الأسبوع فى شكل المجلات ، وظلت تصدر إلى أن الغيت بأمر الحكومة سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢م) .

٧ - جريدة (نزهة الأفكار) سنة ١٨٦٩ لمنشئها إبراهيم بك المويلحى ومحمد بك عثمان جلال ، وكانت أسبوعية ، ولم يصدر منها إلا عددان ، ثم عطلها إسماعيل بنصيحة شاهين باشا وزير الحربية ، إذ حذره عواقب لهجتها وما تؤدى إليه من إثارة الخواطر .

٨ - وأنشأ ميخائيل أفندى عبد السيد سنة ١٨٧٧ جريدة (الوطن) ، وكانت سياستها وطنية ، ولهجتها حرة ، وقد استمرت تصدر إلى ما بعد الاحتلال ، ووقفت حيناً ثم عادت إلى الظهور سنة ١٩٠٠ .

٩ و ١٠ - وظهرت سنة ١٨٧٧ جريدة (مصر) وهى جريدة أسبوعية ، لمحررها أديب اسحق ، ومديرها سليم النقاش ، وأنشأ سنة ١٨٧٨ صحيفة يومية بالإسكندرية باسم جريدة (التجار) ، وسياسة الصحيفتين وطنية حماسية ، تجلت فيها تعاليم جمال الدين الأفغانى وروحه ، وكانت له فى الجريدتين بعض الرسائل ، يكتبها هو أو يمليها على تلاميذه وقد ألغاها

---

(١٨) ١٥ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ .

(١٩) عن كتابنا « عصر محمد على » ص ٤٩٧ . (الطبعة الأولى)

رياض باشا سنة ١٨٨٠ .

١١ – جريدة روضة (الأخبار) لصاحبها محمد بك أنسى نجل عبد الله أبو السعود أفندى ، أنشأها بدل صحيفة (وادى النيل) التى عطلتها الحكومة كما أسلفنا ، وكان عبد الله أبو السعود أفندى يحرر قسمها السياسى إلى آخر أيامه .

وقد ذكرها على باشا فى الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٦٩ ، وذكرها أيضاً أديب اسحق فى جريدة (التجارة) بالعدد الصادر فى ٢٩ مايو سنة ١٨٧٨ ، لمناسبة اعتزام صاحبها تغيير اسمها باسم (النيل) ، وصدرت بهذا الاسم سنة ١٨٧٨ .

١٢ – جريدة (الكوكب الشرق) لصاحبها سليم (باشا) الحموى ، صدرت بالإسكندرية سنة ١٨٧٣ ، ولم تعمر طويلا وذكرت « الوقائع المصرية » بالعدد ٤٢٩ الصادر فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٧١ أن سليم حموى أنشأ مكتبة بالإسكندرية وقاعة للمطالعة بها .

١٣ – جريدة (الأهرام) لسليم (بك) وبشارة (باشا) تقلا صدرت سنة ١٨٧٥ بالإسكندرية ، (والآن بالقاهرة) ، وقد لاقت فى مبدأ صدورها عقبات جمة ، ثم نالت حظًّا كبيرًا من الرواج ، وكانت فى مبدأ ظهورها أسبوعية ، ثم صدرت بجانبها جريدة (صدى الأهرام) يومية حتى عطلت ، ثم انفردت (الأهرام) بالظهور وصارت يومية ، واستمرت تصدر إلى اليوم ، فهى أقدم الصحف المصرية السياسية .

١٤ – جريدة (الإسكندرية) جاء ذكرها فى جريدة (التجارة) بالعدد ٥ يونيه سنة ١٨٧٨ إذا قالت إن سليم أفندى حموى عزم على إصدار جريدة أسبوعية تسمى (الإسكندرية) ، وقد صدرت فعلاً فى يوليه سنة ١٨٧٨ .

١٥ – جريدة (الكوكب المصرى) للشيخ محمد وفاء ، ذكرتها جريدة التجارة بالعدد ٣ من السنة الثانية (١٩ مايو سنة ١٨٧٩) .

١٦ – (مرآة الشرق) ، وهى جريدة سياسية أنشأها سليم عنحورى ، ثم تنحى عنها فى أبريل سنة ١٨٧٩ ، وتولاها إبراهيم أفندى اللقانى (بك) بإيعاز من السيد جمال الدين الأفغانى .

١٧ و ١٨ – وأنشأ الشيخ يعقوب صنوع صحيفتين سياسيتين ، وهما (مرآة الأحوال) صدرت فى لندن سنة ١٨٧٦ ، و (أبو نضارة) صدرت سنة ١٨٧٧ بالقاهرة ، وهى صحيفة معارضة لإسماعيل ، وكان الشيخ يعقوب صنوع مصريًا إسرائيليًا ، متعلقا بالصحافة ، يميل

إلى الدعابة فى كتابته ، واتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى ، وقيل إنه هو الذى أوعز إليه إصدار جريدته لانتقاد سياسة إسماعيل[٢٠] فأصدرها ، وكانت أول جريدة هزلية سياسية صدرت فى مصر ، وقد نفاه إسماعيل من مصر ، فرحل إلى باريس واستأنف إصدار جريدته بأسماء مختلفة معارضاً الخديو منتقداً أعماله ، ولم يكن يخلو عدد منها من صور هزلية تنطوى على التعريض الشديد بالخديو إسماعيل ، فلقيت رواجاً عظيماً ، واستمر الشيخ أبو نضارة يصدر جرائده إلى ما بعد الاحتلال ، وكان معاديا لسياسة الانجليز ، وتوفى فى سنة ١٩١٢ .

وأغلب الصحف السياسية التى كانت تصدر فى مصر ظهر كما ترى فى أواخر عصر إسماعيل ، وقد أطلق لها حرية الكتابة ، وكان يميل إلى هذه الحرية فى أواخر عهده ، حين اصطدم بالمطامع الأوروبية ، وشعر بوطأة التدخل الأجنبى ، فكانت الصحافة تحمل بحق على هذا التدخل حملات صادقة ، ووافقت هذه الخطة لإسماعيل ، فلا غرو أن أطلق للصحف حرية الكتابة ، لكنه لم يكن يرضى منها أن تتعرض لشخصه أو تنتقد أعماله .

وكان لهذه الصحف عامة فضل كبير فى إنارة البصائر والأفكار ، وتوجيه الأنظار إلى العناية بشئون البلاد العامة ، وانتقاد الأعمال الضارة التى تصدر عن الحكومة ، فكانت أداة لظهور حرية الآراء السياسية ، ولها الفضل أيضا فى نشر العلوم والمعارف ، وتهذيب لغة الكتابة ، وترقية أساليب الانشاء ، فكانت من هذه الناحية من عوامل نهضة الأدب فى العصر الحديث .

الصحف الإفرنجية

وظهر فى هذا العصر عدة صحف أوروبية ، منها جريدة (الفارد الكسندرى) أنشئت بالإسكندرية سنة ١٨٧٤ ، وجريدة البروجريه اجبسيان **Le Progres Egyptien** وهى صحيفة معارضة لإسماعيل وجريدة (الريفورم) **La Reforme**

---

(٢٠) عن ترجمة يعقوب صنوع المسمى بالشيخ (أبى نضارة) فى تاريخ الصحافة للفيكونت فيليب دى طرزاى ج ٢ ص ٢٨٢ .

الطباعة

تقدمت الطباعة وأدركت شأوًا كبيرًا فى عهد إسماعيل ، فقد وجه عنايته إلى مطبعة بولاق ، ونهض بها حتى ضارعت المطابع الكبرى ، وكان يتولى نظارتها حسين بك حسنى (باشا) ، الذى كان له الفضل الكبير فى نهضتها ، وظل يتولى نظارتها إلى ما بعد الاحتلال ، وأسس إسماعيل مصنعا للورق ، تولى إدارته كذلك حسين بك حسنى مدير دار الطباعة ، وأخذ هذا المصنع منذ سنة ١٨٧١ يورد الأوراق اللازمة لمصالح الحكومة ولطبع المؤلفات العلمية ، وكذلك الأوراق والدفاتر اللازمة للتجار[٢١] .

حسين حسنى باشا

ويعد حسين حسنى باشا هذا من أركان النهضة العلمية والأدبية ، إذ كان له فضل كبير فى إحياء العلوم بواسطة الطباعة والنشر.

وهو من خريجى مدرسة المهندسخانة ، أتم دراسته فيها ثم تولى تدريس العلوم الرياضية بها ، وانتقل إلى مطبعة بولاق سنة ١٢٦٨ هـ بوظيفة كاتب ومصحح بالوقائع المصرية ، وارتقى حتى صار ناظراً لها ، وهو من نوابغ علماء الرياضيات والميكانيكا فى عصره ، وقد زار كثيرًا من دور الطباعة ومصانع الورق فى أوروبا ، باحثاً منقباً ، وجلب منها عدة ماكينات مستحدثة ، ركبها فى مطبعة بولاق ، وفى سنة ١٢٨٤ جلب من لندن الماكينات اللازمة لتأسيس مصنع الورق ، فأنشأه بجوار مطبعة بولاق ، وجاء من أحسن معامل الورق إتقانا وإحكاما ، وأنتج من الورق ماكاد يعطل ما يرد من أوروبا ، وكانت جميع تكاليفه وثمن آلاته تستوفى من ربح المطبعة والمصنع ، وذلك بفضل مهارة حسين بك حسنى ونزاهته ، ذكر عنه العلامة على باشا مبارك «أنه أحيا روح المطبعة الأميرية ونشر صيتها فى جميع الأقطار[٢٢] » ، وتوفى سنة ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م) .

---

(٢١) الوقائع المصرية العدد ٤١٠ (أول يونيه سنة ١٨٧١)

(٢٢) عن ترجمته فى الخطط التوفيقية ج ٢ ص ١٢١ .

وأنشئت عدة مطابع أخرى لطبع الصحف والمؤلفات كان لها الفضل الكبير فى إحياء نفائس الكتب القيمة فى الأدب والعلم ، وتولت طبعها وطبع المؤلفات الحديثة .

فمن هذه المطابع مطبعة جمعية المعارف المتقدم ذكرها .

والمطبعة الأهلية القبطية التى جلبها من أوروبا الأنبا كرلس الرابع سنة ١٨٦٠ فى عهد سعيد باشا ، وهى أول مطبعة أنشئت فى مصر بعد مطبعة بولاق .

ومطبعة (وادى النيل) أنشأها عبد الله أبو السعود أفندى ، وكان يطبع فيها صحيفة (وادى النيل) ، ومجلة روضة المدارس ، وجريدة (أركان حرب الجيش المصرى) .

و (المطبعة الوطنية) بالإسكندرية .

والمطبعة الوهبية ، انشئت سنة ١٢٨٠ هـ لمؤسسها مصطفى أفندى وهبى (بك) ، ومطبعة أركان حرب الجيش المصر التى سبق الكلام عنها .

ومن أمهات الكتب التى طبعت فى ذلك العصر وكان لها الفضل الكبير فى النهضة العلمية والأدبية : كتاب المثل السائر ، لأبى الفتح الموصلى ، والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى . وتاريخ ابن خلدون ومقدمته ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وفقه اللغة للثعالبى . ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات ، وإحياء العلوم للغزالى ، وتفسير الفخر الرازى ، والبخارى (شرح القسطلانى) ، وسفينة الراغب ، وحياة الحيوان ، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وقانون ابن سينا فى الطب ، وتذكرة داود ، وغير ذلك من نفائس الكتب .

مظاهر النهضة العلمية والأدبية

اقترن عصر إسماعيل بالنهضة العلمية والأدبية التى ظهرت فى إبان النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ولهذه النهضة عوامل شتى ، أولها انتشار التعليم فى المدارس والمعاهد ، وظهور طائفة من العلماء والأدباء ممن تخرجوا فى مدارس والبعثات أو فى الأزهر على عهد محمد على وخلفائه ، وقد ظهرت ثمار قرائحهم على توالى السنين ، وخاصة فى عهد إسماعيل ، إذ كان يشجع أكثرهم ويعضدهم ، ويسند إليهم المراكز الممتازة فى الحكومة ويمدهم بالمنح السخية ، فكانت هبات إسماعيل أكبر عضد للنهضة العلمية والأدبية ، وكان لانتشار التعليم فى المدارس

عامة أثر كبير فى نموها وتقدمها ، إذ تألفت بيئة صالحة من المتعلمين تؤيدها وتناصرها بالإقبال على ما تنتجه قرائح العلماء والأدباء ، ولولا هذا الإقبال لخمدت القرائح ، وكسدت سوق العلم والأدب ، وثمة عامل آخر ، وهو مجىء السيد جمال الدين الأفغانى سنة ١٨٧١ إلى مصر وإقامته بها ، فقد نفخ فى الحياة العلمية والأدبية ثم السياسية روحًا من اليقظة خطت بها خطوات واسعة إلى الأمام.

ومن عوامل هذه النهضة ظهور الجمعيات العلمية ، وتقدم الطباعة ، وظهور الصحافة ، ونشاط حركة التأليف والترجمة والنشر ، ففى عصر إسماعيل ازدهرت الحركة العلمية والأدبية التى هى أساس النهضة الحاضرة ، ونشط الأدب والشعر ، وظهرت طبقة من الشعراء بدا على شعرهم أسلوب العصر الحديث ، من حسن الديباجة ، وصفاء القريحة ، وبلاغة العبارة ، وتهذب أسلوب الكتابة والإنشاء ، وأخذ يتخلص من شوائب التعقيد والركاكة ، والسجع المتكلف ، وهبت عليه نسمة الترسل البليغ والمعانى الطريفة .

وظهرت طائفة من العلماء المؤلفين والمعربين توفروا على إخراج الكتب القيمة فى الطب والرياضيات والتاريخ والفقه والتشريع وما إلى ذلك .

وارتقى مستوى المناصب الحكومية ، إذ تولاها المتخرجون من المدارس والمعاهد والبعثات ، فظهرت ثمار النهضة فى فروع الحكومة ، كالتعليم والرى والهندسة والإدارة والقضاء والصحة والجيش والاسطول .

وكان للنهضة العلمية والأدبية أثرها فى تقدم الحياة الاجتماعية ، ثم الحياة الوطنية والسياسية ، مما سنعود إليه فى موضعه .

والآن يسوقنا الحديث إلى الكلام عن أعلام هذه النهضة ، وسنقصر القول على خلاصة وجيزة لتراجم أولئك الأعلام الذين اكتملت شخصياتهم فى هذا العصر ؛ فمن هذه الخلاصة تجتمع لنا صورة عامة للحياة الأدبية والعلمية فى عصر إسماعيل .

أعلام الأدب





جمال الدين الأفغاني





عبد الله باشا فكري



علي باشا مبارك



الشيخ علي الليثي



محمد بك عثمان جلال



محمود باشا سامي البارودي



ابراهيم بك المويلحي







في عصر إسماعيل



أعلام الأدب فى عصر إسماعيل

رفاعة بك رافع الطهطاوى ، وعلى باشا مبارك

أدرك رفاعة بك عصر إسماعيل ، وله الفضل الكبير على العلم والأدب كما أسلفنا فى ترجمته (عصر محمد على ص ٤٧٠ من الطبعة الأولى و ٣٨٢ من الطبعة الثانية) .

وعلى باشا مبارك هو صاحب الأيادى البيضاء على الأدب والعلم والتعليم فى مصر كما بينا ذلك فى ترجمته .

السيد جمال الدين الأفغانى

هو باعث روح الحياة فى النهضة العلمية والأدبية والسياسية ، فواجب أن نعده فى مقدمة أعلام الأدب فى عصر إسماعيل ، وسنترجم له فى الفصل الثانى عشر .

الشيخ حسين المرصفى

(توفى سنة ١٨٨٩)

شيخ الأدباء فى ذلك العصر ، وأستاذ الطبقة الأولى من دار العلوم ، نشأ فى (مرصفى) بالقليوبية ، وهى بلدة أنجبت طائفة من أعلام الأدب والفقه واللغة ، كان والده الشيخ أحمد حسين المرصفى من أئمة العلم فى عصره ، وانقطع للتدريس بالأزهر ، ونشأ المترجم ميالا للعلم والأدب ، ذكر عنه العلامة على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية (ج ١٥ ص ٤٠) أنه « من أجلاء العلماء وأفاضلهم ، له اليد الطولى فى كل فن ، وقل أن يسمع شيئا إلا ويحفظه ، مع رقة المزاج ، وحدة الذهن ، وشدة الحذق » ، وتصدر للتدريس فقرأ بالأزهر كبار الكتب ، ثم تولى تدريس اللغة والآداب فى دار العلوم ، وتعلم اللغة الفرنسية ، وله مؤلفات قيمة منها :

١ – الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية طبع بمصر سنة ١٢٨٩ هـ فى جزأين .

٢ – وله كتاب فى الأدب والاجتماع سماه (الكلم الثمان) فى الأمة والوطن والحكومة والعدل والظلم والسياسة والحرية والتربية .

محمود باشا سامى البارودى

(١٨٤٠ – ١٩٠٤)

باكورة الأعلام فى دولة الشعر الحديث ، وأول من نهض به وجارى فى نظمه فحول الشعراء المتقدمين ، كانت نشأته الأدبية والحربية فى عصر إسماعيل ، وسطع نجمه فى سماء الأدب على ذلك العهد ، ثم اقترن اسمه بعصر الثورة العرابية ، وكان له فيها الدور الكبير ، وسنترجم له فى موضعه من كتاب (الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى) .

عبد الله أبو مسعود أفندى

(١٨٢٠ – ١٨٧٨)

أول صحفى سياسى ظهر فى تاريخ مصر الحديث ، ولد فى دهشور قرب الجيزة ، وأصله من برقه ، تلقى العلم فى مدرسة البدرشين ثم انتقل إلى مدرسة الألسن ، وتخرج منها على يد رفاعة بك ، فهو من تلاميذه الأفذاذ ، وكان يحضر دروس الأزهر ، وأتقن اللغات العربية والفرنسية والإيطالية ، ونبغ فى فنون الأدب والشعر ، وارتقى فى المناصب حتى صار فى عهد إسماعيل ناظر قلم الترجمة المستجد وأستاذ التاريخ بدار العلوم ، وأنشأ سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) صحيفة (وادى النيل) كما تقدم بيانه .

ونظم حوادث مصر فى كتاب سماه (منحة أهل العصر بمنتقى تاريخ مصر) ، ووضع كتاب (الدرس العام فى التاريخ العام) طبع قسم منه سنة ١٢٨٩ ، وعرب كتاب (تاريخ مصر القديمة) لمربيت باشا ، إلخ ، وله ديوان شعر مطبوع ، وله أرجوزة نظم فيها سيرة محمد على . وشارك رفاعة بك وتلاميذه فى ترجمة الكود (قانون نابليون) ، وتولى هو وحسن أفندى فهمى المصرى تعريب قانون المرافعات .

وجُعل سنة ١٨٧٦ قاضياً بمحكمة الاستئناف ، وتوفى فى فبراير سنة ١٨٧٨ ، وهو من نوابغ الأدباء والعلماء فى عصر إسماعيل .

الشيخ محمد عبده

(توفى سنة ١٩٠٥)

الاستاذ الإمام، وفيلسوف الإسلام، «أكتب العلماء وأعلم الكتاب[٢٣]»، كانت نشأته العلمية والأدبية فى عصر إسماعيل، وانضوى إلى لواء السيد جمال الدين الأفغانى، وصار من خاصة تلاميذه منذ قدم السيد إلى مصر سنة ١٨٧١، فكان لهذه الفترة من الزمن الأثر الأكبر فى اتجاهه العلمى والروحى، وكتب بعض الرسائل فى صحيفتى (التجارة) و (مصر) لأديب أسحق، ثم عظمت شخصيته فى عصر الثورة العرابية كما سيجىء بيانه فى كتابنا (الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى).

إبراهيم بك المويلحى

(١٨٤٦ - ١٩٠٦)

زعيم الكتاب فى عصره، وأستاذ المدرسة الحديثة فى الأدب والإنشاء، من أسرة المويلحى الشهيرة، وهى أسرة عربية، أصلها من «المويلح» من ثغور الحجاز التى كانت تابعة لمصر، وكان جده السيد إبراهيم المويلحى من كبار موظفى الحكومة فى عهد محمد على، يميل للأدب والأدباء، فورث عنه المترجم هذا الميل، وكان أبوه من سراة مصر، وله بيت تجارى كبير اشتهر بصناعة الحرير وتجارته.

ولد المترجم فى أوائل سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٦ م) وترعرع فى حجر والده، فى مهاد العز والنعمة، إلى أن توفى أبوه سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) وهو لا يتجاوز العشرين بكثير فتولى تجارة أبيه مشاركا أخاه عبد السلام المويلحى (باشا)، ولكنهما لم يوفقا فى التجارة وآل بيت المويلحى من الناحية المالية إلى الخسران، لولا مروءة الخديو إسماعيل، فقد نظر إلى هذا البيت نظرة عطف وسخاء، فوهب المترجم وأخاه من المال ما فى ديونهما ثم انعم على إبراهيم بالرتبة الثانية، وجعله قاضيا بمحكمة الاستئناف، وهو فى الثامنة والعشرين من عمره وأنعم

(٢٣) تعبير «المنفلوطى» فى «مختاراته».

على عبد السلام بهذه الرتبة أيضاً ، وابقاه يزاول التجارة استبقاء لهذا البيت التجارى القديم .

وظهر ميل المترجم إلى الأدب من مشاركته محمد عارف باشا فى تأسيس جمعية المعارف التى عنيت بإحياء الكتب العربية ، وقد سبق الكلام عنها ، ثم اشترك مع محمد بك عثمان جلال فى إصدار جريدة سياسية اسمها (نزهة الأفكار) ولكن لم يصدر منها إلا عددان وصدر أمر إسماعيل بإلغائها .

وكان المترجم من تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى ، وقد اتصل من طريقه بالحركة السياسية التى ظهرت فى عصر إسماعيل ، والتى انتهت بوضع اللائحة الوطنية وتأليف وزارة شريف باشا الأولى كما سيجىء بيانه فى موضعه ، وعين سكرتيرًا لإسماعيل راغب باشا وزير المالية فى الوزارة الوطنية ، وكان المترجم من رجال إسماعيل المخلصين لشخصه . المغمورين بكرمه ، ولازمه فى منفاه عدة سنوات ، اشتغل خلالها بالصحافة حيناً ، ثم ذهب إلى الاستانة سنة ١٨٨٥ ، فأكرم السلطان عبد الحميد وفادته ، وعينه عضواً فى مجلس المعارف ، وظل فى هذا المنصب نحو تسع سنوات ، ثم عاد إلى مصر ، وكتب فى الصحف مقالات جامعة فى الأدب والسياسة والاجتماع ، جمع بعضها فى كتاب سماه (ما هنالك) ، ثم أنشأ صحيفة (مصباح الشرق) وهى صحيفة أسبوعية نالت فى عالم الأدب والكتابة مكانة لم تبلغها صحيفة أخرى ، وله فيها المقالات الرائعة التى كادت تبلغ عليا مراتب البلاغة والإنشاء لولا ما شابها من الإقذاع فى الهجو ، والتقلب مع الأهواء ، وتوفى فى ٢٩ يناير سنة ١٩٠٦ .

محمد بك عثمان جلال

(١٨٢٨ – ١٨٩٨)

واضع أساس القصة الحديثة فى الأدب المصرى ، ولد فى (ونا القس) بمديرية بنى سويف وتلقى العلم فى مدرسة قصر العينى (وكانت لم تزل مدرسة إعدادية) ، ثم فى مدرسة أبى زعبل ، ثم فى مدرسة الألسن ، فهو من تلاميذ رفاعة بك رافع الطهطاوى ونبغ فى العلوم وبدا عليه الميل إلى الشعر والأدب والتعريب ، وكان ميالاً إلى الفن الروائى يجيد التعريب فيه مع تمصير ما يعربه أحياناً . وله كتاب (العيون اليواقظ) وهو تعريب شعرى لروايات لافونتين ومواعظه . ويعد هذا الكتاب أعظم آثاره الأدبية وأشهرها ، وعرب رواية (بول وفرجينى)

عن الفرنسية . ووضع كتاب (التحفة السنية فى لغتى العرب والفرنسيوية) منظومة ، وعرب بعض الروايات التمثيلية . منها (ترتوف) لموليير . عربها بتصرف وأسماها (الشيخ متلوف) بعد أن أسبغ عليها مسحة مصرية ، وقد مثلت هذه الرواية على المسارح فى مصر ، وله أرجوزة فى رحلة الخديو سنة ١٨٨٠ .

أدرك المترجم عصر محمد على وخلفائه إلى أوائل عهد عباس الثانى ، وشغل مناصب عدة فى الحكومة ، وآخر ما تولاه منها منصب القضاء فى المحاكم المختلطة سنة ١٨٨١ ، وأحيل إلى المعاش سنة ١٨٩٣ ، وتوفى سنة ١٨٩٨ عن سبعين سنة .

عائشة عصمت تيمور
(١٨٤٠ – ١٩٠٢)

« طليعة اليقظة النسوية [٢٤] » فى تاريخ مصر الحديث ، وأول من نبغ من المصريات فى الشعر والأدب ، نشأت من بيت كريم ؛ إذ كان أبوها إسماعيل باشا تيمور ، أحد كبار الحكام فى عصر عباس الأول وسعيد وإسماعيل ، وشقيقها العلامة أحمد باشا تيمور ، بدت عليها ملكة الأدب والشعر وهى بين السابعة والثالثة عشرة ، ورأى أبوها منها هذا الميل ، فعنى بتثقيفها ، وأحضر لها أستاذين لتأخذ عنهما الأدب والعلوم ، وقالت الشعر وهى فى الثالثة عشرة ، فأعجب بها والدها وحبب إليها إجادته ، فأكبت على نظم الشعر بلغات ثلاث ، الفارسية والعربية والتركية ، وتزوجت فى الرابعة عشرة بمحمد بك توفيق بن محمود بك الاسلامبولى ، فشغلتها الحياة الزوجية عن الأدب حينا ، فلما شبت ابنتها (توحيدة) عهدت إليها شئون المنزل ، وبعد وفاة والدها سنة ١٨٨٢ وزوجها سنة ١٨٨٥ تفرغت للشعر والأدب . وأتقنت النحو والعروض على يد معلمتين من أهل العلم فى هذا العصر ، هما فاطمة الأزهرية ، وستيتة الطبلاوية ، وعادت إلى نظم الشعر ، ثم توفيت ابنتها توحيدة فاشتد حزنها عليها ، وشغلت بالذكرى والبكاء سبع سنين عددا ، ثم عادت إلى الكتابة والشعر ، وكانت وفاتها سنة ١٩٠٢ .

---

(٢٤) تعبير الكاتبة الأديبة (الآنسة مى) فى ترجمتها لعائشة عصمت تيمور .

ولها من الآثار الأدبية « حلية الطراز » وهو ديوان شعرها العربى ؛ و « شكوفة » وهو ديوانها التركى والفارسى ، « و « نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال » وهى قصة أدبية كتبتها بأسلوب المقامات .

عبد الله باشا فكرى

(١٨٣٤ — ١٨٨٩)

من أعلام الأدب فى عصر إسماعيل ، ولد بمكة المشرفة ، وكان أبوه محمد أفندى بليغ قد تخرج فى المدارس الملكية التى أنشأها محمد على ، ومهر فى العلوم الرياضية ، إلى أن صار من المهندسين . والتحق بخدمة الحكومة وحضر مواقع حربية ، أهمها فى حرب الموره ، فعقد فى الموره على والدة المترجم ، وعاد بها إلى الحجاز ، فوضعت بمكة غلاما هو صاحب الترجمة، وسمى باسم جده الشيخ عبد الله أحمد علماء الأزهر ، ثم عاد بليغ أفندى إلى مصر ، وما زال فى خدمة الحكومة ، حتى تقلد منصب باشمهندس الشرقية ، ثم مفتش هندسة الجيزة والبحيرة ، وتوفى سنة ١٢٦١ هـ . والمترجم لم يتجاوز الحادية عشرة ، فأخذ يطلب العلم بالأزهر وأتقن اللغة العربية وعلومها ، والحديث والتفسير والمنطق ، وتعلم اللغة التركية أيضا . والتحق بالمناصب مع استمراره حينا على تلقى العلوم بالأزهر ، وانتظم فى عهد سعيد باشا بالمعية السنية ؛ وتولى كتابة الإنشاءات الديوانية بالعربية والتركية ، واستمر بالمعية إلى عهد إسماعيل ؛ ورافقه فى رحلته إلى الاستانة ، وظل متصلا به ، مشمولا برعايته وعهد إليه سنة ١٢٨٤ ملاحظة تعليم أنجاله الأمراء فاضطلع بهذه المهمة وكان يلاحظ الدروس التى تلقى إليهم وأحيانا يدرس لهم بنفسه .

وكان يتولى كتابة رسائل الخديو إسماعيل فى مهام الدولة ، فنهض بأسلوب الكتابة الرسمية ، ومعظم هذه الرسائل منشور فى (الفوائد الفكرية) ، وتدرج فى المناصب على عهد إسماعيل وتوفيق ، ولما انشئت إدارة المكاتب الأهلية بوزارة المعارف جعل وكيلا لها سنة ١٨٧١ ، وصار وكيلا لوزارة المعارف فى يوليه ١٨٧٩ ، واستمر يشغل هذا المنصب إلى ديسمبر سنة ١٨٨١ ، إذ تألف مجلس النواب على عهد الثورة العرابية ، فجعل كبير كتاب المجلس ، ولما استقالت وزارة شريف باشا وألف محمود باشا سامى البارودى الوزارة فى فبراير سنة ١٨٨٢ ،

اشترك المترجم فيها متولياً وزارة المعارف العمومية ، فكان عضواً فى « وزارة الثورة » التى عارضت الخديو توفيق باشا واستقالت احتجاجًا على مسلكه فى مايو سنة ١٨٨٢ ، ومن هنا سخط الخديو على المترجم ، فلما أخفقت الثورة كان من المقبوض عليهم بتهمة الاشتراك فى الفتنة ، ثم أطلق سراحه بعد أن أثبت براءته منها ، ولكن معاشه كان موقوفاً من يوم اعتقاله ، فالتمس من توفيق باشا العفو عنه فى قصيدة طويلة أبان فيها عن إخلاصه وولائه لسدته ، فأمر بإعادة معاشه ، وفى سنة ١٣٠٦ هـ ندبته الحكومة لرآسة الوفد المصرى فى المؤتمر الذى انعقد بمدينة استوكهلم عاصمة السويد والنرويج ، وعرج على بعض بلاد أوروبا ، يصحبه نجله أمين باشا فكرى ، ولما عاد اشتد به مرض أصابه أثناء رحلته ، حتى وافاه الأجل يوم ١٠ المحرم سنة ١٣٠٧ ، وكان كاتباً أديباً وشاعراً بليغاً .

الشيخ عبد الهادى نجا الإبيارى

(١٨٢١ – ١٨٨٨)

من كبار الأدباء واللكتاب فى ذلك العصر ، وصفه على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية (ج ٨ ص ٢٩) بالحبر الهمام وفخر العلماء الأعلام ، الإمام الأريب واللوذعى الأديب ، الشاعر الناثر ، الحافظ الماهر ، العلامة الشيخ عبد الهادى نجا ابن العلامة الشيخ رضوان الابيارى ، ولد فى إبيار غربية ، وتلقى العلم فى الأزهر على يد شيوخه ، ونبغ فى علوم اللغة والفقه والأدب ، فذاعت شهرته ، وعهد إليه الخديو إسماعيل تثقيف أبنائه وتعليمهم ، ومنهم الأمير توفيق باشا ، وكان وهو يتولى هذا المنصب يتصدر للتدريس فى الأزهر وفى بيته ، وأخذ عنه كثيرون من جلة العلماء ، كالشيخ حسن الطويل ، والشيخ محمد البسيونى ، ولما تولى توفيق باشا الأريكة الخديوية قربه اليه وجعله إماما للمعية ومفتيها ، وشغل هذا المنصب حتى وفاته ، وكان كاتباً أديباً ، راسل أعلام الأدب فى سائر الأقطار كأحمد فارس الشدياق والشيخ ناصيف اليازجى والشيخ إبراهيم الأحدب ، وله مؤلفات قيمة فى الأدب واللغة بلغت أربعين كتاباً » .

السيد عبد الله نديم

(١٨٤٣ - ١٨٩٦)

الكاتب الشاعر الأديب ، والخطيب الوطنى المفوّه ، أحد تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى ، ومن الذين استمسكوا بتعاليمه ومبادئه طول حياته ، ولد بالإسكندرية ، ونشأ محبًّا للأدب ، ميالاً للخطابة والشعر ، جريئًا مقدامًا ، مولعًا بالحرية ، بدأت شخصيته الأدبية والسياسية تظهر فى أواخر عهد إسماعيل ، وبدأ ينشر رسائله فى جريدتى (مصر) و (التجارة) ، وأسس سنة ١٨٧٩ الجمعية الخيرية الإسلامية بالإسكندرية ، التى ضمت أعيان الثغر ووجهاءه ، وكانت باكورة أعمالها إنشاء مدرسة أهلية لتعليم البنين والبنات ، وهو أكبر خطباء الثورة ، وله فيها دور كبير سنفصله فى موضعه من كتاب (الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى) .

أديب اسحق

(١٨٥٦ - ١٨٨٥)

الشاعر الثائر ، والصحفى السياسى الحر ، ولد فى دمشق ، وبدا منه منذ صباه الميل إلى الشعر والأدب ، والتعلق بالحرية ، فما أن جاء مصر حتى اتصل بجمال الدين وصار من أخلص تلاميذه ، وأصدر جريدة (مصر) ثم جريدة (التجارة) وامتازتا بالأسلوب البليغ والروح الوطنية ، وكان السيد جمال الدين يكتب فيهما أحيانا ، وكذلك الشيخ محمد عبده ، ولقيت الصحيفتان إقبالا عظيماً ، ثم ألغيتا بأمر رياض باشا ، وهجر أديب أسحق مصر سنة ١٨٨٠ ، ورحل إلى باريس حيث أصدر فيها جريدته باسم (القاهرة) ، وهناك أصيب بعلة الصدر ، وعاد إلى بيروت ، ثم رجع إلى مصر فى عهد الثورة العرابية ، وأعاد إصدار جريدة (مصر) ، وعين رئيساً لقلم الترجمة بوزارة المعارف ، ثم كاتبًا ثانيًا لمجلس النواب ، ولما أخفقت الثورة هاجر من مصر ضمن من هاجروا إلى سوريا ، واشتدت به علة الصدر ، فجاء مصر للاستشفاء ، فلم تتقدم صحته ، فعاد إلى بيروت ، ولم يمض عليه ثلاثون يوما حتى عاجلته المنية سنة ١٨٨٥ وهو فى ريعان الشباب ، وقد جمعت أقواله وأشعاره فى كتاب اسمه « الدرر » .

الشيخ الليثى

(توفى سنة ١٨٩٦)

شاعر الخديو إسماعيل ، وشيخ الندماء فى عصره ، كان أديبا ذكى الفؤاد ، حاضر البديهة ، لطيف العشرة ، حلو الحديث ، خفيف الروح ، محبًّا للخير ، محبوبًا من معاصريه . قربه إليه الخديو ، وجعله منشئًا بالمعية » ، وكان يستصحبه فى غدواته وروحاته ، ويحترمه ويأنس لسمره وأحاديثه ، وله ديوان شعر لم يطبع .

على أبو النصر المنفلوطى

(توفى سنة ١٨٨١)

من شعراء ذلك العصر المجيدين ، ولد فى منفلوط ، وتعلق منذ صباه بالشعر والإنشاء ، فقربه إسماعيل إليه وجعله «منشئاً بالمعية » ونال جوائزه وهباته ، ورافقه فى سفره إلى الأستانة على عهد السلطان عبد العزيز ، وله ديوان شعر طبع ببولاق سنة ١٣٠٠ هـ .

الشيخ حسن الطويل

(توفى سنة ١٨٩٩)

هو أنبغ من درس المنطق فى مصر قبل حضور السيد جمال الدين الأفغانى ، ومن كبار علماء الأزهر وأساتذة دار العلوم ، وجهابذة المنطق والعلوم الرياضية ، أخذ عنه العلوم الشرعية والرياضية والفلسفية نخبة من علماء مصر وأدبائها ، توفى فى ٤ يوليه سنة ١٨٩٩ .

السيد صالح مجدى بك

(١٨٢٧ — ١٨٨١)

كاتب شاعر ، ومعرب ومؤلف ، ولد بقرية أبى رجوان القبلية سنة ١٢٤٣ هـ وتلقى العلم فى مكتب حلوان من المكاتب النظامية التى أنشأها محمد على باشا ، ثم فى مدرسة الألسن ، فأتقن علوم اللغة العربية ، ودرس الفرنسية ، ومهر فى التعريب على يد أستاذه رفاعة بك رافع

الطهطاوى ، وبعد أن تخرج فى مدرسة الألسن التحق بقلم الترجمة ، وتخصص فى تعريب كتب الرياضيات ، ثم انتقل إلى مدرسة المهندسخانة ، وتولى بها تدريس العربية والفرنسية والترجمة ، وعرب كثيراً من الكتب الرياضية وكانت كلها تدرس فى المدارس ، « وله غير ذلك من الكتب التى تجل عن الحصر » كما يقول عنه العلامة على باشا مبارك (الخطط ج ٨ ص ٢٢) ، وبعد أن قضى عشر سنوات يتولى التدريس فى مدرسة المهندسخانة انتقل إلى ألاى المهندسين والكبورجية ، وتولى ترجمة وتصحيح ما يعرب من الفنون الحربية ، وانتقل فى عهد إسماعيل إلى قلم الترجمة المستجد ، واشترك فى ترجمة (الكود) قانون نابليون ، وتولى هو تعريب قانون تحقيق الجنايات ، واستمر يرقى فى المناصب حتى جعل سنة ١٢٨٧ هـ مأموراً لإدارة المدارس ولما أُنشئت المحاكم المختلطة عين قاضيًا بمحكمة مصر المختلطة ، وشغل هذا المنصب حتى توفى سنة ١٨٨١ ، وكان شاعراً أديباً ، وله ديوان شعر كبير طبع سنة ١٣١٢ هـ ، وله مقالات أدبية فى مجلة (روضة المدارس) ، ووضع كتابا لم يطبع فى ترجمة حياة رفاعة بك رافع اسمه (حلية الزمن بمناقب خادم الوطن) ، وقد أحصى العلامة على باشا مبارك مؤلفاته وتراجمه فبلغت خمسة وستين كتابا ورسالة ، وكتب بيده من الكراريس ما لا يدخل تحت حصر.

إبراهيم بك مرزوق

(١٨١٧ – ١٨٦٦)

شاعر أديب ، أدرك أوائل عهد إسماعيل ، وهو من تلاميذ رفاعه بك ، توفى بالخرطوم سنة ١٨٦٦ ، وله ديوان شعر جمعه محمد بك سعيد ابن جعفر مظهر باشا حكمدار السودان وسماه « الدر البهى المنسوق ، بديوان إبراهيم بك مرزوق » طبع ببولاق سنة ١٢٩٤ هـ .

أبو الوفاء نصر الهورينى

(توفى سنة ١٨٧٤)

من خريجى بعثات محمد على ، وكان يجيد الفرنسية ، وله كتاب « المطالع النصرية للمطابع المصرية فى الأصول الخطية » وكتاب « تسلية المصاب على فراق الأحباب »

محمود صفوت الساعاتى

(توفى سنة ١٨٨٠)

شاعر أديب ، توجه إلى الحجاز ، فأكرم أمير مكة مثواه ، وأبقاه عنده مدة ثم عاد إلى مصر والتحق بالمعية ، وعرف بالساعاتى لبراعته فى فن الساعات ، وإن لم يحترفه ، وله ديوان مطبوع سنة ١٩١٢ .

محمد عارف باشا

من أفاضل علماء ذلك العصر وأدبائه فى اللغتين العربية والتركية ، وقد تجلى ميله إلى العلم والأدب فى إنشائه جمعية المعارف التى سبق الكلام عنها .

أحمد بك عبيد

(توفى سنة ١٨٨٠)

من نوابغ خريجى مدرسة الألسن ، ورئيس قلم الترجمة بوزارة الحربية ، وله تراجم فى الفنون الحربية والرياضية ، وترجم عن الفرنسية تاريخ بطرس الأكبر ، وكان وكيلاً للمحكمة التجارية بالقاهرة ، ثم قاضياً بمحكمة الاسكندرية المختلطة سنة ١٨٧٥ .

خليفة أفندى محمود

من خريجى مدرسة الألسن ، ومن أنبغ تلاميذ رفاعة بك ، التحق بقلم الترجمة وصار رئيس القسم الخاص بترجمة التواريخ والأدبيات فى هذا القلم ، وله تراجم كثيرة فى التواريخ منها (إتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات فى بلاد أوروبا) وهو مقدمة لتاريخ الأمبراطور شارلكان الذى عربه بعنوان (إتحاف ملوك الزمان بتاريخ الأمبراطور شارلكان) . لروبرتستون وليم المؤرخ الانجليزى فى ثلاثة أجزاء طبعت سنة ١٢٦٦ هـ وأدرك أوائل عصر إسماعيل وتوفى سنة ١٢٨١ هـ[٢٥] (١٨٦٤) .

---

(٢٥) كما جاء فى الخطط التوفيقية ج ٨ ص ٢٣ .

بقية أعلام الأدب

وثمة أدباء آخرون . مثل الشيخ محمد قطه العدوى أحد كبار الأساتذة فى مدرسة الألسن ، وقد أدرك أوائل عصر إسماعيل ، والشيخ أحمد عبد الرحيم الأستاذ بمدرسة الألسن ، والشيخ مصطفى سلامة ، وكلاهما من محررى الوقائع المصرية ، والشيخ إبراهيم عبد الغفار الدسوقى كبير مصححى الكتب العلمية واستاذ المستشرق (لين) والمتوفى سنة (١٨٨٣) ، وإبراهيم بك اللقانى أحد تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى ، وكان يكتب فى جريدتى (مصر) و (التجارة) ثم فى (مرآة الشرق) وغيرها من الصحف . والزرقانى الشاعر الأديب . ومحمد أفندى عبد الرازق المتوفى سنة ١٨٧٣ (١٢٩٠ هـ) معرب كتاب (غاية الأرب فى خلاصة تاريخ العرب) للمسيو سديليو طبع سنة ١٢٨٩ هـ . والشيخ حمزة فتح الله وقد بدأت كفايته اللغوية تظهر فى ذلك العهد ، وأمين بك فكرى نجل عبد الله باشا فكرى ، وعلى بك فهمى رفاعة نجل رفاعة بك ، وأحمد بك فتحى ناظر مدرسة رأس التين . وتادرس أفندى وهبى (بك) . ومحمد أفندى فنى ، وعبد السلام أفندى سلمى . والشيخ عثمان مدوخ ، وهؤلاء ظهرت باكورة آثارهم الأدبية فى مجلة (روضة المدارس) .. إلخ . إلخ .

علماء الهندسة والرياضيات

على باشا مبارك . مصطفى بهجت باشا ، محمد مظهر باشا . أحمد فايد باشا ، حسين باشا فهمى المعمار ، أحمد بك السبكى . حسن بك نور الدين . وهؤلاء قد ترجمنا لهم فى « عصر محمد على » ص ٥١٥ وما بعدها (من الطبعة الأولى) .

حسين حسنى باشا وقد ترجمنا له فى الكتاب الحالى ص ٢٥٣ .

محمود باشا الفلكى

(١٨١٥ – ١٨٨٥)

هو محمود باشا حمدى الفلكى ، أنبغ من أنجبتهم مصر الحديثة فى الفلك والرياضيات ، ولد سنة ١٢٣٠ هـ – ١٨١٥ م ببلدة الحصة بمديرية الغربية ، وعنى أخوه بتربيته وأدخله مدرسة الإسكندرية التى أنشئت سنة ١٨٢٤ فى عهد محمد على ، فارتقى إلى رتبة بلوك أمين ،

وكان أخوه قد سبقه إلى دخول هذه المدرسة وتخرج منها ضابطاً فى الأسطول ، ثم انتقل المترجم إلى مدرسة المهندسخانة بمصر ، فبذ أقرانه من التلاميذ فى العلم والذكاء وحسن الاستعداد ، وتخرج من المدرسة سنة ١٢٥٥ هـ وكان من أوائل الناجحين ، فعين أستاذاً مساعداً للعلوم الرياضية بها ، ونال رتبة ملازم ثان ، وكان من تلاميذه وقتئذ على مبارك (باشا) . وبقى يتولى التدريس بالمهندسخانة ، وتعلم اللغة الفرنسية واستطاع أن يعرب بعض الكتب الفرنسية فى الرياضيات ، وأخذ يتقن من ذلك الحين دراسة العلوم الفلكية فى المؤلفات التى وضعها كبار علماء الفلك بفرنسا ، ويدرس هذه العلوم لتلاميذ المهندسخانة ومن تلاميذه فيها إسماعيل (باشا) الفلكى ، وابتكر وضع التقاويم السنوية ، فوضع تقويما لسنة ١٢٦٤ هـ قارن فيه بين التواريخ الهجرية والميلادية والقبطية ، وبيّن مواقع الشمس والقمر لتلك السنة ، وعُرف بين الناس من ذلك الحين بلقب (الفلكى) ، الذى لازمه طول حياته .

وفى سنة ١٢٦٦ هـ (منتصف سنة ١٨٥٠) اعتزم عباس باشا الأول إعادة تنظيم رصدخانة بولاق (دار الرصد) المنشأة فى عهد محمد على ، فأنفذ ثلاثة من نوابغ المهندسين إلى باريس للتخصص فى الفلك ، وهم المترجم وكان مدرسا بالمهندسخانة وحسين أفندى إبراهيم ، واسماعيل مصطفى الفلكى ، وكانا قد أتما دراستهما بالمدرسة ، فسافروا إلى أوروبا سنة ١٨٥١ ، ومكث المترجم نحو تسع سنوات مكبا على استكمال العلوم حتى نبغ فى الرياضيات والفلك .

وكان يواصل الحضور بدار الرصد فى باريس ، وزار دور الرصد فى مختلف النواحى بأوروبا ، وظهر نبوغه هناك بإدخاله بعض إصلاحات فى الآلة المسماه بالتيودوليد ، ونشر بعض مباحث فلكية فى المجلات الأوروبية ، ووضع أثناء دراسته بباريس الرسائل الآتية :

١ – رسالة عن التقاويم الإسلامية والإسرائيلية طبعت سنة ١٨٥٥ ببروكسل .

٢ – رسالة عن التقاويم العربية قبل الإسلام حقق فيها مولد النبى عليه الصلاة والسلام ونشرت فى المجلة الأسيوية ثم عربها الأستاذ أحمد زكى (باشا) بعنوان (نتائج الافهام فى تقويم العرب قبل الإسلام) .

٣ – رسالة عن فعل «كان» .

٤ – رسالة عن المواد المغناطيسية الأرضية قدمها سنة ١٨٥٦ إلى المجمع العلمى بفرنسا .

ونال المترجم أعظم الشهادات العلمية ، ثم عاد إلى مصر فى عهد سعيد باشا سنة

علماء الهندسة والرياضيات في عصر إسماعيل



١٨٥٩ ، فأنعم عليه برتبة أميرالاى ، وعهد إليه وضع خريطة مفصلة للقطر المصرى . فاضطلع بهذه المهمة وشرع فى تخطيط تلك الخريطة بمعاونة بعض المهندسين . « ورتب الرسم وأبرز من جليل صنعه وجميل وضعه لما انبهرت منه العقول ووقفت على مقدار براعته »[٢٦] .

فأنجز خريطة جامعة للوجه البحرى لم يسبقه إليها أحد من العلماء والمهندسين ، ووضع خريطة أخرى للوجه القبلى ، وأخرى عن مدينة الإسكندرية .

وفى سنة ١٢٧٦ هـ عهد إليه سعيد باشا بالرحلة إلى دنقلة لملاحظة كسوف الشمس الكلى ، فأدى هذه المهمة ، وانتهز هذه الفرصة فحقق المواقع الفلكية على النيل ، ووضع رسالة مسهبة عن هذا الكسوف قدمها إلى سعيد باشا وإلى أكاديمية العلوم بباريس فنالت استحسان العلماء .

وخطط معالم الإسكندرية القديمة ، ونقب فى حفائرها ، وهو أول عالم عصرى كشف عن آثار الإسكندرية وموقع سورها القديم ، وله فى ذلك رسالة بديعة باللغة الفرنسية عن الإسكندرية القديمة طبعها سنة ١٨٦٦ ، وهى رسالة تتضمن نتائج مكتشفاته وما قام به من النقب والحفر ، وما وصل إليه من كشف معالمها القديمة ، كأسوارها ، وشوارعها ، وأقنيتها ، ومراسحها ، ومتحفها ، ومكتبتها الشهيرة ، وقصورها ، ومبانيها ، وضواحيها ، ولم يسبقه إلى هذه المكتشفات المؤسسة على عمليات الحفر عالم عصرى من الأفرنج ، لأن مهندسى الحملة الفرنسية لم يكن لديهم الوقت ولا الوسائل الكافية للحفر والتنقيب[٢٧] ، وقد بحث اثنان منهم فى مواقع الإسكندرية ، أولهما المسيو سان جنيس Seinl genis أحد مهندسى الحملة ، وله فى الإسكندرية القديمة بحث مستفيض منشور فى الجزء الخامس من كتاب (تخطيط مصر) Description de L'Egypte ولكن المسيو سان جنيس لم ينقب ولم يحفر الأرض كما فعل محمود باشا الفلكى . بل اكتفى بذكر نتائج مشاهداته وآرائه التاريخية ، وكذلك كتب المسيو جراتيان لوبير Gratien Lepere بحثا فى وصف الإسكندرية نشر فى الجزء الثامن عشر ، اقتصر فيه على تدوين مشاهداته وما نقله عن مؤرخى الأفرنج والعرب ، وللمسيو نورى Norry وللمسيو مارتان Martin وكلاهما من مهندسى الحملة الفرنسية بحثان أقل أهمية من أبحاث

---

(٢٦) عن ترجمة حياته بقلم إسماعيل بك (باشا) الفلكى والأميرالاى محمد مختار بك (باشا) فى محاضرة ألقياها بالجمعية الجغرافية بجلسة ٨ يناير سنة ١٨٨٦ ونشرت فى مجلة الجمعية مجموعة ٢ عدد ١٢ .

(٢٧) عن كتابنا تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١٦٦ (طبعة أولى)

سان جنيس وجراتيان لوبير ، منشور فى الجزء الخامس عشر من كتاب (تخطيط مصر) وكل هذه المباحث لم تكن مقرونة بأعمال الحفر والتنقيب .

فمحمود باشا الفلكى هو أول عالم عصرى خطط معالم الإسكندرية القديمة ، على ما كشفت له أعمال الحفر تحت الأرض ، وقد بذل فى مكتشفاته جهوداً كبيرة ، وكان تحت إمرته جماعة من المهندسين المصريين ، ونحو مائتى عامل يشتغلون فى النقب والحفريات ، ومما أفرد عمله وميزه أنه استثار الأرض فى عهد الخديو إسماعيل باشا ، أى قبل أن تغطى بالمبانى الحديثة ، وتضيع معالم الآثار ، فهو أول من خطط سور البطالسة القديم تخطيطاً مبنياً على الاكتشاف والفحص الدقيق .

ورسالة محمود باشا الفلكى مقرونة بخريطة هى أبدع ما رسمه العلماء والمهندسون عن الإسكندرية القديمة ، وإليها يرجع علماء أوروبا فى أبحاثهم .

وقد خالف علماء الحملة الفرنسية فى بعض آرائهم ، فعين لمدينة (كانوب) مكانا غير الذى عينوه ، وكشف أطلال مدينة تابوزيريس (بوصير – غربى الإسكندرية) التى يسمى الفرنسيون برجها برج العرب .

وله رسالة ممتعة فى التوضيح عن عمر الأهرام والغرض الأصلى من تشييدها ، وتناسبها مع كوكب الشعرى ، وأخذ بنفسه مقاييس الأهرام وموقعها من التناسب الفلكى .

قال الأميرالاى محمد مختار بك (باشا) فى هذا الصدد : « وكنت موجوداً معه عند شروعه فى أخذ مقاييس الأهرام وموقعها من التناسب الفلكى ، وأعلم علم اليقين أنه وصل إلى معرفة الغرض من تشييدها ، إذ وجدها محكمة البناء فى رسم يقابل كوكب الشعرى عند طلوعه ، فكأن الذى بناها قصد أن يجعلها مزولة ليعرف منها يوم شم نسيم العلماء ، وكذلك لأجل تعريض جثث المدفونين فيها لموافاة صعود الكوكب المذكور ، فيسبغ عليهم من آياته رحمة وغفرانا ، لأن كوكب الشعرى كان من معبودات المصريين القدماء » .

وله رسالة فى التنبؤ بارتفاع النيل قبل وقوعه ، وأخرى عن ضرورة إنشاء دار الرصد بمصر ، وأخرى فى توحيد موازين العملة فى الديار المصرية ، ورسالة فى المقاييس والمكاييل فى مصر ، وترجم كتاب (حساب التفاضل والتكامل) .

وعين سنة ١٨٧١ ناظراً لمدرسة المهندسخانة ، وتولى نظارة الرصدخانة ، وإذ كان وكيلا للجمعية الجغرافية ، فقد ناب عن الحكومة المصرية فى المؤتمر الجغرافى الذى عقد بباريس سنة

١٨٧٥ ، والمؤتمر الجغرافى الآخر الذى عقد بمدينة البندقية سنة ١٨٨١ .

ومن أعماله إنشاء مدفع الظهر بالقلعة ، وأنشأ على سطح منزله (بميدان الفلكى) مزولة تبين ساعات النهار ، ورفعت من مكانها بعد وفاته .

وقد تولى وزارة الأشغال سنة ١٨٨٢ فى عهد وزارة إسماعيل راغب باشا ، وعين وكيلا لوزارة المعارف فى وزارة شريف باشا سنة ١٨٨٢ — ١٨٨٤ .

ثم عهد إليه بوزارة المعارف فى عهد وزارة نوبار باشا الثانية سنة ١٨٨٤ ، وتولى رآسة الجمعية الجغرافية الخديوية ، وبقى يتولاها مع الوزارة إلى أن توفى فى ١٩ يوليه سنة ١٨٨٥ .

وقد أبنته الجمعية الجغرافية الخديوية فى اجتماعها يوم ٨ يناير سنة ١٨٨٦ ، وألقى كل من إسماعيل بك مصطفى الفلكى والأميرالاى محمد مختار بك محاضرة فى ترجمة حياته ومآثره ، واقترح الأميرالاى محمد مختار بك اقتناء مكتبة المترجم ، وما فيها من نفائس الكتب ، وما خطه وما دونه من ملاحظاته ومعلوماته ، ونتائج اختباراته العلمية ، وكان المترجم يفكر فى إعداد قاعة عامة للمطالعة بداره يعرض فيها لمن يرغب من محبى الإطلاع كل ما وصل إليه من نفائس الكتب والخرائط والمخطوطات ، وقد تحققت هذه الفكرة سنة ١٩٢٩ ، إذ وهبت كريمته مكتبة الفقيد إلى الحكومة .

إسماعيل باشا الفلكى

(توفى سنة ١٩٠١)

هو إسماعيل باشا مصطفى الفلكى ، من تلاميذ محمود باشا الفلكى ، ومن نوابغ علماء الرياضيات والفلك ، أتم دراسته فى مدرسة المهندسخانة ببولاق والتحق سنة ١٨٤٥ على عهد محمد على بالرصدخانة القديمة التى كانت ببولاق ، ثم أوفده عباس الأول سنة ١٨٥٠ ضمن البعثة التى خصصها لدراسة الفلك ، وكانت مؤلفة من محمود حمدى (باشا) الفلكى ، ومن المترجم وحسين أفندى إبراهيم ، ومكث إسماعيل أربعة عشر عاما فى فرنسا يدرس علوم الفلك ، ويتفقه فيها ، ويمارسها فى دور الرصد ، فحاز بحق هو ومحمود باشا لقب (الفلكى) ، ومارس أيضا صناعة الآلات الفلكية ، وأتقنها فى باريس ، وعاد إلى مصر فى أوائل عهد إسماعيل ، فقدر كفاءته وأنعم عليه بالرتبة الثانية ، ولما أنشأ الرصدخانة بالعباسية

عهد إليه بنظارتها ، وقد عهد إليه دراسة مشروع سكة حديد سواكن – بربر بالسودان ، فبحثه ووضع تصميما له ، ولكنه لم ينفذ ، وناب عن الحكومة سنة ١٨٧٣ فى مؤتمر الإحصاء الدولى بموسكو ، فأعجب العلماء بكفاءته وسعة إطلاعه ، وتولى نظارة الرصدخانة ونظارة مدرسة المهندسخانة .

ومن أعماله أن أصلح مقياس النيل فى أسوان سنة ١٨٧٠ ، وله مؤلفات فى الفلك والرياضيات أهمها :

١ – الآيات الباهرة فى النجوم الزاهرة ، طبع ذيلا لمجلة روضة المدارس .

٢ – الدرر التوفيقية .

٣ – تقاويم فلكية كان ينشرها كل عام بالعربية والفرنسية .

٤ – والتحفة المرضية فى المقاييس والموازين المترية معربة عن الفرنسية شاركه فى تعريبها صادق بك شنن .

سلامة باشا

هو سلامة باشا إبراهيم ، مفتش هندسة الوجه البحرى ، ثم مفتش هندسة الوجه القبلى ، ثم مفتش عموم ديوان (وزارة) الأشغال ، وهو من كبار المهندسين فى ذلك العصر ، وأصله من الإسكندرية . وأبوه السيد إبراهيم شرابيه بن صالح شرابيه من أهالى الثغر[٢٨] ، وله آثار تشهد له بالكفاءة فى الأعمال الهندسية ، منها أنه أنشأ ترعة الساحل ، وكان وقتئذ وكيلا لمظهر باشا مفتش بحر الشرق (فرع دمياط) على عهد سعيد باشا ، واشترك مع مصطفى بهجت باشا فى إنشاء الترعة الإبراهيمية ، وهى من أجل أعمال العمران التى انشئت فى ذلك العصر ، وفى إقامة قناطر التقسيم على الترعة المذكورة ، وهى من أعظم قناطر الرى فى العالم .

محمد ثاقب باشا

من أهالى القرشية بمديرية الغربية ، ومن مشاهير المهندسين فى عصر محمد على وإسماعيل ، حضر بعض المواقع الحربية على عهد محمد على ، وعاون مصطفى بهجت باشا فى بناء القناطر الخيرية ، وصار مفتش هندسة الوجه القبلى ، توفى سنة ١٨٧٤ .

(٢٨) عن حجة شرعية حررها سلامة باشا فى يوم الأحد ١٥ المحرم سنة ١٣٠٠ مسجلة بمحكمة مصر الشرعية .

إسماعيل باشا محمد

ناظر قلم الهندسة ورئيس إدارة دروس المدارس الملكية ، ثم مفتش هندسة الوجه القبلى ، واشترك فى إتمام ترعة الإبراهيمية وقناطرها ، وهو الذى صار رئيس مجلس شورى القوانين سنة ١٨٩٩ .

أحمد بك نجيب

أستاذ الرياضة بمدرستى أركان حرب والطوبجية ، وله كتاب (التحفة البهية فى الهندسة الوصفية) ، طبع سنة ١٢٩٠ هـ .

حسين أفندى على الديك

مدرس الحساب بمدرسة المحاسبة ، وله كتاب قيّم فى مسك الدفاتر اسمه (عدة الحاسب وعمدة الكاتب) طبع سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩) وله كتاب (عمل الدواوين المتواتر فى بيان رسوم الدفاتر) طبع سنة ١٢٩١ .

على أفندى عزت

أستاذ العلوم الرياضية بالمهندسخانة ، توفى سنة ١٨٧٢ وله كتاب (حسن الصنيعة فى علم الطبيعة) طبع سنة ١٢٧٠ هـ ، و (النخبة العزية فى تهذيب الأصول الهندسية) طبع سنة ١٢٧٤ و (الخلاصة العزية فى تهذيب الأصول الحسابية) طبع سنة ١٢٨٥ .

عامر بك سعد

أستاذ الرياضيات بالمدارس الحربية ، وله (المنحة الزهرية فى الأعمال الجبرية) طبع سنة ١٢٦٩ هـ ، و (أحسن الوسائل لتصريف السوائل) طبع سنة ١٢٩١ ، وهو ملخص القواعد النظرية فى تصريف المياه من البحيرات والجداول .

السيد عمارة

من تلاميذ رفاعة بك ، وله كتاب (تهذيب العبارات فى فن أخذ المساحات) عربه عن الفرنسية بإرشاد رفاعة بك .

علماء الطب والجراحة

محمد على البقلى باشا ، أحمد حسن الرشيدى بك ، محمد الشافعى بك ، حسين عوف باشا . وهؤلاء قد ترجمنا لهم فى « عصر محمد على » ص ٥٢١ وما بعدها (طبعة أولى)

محمد درى باشا

(١٨٤١ – ١٩٠٠)

كبير الجراحين فى عصره ، ولد بالقاهرة سنة ١٢٥٧ هـ ، وأبوه السيد عبد الرحمن أحمد من محلة أبى على القنطرة (غربية) ، تلقى التعليم الابتدائى والثانوى ، ثم التحق بمدرسة المهندسخانة فى عهد نظارة على باشا مبارك ، لكنه كان ميالا إلى الطب ، فما زال يسعى فى الانتقال إلى مدرسة قصر العينى حتى وفق إلى غرضه سنة ١٢٦٩ هـ ، والتحق بها ، وأكب على الدراسة ، ونجح فى الامتحان السنوى ، ولكن سعيد باشا أمر بإلغاء مدرسة الطب وأخرج منها تلاميذها ، فكان المترجم ضمن من ألحقوا بإحدى الأورط العسكرية فى الجيش ، فلم يتسرب اليأس إلى نفسه ، وأخذ يعنى بالإطلاع على المعلومات الطبية ما استطاع إلى ذلك سبيلا . واشتغل ممرضًا فى الجيش ، وظل كذلك إلى أن أعاد سعيد باشا فتح مدرسة الطب ، فعاد إليها المترجم ، وأتم دراسته بها ، وظهرت عليه علائم الذكاء والنبوغ ، فعين مساعداً ومعيداً للجراحة بالمدرسة .

وفى سنة ١٢٧٩ هـ أوفد سعيد باشا بعثة من الأطباء لإتمام دراستهم فى باريس مؤلفة من الأطباء محمد بك فوزى ، ومحمد بك عامر ، وقاسم بك فتحى ، ومحمد بك القطاوى ، وعلى بك رياض ، ومحمد بك زهران ، وعقباوى أفندى ، والمترجم ، وكان أصغرهم سنا ، وقد استدعت الحكومة هؤلاء الأطباء فى أوائل عهد إسماعيل ، قبل إتمام دراستهم ، لاحتياج

الحكومة إليهم ، فرجعوا إلى مصر ، عدا المترجم فقد استثنى منهم لصغر سنه ، فأكمل معارفه الطبية وأتم دروسه على أشهر جراحى العالم وقتئذ ، وبقى يوالى الدرس والتخصص فى باريس نحو سبع سنوات ، ونبغ فى الجراحة نبوغاً عظيماً ، شهد له به أساتذته ، وفى خلال هذه المدة قابل الخديو إسماعيل فى باريس ، فشمله بعطفه ورعايته ، إذ سمع من أساتذته الثناء المستطاب على كفاءته واجتهاده .

وعاد المترجم إلى مصر ، فتقلد المناصب الطبية ، وأهم ما تقلده منصب كبير الجراحين بمستشفى قصر العينى ، والأستاذ الأول للجراحة بمدرسة الطب ، وأنعم عليه بالرتب إلى أن نال الباشوية سنة ١٣١٥ هـ ، وسطع نجمه فى الجراحة ، وذاعت شهرته فيها حتى عمت أرجاء البلاد ، وبلغ ذروة الشهرة بما عرف عنه من النبوغ فى فنه ، والمهارة فى إجراء العمليات الجراحية الخطيرة ، والدقة فى تشخيص الداء والدواء ، والتفانى فى الإخلاص لعمله وفنه ، وحب الإنسانية ، والبر بالفقراء والمعوزين ، هذا إلى تعلقه بالعلم والتأليف ، فقد أقتنى مكتبة علمية من أنفس المكاتب ، وألف مجموعة تشريحية من أعظم ما جمعه الأطباء ، وأنشأ لنفسه مطبعة لطبع مؤلفاته ورسائله ، سميت المطبعة الدرية ، كان يطبع فيها المؤلفات الطبية التى ظهرت فى عصره ، وقد ظل مخلصاً لفنه وللعلم حتى وافته المنية ليلة ٣٠ يونيه سنة ١٩٠٠ ، وأهم مؤلفاته الطبية « بلوغ المرام فى جراحة الأجسام » طبع بالمطبعة الدرية فى أربعة مجلدات ، وله « الإسعافات الصحية فى الأمراض الوبائية » طبع سنة ١٣٠٠ هـ .

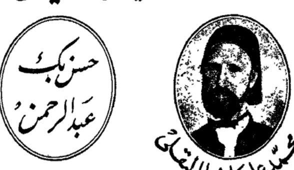
حسن بك عبد الرحمن

(توفى سنة ١٨٧٥)

تخرج من مدرسة الطب بقصر العينى ثم تولى تدريس التشريح فيها ونبغ فى هذا الفن ، وترجم كتاب (القول الصحيح فى علم التشريح) طبع سنة ١٢٨٣ هـ بإرشاد محمد على باشا البقلى إذ كان ناظراً لمدرسة الطب .

علماء الطب والجراحة في عصر إسماعيل











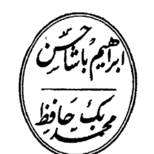






محمد بدر بك

أحمد حمدى باشا





محمد بك حافظ

(توفى سنة ١٨٨٧)

تخرج فى مدرسة قصر العينى ، وأتقن فن الرمد بأوروبا ، ثم تولى تدريسه بقصر العينى ، وله كتاب (مطمح الأنظار فى تشخيص أمراض العين بالبحث بالمنظار) طبع سنة ١٢٩٩ هـ .

سالم باشا سالم

(توفى سنة ١٨٩٣)

من القنايات بمديرية الشرقية ، تعلم فى مدرسة الألسن ، ثم فى مدرسة الطب ، وأوفدته الحكومة فى عهد عباس باشا الأول لإتمام دراسة الطب فى مونيخ بألمانيا ، فأكمل دراسته علماً وعملا ، وعاد إلى مصر ، وارتقى فى المناصب الطبية وجعله الخديو توفيق باشا طبيبه الخاص ، وله من المؤلفات :

١ – وسائل الابتهاج إلى الطب الباطنى والعلاج طبع سنة ١٢٩٨ هـ فى أربعة مجلدات .

٢ – دليل المحتاج فى الطب والعلاج .

٣ – الينابيع الشفائية والمياه المعدنية .

جليلة تمرهان

(توفيت سنة ١٨٩٩)

من خريجات مدرسة القابلات (الولادة) ، ثم تولت التدريس فيها ، ولها فى فن الولادة كتاب (محكم الدلالة فى أعمال القبالة) طبع سنة ١٢٨٦ هـ .

محمد بك بدر

(توفى سنة ١٩٠٢)

من زاوية البقلى بمديرية المنوفية ، ومن خريجى مدرسة الطب بقصر العينى ، وأحد تلاميذ محمد على باشا البقلى ، أتم دراسته فى انجلترا وعاد منها فى عهد سعيد ، فتولى مناصب عدة

حتى صار أستاذاً فى مدرسة الطب ، ونال منزلة رفيعة لدى اسماعيل ، وله من المؤلفات :

١ – الفرائد الدرية فى علم الشفاء والمادة الطبية طبع ١٣٠٧ هـ .
٢ – الدرر البدرية النضيدة فى شرح الأدوية الجديدة طبع سنة ١٣١٠ هـ .
٣ – الصحة التامة والمنحة العامة طبع بسنة ١٢٩٦ هـ .

أحمد حمدى باشا

(توفى سنة ١٩٠٣)

هو نجل الدكتور محمد على باشا البقلى ، ومن خريجى مدرسة قصر العينى ، ثم أتم دراسته فى باريس وبعد عودته إلى مصر سنة ١٨٦٩ عين أستاذاً للعمليات الجراحية فى حياة أبيه ، وحذا حذوه فى التأليف .

حسن باشا محمود

(١٨٤٧ – ١٩٠٦)

ولد بقرية الطالبية فى طريق الأهرام وتلقى علومه بالمدرسة الحربية ، أوفدته الحكومة سنة ١٨٦٢ ضمن بعثة مدرسية إلى ألمانيا لدراسة الطب ، وعاد ١٨٧٠ ، فعين أستاذاً للتشريح فى مدرسة قصر العينى ، وتقلد مناصب عدة ، إلى أن صار ناظراً لمدرسة الطب ، وله مؤلفات قيمة ومباحث طبية كان ينشرها فى المجلات العلمية كروضة المدارس ثم المقتطف .

إبراهيم باشا حسن وعيسى باشا حمدى

كلاهما من نوابغ الأطباء ، وللأول كتاب (روضة الآسى فى الطب السياسى) ، طبع سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦) ، وتولى الثانى نظارة مدرسة الطب سنة ١٨٨٣ ، وله عدة مؤلفات طبية

عبد الرحمن بك الهراوى

(توفى سنة ١٩٠٦)

من خريجى مدرسة قصر العينى ، أتم دراسته بأوروبا ، وعين بعد عودته أستاذاً للفسيولوجيا وأمراض الجلد ، ثم صار وكيلا للمدرسة سنة ١٨٨٠ ، وله كتاب فى الفسيولوجيا لم يطبع .

علماء الطبيعيات

أحمد بك ندا ، عبد الهادى إسماعيل ، وقد ترجمنا لهما فى كتابنا (عصر محمد على) ص ٥٣٤ (الطبعة الأولى) .

على بك رياض

(توفى سنة ١٨٨٩)

تلقى علم الصيدلة بمصر ، وأتم دراسته فى أوروبا ، وتولى تدريس الأقرباذين والكيمياء فى مدرسة الطب ، وجعل كبير صيادلة مستشفى القصر العينى ، وله من المؤلفات :

١ — النفحة الرياضية فى الأعمال الأقرباذينية طبع سنة ١٢٨٩ هـ .

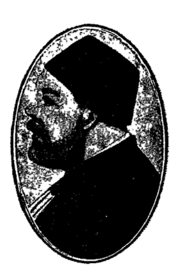
٢ — الأزهار الرياضية فى المادة الطبية سنة ١٢٩٨ هـ .

٣ — التوفيقات الإلهية فى التاريخ الطبيعى ، طبع سنة ١٢٩٨ هـ .

منصور أفندى أحمد

أستاذ الكيمياء بمدرسة المهندسخانة ومؤلف كتاب (عمدة المتطببين فى فن الصيدلة المعروف بالأقرباذين) طبع سنة ١٢٨٣ هـ (١٨٦٦) .

علماء الفقه والقانون



محمد قدرى باشا

(١٨٢١ – ١٨٨٦)

العالم المشترع الكبير ، ولد بملوى حوالى سنة ١٨٢١ ، من أب أناضولى وأم مصرية ، وتلقى التعليم الأولى بمكتب ملوى ، ثم التحق بمدرسة الألسن على عهد رفاعة بك رافع الطهطاوى ، فظهر نبوغه وميله إلى العلم والترجمة ، وبعد أن تخرج فيها جُعل مترجما مساعداً بها ، واتجه ميله إلى دراسة علوم الفقه ومقارنة الشريعة الإسلامية بالقوانين الأوروبية ، فحضر بعض دروس الفقه بالأزهر ، وأقبل على كتب الشرع يدرسها ويتفهمها ، وظل يشغل مناصب الترجمة فى الحكومة إلى أن قربه الخديو إسماعيل واختاره مربياً لولى عهده الأمير محمد توفيق ، ثم عين بالمعية ، فالمحكمة التجارية بالإسكندرية ، فرئيسا لقلم الترجمة بوزارة الخارجية ، ومشاركا رفاعة بك فى تعريب الكود (قانون نابليون) . واختص هو بتعريب قوانين المحاكم المختلطة تمهيداً لوضع قوانين المحاكم الأهلية الجديدة ، وجعل مستشاراً بمحكمة الاستئناف المختلطة ، وله آثار علمية عدة ، أهمها كتبه الثلاثة الخالدة التى جمع فيها أحكام الشريعة

الإسلامية ، وصاغها فى مواد محكمة الوضع على أسلوب القوانين الأوروبية ، وهذه الكتب هى : (مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان) على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان فى المعاملات المدنية الشرعية ، وكتاب (الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية) ، وكتاب (قانون العدل والإنصاف فى القضاء على مشكلات الأوقاف) ، وهذه الكتب هى مرجع رجال القضاء والقانون فى المحاكم الأهلية والشرعية والمختلطة ، وعمدة كل مشتغل بالعلوم الفقهية والقانونية.

وله أيضا كتاب لم يطبع فى (تطبيق ما وجد فى القانون المدنى موافقًا لمذهب أبى حنيفة) .

وتولى وزارة الحقانية فى وزارة شريف باشا الدستورية سنة ١٨٨١ على عهد الخديو توفيق باشا ، ووضع فى هذا العهد مشروع النظام القضائى للمحاكم الأهلية الجديدة ، وفى سنة ١٨٨٣ افتتحت هذه المحاكم وصدرت قوانينها ، وهى القانون المدنى وقوانين التجارة والمرافعات والعقوبات ، وكان المترجم وقتئذ وزيرًا للمعارف فى عهد وزارة شريف باشا الرابعة . وهى الوزارة التى استقالت احتجاجًا على إخلاء السودان .

الشيخ محمد العباسى المهدى

(١٨٢٧ – ١٨٩٧)

شيخ الإسلام ، ومفتى الديار المصرية ، وصاحب الفتاوى المهدية التى تعد مرجع العلماء فى الفقه الإسلامى ، وهو ابن الشيخ محمد أمين المهدى مفتى الديار المصرية الأسبق ابن الشيخ محمد المهدى أحد كبار علماء مصر فى عهد الحملة الفرنسية وأوائل عهد محمد على (ترجمنا له فى كتابنا الجزء الثانى من تاريخ الحركة القومية ص ٢٩٩ . الطبعة الأولى) .

تلقى العلم بالأزهر ، ونبغ فى علوم الفقه ، وتولى منصب الفتيا وهو بعد فى الحادية والعشرين من عمره ، على عهد إبراهيم باشا . وظهرت مزاياه التى رفعت مكانته ، وأهمها الذكاء ، وسعة العلم ، وقوة الحجة ، وقد وقف من الحكومات المتعاقبة موقف الكرامة والاستمساك بالحق ، حتى استهدف فى بعض المواطن لغضب ولاة الأمور ، فلم يكن يبالى غضبهم ، ولم يتحول عن الحق ، وتلك كبرى مزاياه وفضائله ، وقد زاد مقامه علوًا فى عهد إسماعيل ، إذ جمع بين الإفتاء ومشيخة الأزهر سنة ١٨٧١ ، ونال احترام الخديو وثقته ،

وكان يرجع إلى رأيه فى كل ماله مساس بالشريعة الإسلامية ، وبدأ على يده إصلاح نظام التعليم فى الأزهر كما تقدم بيانه ص ٢٠٨ ، واستمر محتفظاً بمكانته فى عهد الخديو توفيق ، ولما قامت الثورة العرابية لم يكن من أنصارها ، فاستهدف لغضب العرابيين ، وعزل من مشيخة الأزهر ، ولما انتهت الثورة أعيد إلى مشيخة الأزهر واستمر متقلداً الإفتاء والمشيخة حتى عزل عنهما لمعارضته الحكومة على عهد توفيق باشا فيما يخالف الشريعة ، ثم عاد إليه الإفتاء وتقلده ، إلى أن وافته منيته ليلة ١٦ رجب سنة ١٣١٥ هـ .

* * *

ومن علماء الفقه المعدودين فى هذا العصر : الشيخ محمد عليش ، والشيخ إبراهيم السقا ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى ، والشيخ حسونة النواوى إلخ .

علماء الفنون الحربية والبحرية

على باشا إبراهيم ، حماد عبد العاطى باشا ، وقد ترجمنا لهما فى كتابنا (عصر محمد على) ص ٥٣٠ (الطبعة الأولى) .

محمود باشا فهمى

(توفى سنة ١٨٩٤)

أحد زعماء الثورة العرابية ، ولد سنة ١٢٥٥ هـ فى الشنطور بمركز ببا من مديرية بنى سويف ، وتخرج فى مدرسة المهندسخانة ببولاق ، ومهر فى الفنون الهندسية والحربية وانتظم فى سلك الجيش ، ثم جعل أستاذاً لعلم الاستحكامات والفنون العسكرية فى المدارس الحربية ، على عهد سعيد وإسماعيل ، وعهد إليه الخديو إسماعيل تحصين شواطىء مصر الشمالية من أبو قير إلى البرلس ، فاضطلع بهذه المهمة ، وجدد الحصون القديمة ، وأقام حصوناً جديدة ، وارتقى فى الرتب العسكرية ، واشترك فى حرب البلقان سنة ١٨٧٦ – ١٨٧٧ ، وكان رئيس أركان حرب الفرقة المصرية بها .



محمود باشا فهمى

(توفى سنة ١٨٩٤)

ولما شبت الثورة العرابية كان من زعمائها كما سيجىء بيانه فى موضعه من كتاب (الثورة العرابية) ، وتولى وزارة الأشغال فى وزارة محمود باشا سامى البارودى سنة ١٨٨٢ ، وأسر قبل واقعة التل الكبير ، فكان أسره من أسباب هزيمة الجيش المصرى ، وحوكم ضمن زعماء الثورة ، ونفى إلى سيلان ، وهناك وضع كتابه (البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر) ، وتوفى فى منفاه سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٤) وبعد وفاته طُبع كتابه سنة ١٣١٢ هـ فى أربعة مجلدات .



محمد مختار باشا

(١٨٣٥ – ١٨٩٧)

من رجال السيف والقلم ، ولد فى بولاق سنة ١٨٣٥ ، وتلقى التعليم الابتدائى ، ثم تلقى الفنون الحربية ، وانتظم فى خدمة الجيش وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، وارتقى فى المناصب العسكرية حتى نال رتبة لواء فى سنة ١٨٨٦ ، واشترك فى حملة هرر كما تقدم بيانه ص ١٤٠ ، ثم جعل رئيس أركان حرب الجيش المصرى بالسودان ، وعين مأموراً للخاصة الخديوية فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى ، وبقى يتولى هذا المنصب إلى أن توفى فى ٢٠ نوفمبر ١٨٩٧ .

وقد أسبغت عليه حياته العلمية منزلة ممتازة ، ويحسب من المؤلفين والعلماء أكثر مما يعد من رجال الحرب ، وحسبك أنه صاحب الكتاب القيم (التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية) من السنة الأولى للهجرة إلى عام ١٥٠٠ هـ طبع سنة ١٣١١ هـ .

وقد ذكر إزاء كل شهر أهم الحوادث التاريخية التى وقعت فى مصر والعالم ، وله كتاب (المجموعة الشافية فى علم الجغرافيا) ورسائل أخرى فى الرياضيات والفلك ، ومقالات ممتعة فى مجلة الجمعية الجغرافية .

شحاتة عيسى بك

ناظر مدرسة أركان الحرب فى عهد الخديو إسماعيل .

محمد صادق باشا

(توفى سنة ١٩٠٢)

من تلاميذ مدرسة الخانكة الحربية المنشأة فى عهد محمد على ، ومن أعضاء البعثة الخامسة ، عاد من البعثة مهندساً وانتظم ضابطًا فى سلك الجيش ، وهو الذى رافق سعيد باشا فى رحلته بالحجاز ، وعين مفتشًا بمصلحة المساحة برآسة استون باشا ، وله مباحث قيمة فى مجلة الجمعية الجغرافية .

سليمان قبودان حلاوه

(توفى سنة ١٨٨٥)

من المنوفية ، ولد سنة ١٢٣٥ هـ وتخرج فى مدرسة الطوبجية على عهد محمد على ، وحذق الفنون الحربية والرياضية ، وجعل أستاذاً للهندسة والحساب بالمدرسة البحرية القديمة ، ومهر فى الفنون البحرية وأتقنها ، وصار رُبّانًا للباخرة سمنود ، فأظهر براعة فى قيادتها ، وطاف بها حول القارة الإفريقية ، وجعل فى عهد إسماعيل سنة ١٨٧٠ مدرساً للفنون البحرية والفلكية ، فأفاد التلاميذ فوائد جمة ، وألف فى الملاحة كتابا اسمه (الكوكب الزاهر فى فن البحر الزاخر) وتوفى سنة ١٣٠٣ هـ ١٨٨٥ م .

النهضة الفنية

إن النهضة الفنية تشتمل على الظواهر المعروفة بالفنون الجميلة ، وهى الفنون التى تستثير فى النفس إحساس الجمال ، وتنمى فيها ملكته ، ولا مراء فى أنها من عوامل نهضة الأمة ، لما تنتجه من تهذيب النفوس ، ونشاط العقول ، وترقية العواطف . وتوسيع المدارك ، وتفتح

الأذهان إلى دقة الملاحظة ، وصواب النظر .

والكلام عن الفنون الجميلة يتناول الموسيقى أو الغناء ، والتمثيل ، والرسم ، والتصوير ، والنقش والزخرفة والعمارة .

أما الرسم فقد بدأت المدارس الهندسية والصناعية والبعثات تعنى به من عهد محمد على ، فتخرج فيها طائفة من الرسامين تولوا تدريس الرسم فى المدارس العالية والثانوية ، والابتدائية ، ولكن نهضة الرسم والتصوير لم تنل حظًا من الازدهار فى ذلك العهد .

وتخرج فى مدرسة المهندسخانة والبعثات مهرة المهندسين فى النقش والبناء ، وتقدم فن العمارة بما أقامه أولئك المهندسون من القصور والمساجد والدواوين والعمائر الجميلة التى تشهد لهم بحسن الذوق والحذق فى هندسة البناء ، وظهر أيضا حذقهم فيما شيدوه من القناطر على لنيل والرياحات والترع الكبرى ، فإن بعض هذه المنشآت تعد قطعة من الفن .

التمثيل والغناء

كان المجتمع فى عصر إسماعيل ميالا إلى المرح والحبور ، وكان إسماعيل ذاته طروبًا ، محبًا للتمتع بالملاهى والمسرات ، وهذه الميول هى غذاء للنهضة الفنية وخاصة الغناء[٢٩] (الموسيقى) ، والتمثيل .

أما التمثيل فقد ساعد إسماعيل الناحية الأوروبية منه ، ثم بدت منه التفاتة قليلة الجدوى إلى التمثيل العربى ، فأنشأ أول ما أنشأ بالقاهرة مسرح (الكوميدى) بالأزبكية ، وكان الشروع فى بنائه فى نوفمبر سنة ١٨٦٧ واحتفل بافتتاحه فى ٤ يناير سنة ١٨٦٨ [٣٠] ثم بنى دار الأوبرا سنة ١٨٦٩ لمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، وتم بناؤها فى خمسة أشهر ، وبلغت تكاليفها ١٦٠ ألف جنيه ، ومثلت فيها مساء ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ أول أوبرا واسمها (ريجوليتو) ، وكانت الأمبراطورة أوجينى عقيلة نابليون الثالث فى مقدمة من شهدوا التمثيل فى تلك الليلة ، وعهد إسماعيل إلى الموسيقى الإيطالى الشهير (فردى) أن يضع أول أوبرا مصرية تمثل بدار الأوبرا ، فقام بهذه المهمة ووضع العلامة الفرنسى ماربيت باشا موضوع الرواية ، وهى رواية

---

(٢٩) الغناء والموسيقى بمعنى واحد .

(٣٠) كتاب (باريسى فى القاهرة) للمسيو بربير ص ١١٧ . un Parisien au Caire par Perrieres

(عايدة) ، ومثلت بالقاهرة لأول مرة فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١ ، فنالت نجاحاً عظيماً ، وجلبت الحكومة من ذلك الحين الجوقات الإفرنجية وأغدقت عليها الأموال والهبات ، فبلغ ما صرف على أفراد إحدى الجوقات فى شتاء سنة من سنى إسماعيل ١٢٠ ألف جنيه ، ولا غرابة فى ذلك فإن الممثلة الواحدة كانت تأخذ أحيانا ألف ومائة جنيه فى الشهر .

وأنشىء فى الإسكندرية مسرح (زيزينا) ، ومسرح آخر اسمه Alfieri بشارع انسطاسى .

وقد وفد على مصر حوالى سنة ١٨٧٦ جماعة من الأدباء والممثلين السوريين ، منهم يوسف خياط ، فمثلوا على مسرح زيزينا بعض الروايات ، ثم انتقل يوسف خياط بجوقه إلى القاهرة سنة ١٨٧٨ ، فلقى تعضيداً من الخديو إسماعيل ، وأذن له أن يمثل رواياته فى دار الأوبرا ، فمثل رواية « الظلوم » وحضرها الخديو ، فلم يرقه أسلوبها ، وغضب مما تخللها من ذكر الظلم والتعريض بالظالمين . إذ ظن أنه المقصود بهذا التعريض ، فأمر بإخراج الخياط وجوقه من مصر فعادوا إلى سوريا ، ووقفت النهضة التمثيلية فى عهد إسماعيل عند هذا الحد .

الموسيقى (الغناء)

سرت روح النهضة والتجديد إلى الموسيقى والغناء ، فقد كان المغنون يتبعون إلى ذلك العهد الأساليب والتواشيح القديمة ، حتى ظهر (عبده الحمولى) المغنى الشهير ، فألهمته عبقريته الموسيقية إصلاح هذه الأساليب وإدخال روح العصر والتجديد فيها .



عبد الحامولى
مجدد الغناء فى عصر إسماعيل

ولد عبده الحامولى فى طنطا حوالى سنة ١٨٤٥ ، أى أنه استقبل النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، عصر التجديد الاجتماعى ، فحمل فيه لواء النهضة الغنائية ، وهو ابن تاجر بن فى طنطا ، وكان له أخ أكبر منه سنا ، وكان أبوهما يقسو فى معاملتهما ويسىء إليهما بالضرب والاضطهاد ، فلم يطيقا صبرًا على هذه الغلظة ، ففرا من عنده وسارا هائمين فى الأرياف ، فساقتهما المصادفة إلى رجل يشتغل بالغناء ويعزف على القانون ، فسمع صوت عبده ، فأطربه وأعجب به إعجابًا كبيرًا ، وعاد به إلى طنطا ، وهناك أخذ يغنى معه ، ثم جاء به إلى مصر ، فما أن سمعه محبو الطرب حتى اجتذبهم بصوته الجميل ، وظهرت عليه علائم النبوغ الموسيقى . فترك صاحبه وأستاذه القديم ، وانتقل إلى مغن مشهور اسمه (الشيخ المقدم) فاشتغل على تخته ، وأخذت شهرته تذيع فى الأوساط الاجتماعية ، وبدأ يبتكر أساليب جديدة فى الغناء نالت إعجاب أهل الفن وعشاق الطرب ، وبلغت شهرته الخديو إسماعيل فاجتذبه وألحقه بمعيته ، وكان ذلك فاتحة مجده ، إذ أحب فيه الخديو صوته الجميل ، فاتخذه نديمه فى حفلاته وسهراته ، وأغدق عليه الهبات والعطايا ، واصطحبه فى رحلاته إلى الاستانة ، وهناك التقى عبده بالموسيقيين الترك وسمع ألحانهم ، فاقتبس منها ما يلائم الروح المصرية ، وابتكر فى الغناء ألحانًا جديدة هى مزيج من الموسيقى العربية والتركية ، فصار زعيم المجددين فى الموسيقى

المصرية ، واستمر يمارس الغناء وينهض بالفن ويطرب الناس طول حياته ، ولا غرو فهو البلبل الصداح الذى كان يحرك أوتار القلوب بصوته العذب ، وألحانه البديعة ، وأنغامه الجميلة ، وقد ظل ثلاثين سنة ونيفاً مصدر السرور والطرب ، للأفراد والجماعات ، وكان رقيق المزاج ، دمث الأخلاق ، كريم الطباع ، عزيز النفس ، مخلصًا لفنه ، مولعاً به ، وهذا هو سر نبوغه وعبقريته ، وكانت وفاته سنة ١٩٠١ .

واشتهر فى عصره بعض السيدات فى الغناء ، منهم (ألماس) المغنية المشهورة ، وقد تزوج بها عبده ، ومنعها عن الغناء فى مجالس الناس ، وكانت له من أجل ذلك حادثة استهدف فيها لغضب إسماعيل ، إذ طلب يومًا أن تحضر (ألماس) إلى قصره وتغنى فيه ، فرفض عبده أن تذهب ، فغضب الخديو ، وأمر بإحضارها قوة واقتداراً ، فاستعصم عبده ، وأصر على الإباء ، ووسط الشيخ على الليثى شاعر الخديو فى الأمر ، وانتهت الحادثة بعدول الخديو عن طلبه .

وفى هذا العهد نشأ محمد العقاد ، الموسيقى المشهور ، أقدر من ضرب على « القانون » فى العصر الحديث ، وقد أدرك عصر إسماعيل ، وإن كانت شهرته لم تكتمل إلا من بعد ، وصحب عبده الحامولى ، وحاكاه فى توقيعه وأنغامه .

وصفوة القول أن عصر إسماعيل كان للنهضة الغنائية عصر الإحياء والتجديد ، وظهر فيه عباقرة الفن الذين رفعوا شأنه ، وأحلوه من النفوس مكانًا عليًا .

تم الجزء الأول

ويليه الجزء الثانى

(وفيه ختام الكلام عن عصر إسماعيل)

راجع هذا الكتاب المستشار

حلمى السباعى شاهين

نائب رئيس قضايا الحكومة

الفهرس

الفصل الثالث
عصر إسماعيل

الفصل الرابع
قناة السويس

الفصل الخامس
السودان فى عهد إسماعيل

الفصل السادس

الجيش

الفصل السابع
البحرية

الفصل الثامن
حروب مصر فى عهد إسماعيل

الفصل التاسع
التعليم والنهضة العلمية والأدبية

فهرست الخرائط والصور

صفحة

* * *

فصول الجزء الثانى من الكتاب

* * *

للمؤلف

حقوق الشعب :

يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان . طبع سنة ١٩١٢ .

نقابات التعاون الزراعية :

يتضمن تاريخ التعاون الزراعى ومنشآته فى أوروبا ، ونشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه ، وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية . طبع سنة ١٩١٤ .

الجمعيات الوطنية :

صحيفة من تاريخ النهضات القومية يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير ، والنظم البرلمانية فيها والمقارنة بينها . طبع سنة ١٩٢٢ .

تاريخ الحركة القومية (فى جزأين) :

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر . وتاريخ مصر القومى فى هذا العهد (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩)

الجزء الثانى : من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى عهد ولاية محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩) .

عصر محمد على :

يتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٠)

عصر إسماعيل (فى جزأين) :

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢)

الجزء الثانى : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢) .

الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧) .

مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال :

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢) .

مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩) .

محمد فريد : رمز الإخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤١) .

ثورة سنة ١٩١٩ فى جزأين :

تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ (فى جزأين) الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦ .

الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة . وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شبوب الثورة فى مارس سنة ١٩١٩ ثم وقائع الثورة فى القاهرة والأقاليم .

الجزء الثانى : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة واستمرارها ومحاكمات الثورة ولجنة ملنر . والحوادث التى لابستها ومفاوضات ملنر واستشارة الأمة فى مشروع ملنر . والتبليغ البريطانى بأن الحماية علاقة غير مرضية . ونتائج الثورة فى حياة مصر القومية .

فى أعقاب الثورة المصرية (ثورة سنة ١٩١٩) : فى ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : تاريخ مصر القومى من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧) .

الجزء الثانى : تاريخ مصر القومى من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ – سنة ١٩٤٩) .

الجزء الثالث : تاريخ مصر القومى من ولاية فاروق عرش مصر فى ٦ مايو سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١ (الطبعة الأولى سنة ١٩٥١) .

مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ :

(الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧)

الكفاح فى القنال سنة ١٩٥١ – حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ .

وزارات الموظفين – أسباب الثورة – فاروق يمهد للثورة .

ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ :

تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ – ١٩٥٩ (طبع سنة ١٩٥٩)

تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة :

من فجر التاريخ إلى الفتح العربى (طبع سنة ١٩٦٣)

مذكراتى (١٨٨٩ – ١٩٥١) :

خواطرى ومشاهداتى فى الحياة .

شعراء الوطنية فى مصر :

تراجمهم . وشعرهم الوطنى . والمناسبات التى نظموا فيها قصائدهم الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤

مجموعة أقوالى وأعمالى فى البرلمان : (مجلس النواب الأول) طبع ١٩٢٥

أربعة عشر عامًا فى البرلمان :

فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ – ١٩٢٥

وفى مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥١ (طبع سنة ١٩٥٥) .

كتب مختصرة

مصطفى كامل :

باعث النهضة الوطنية (طبع سنة ١٩٥٢)

بطل الكفاح . الشهيد محمد فريد : (طبع سنة ١٩٥١)

الزعيم الثائر أحمد عرابى :

(الطبعة الأولى – يناير سنة ١٩٥٢)

جمال الدين الأفغانى : (طبع سنة ١٩٦٦)

بحث وتحليل معاهدة سنة ١٩٣٦ :

استقلال أم حماية (طبع سنة ١٩٣٦)

كتب لطلبة المدارس الثانوية :

(طبعت سنة ١٩٥٨ – ١٩٥٩)

مصر المجاهدة فى العصر الحديث :

فى ست حلقات تشتمل على كفاح الشعب فى عهد الحملة الفرنسية ثم كفاحه فى العهود التالية إلى بداية ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ .

تاريخ مصر القومى :

من الفتح العربى حتى عصر المقاومة والحملة الفرنسية طبع بعد وفاة المؤلف

(تحت الطبع)

مختاراتى من دواوين الشعراء فى الجاهلية والإسلام .

راجع هذا الكتاب

المستشار حلمى السباعى شاهين

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٥٧٧٣
الترقيم الدولى	٢-٢١٥٦-٠٢-٩٧٧	ISBN

١ / ٨٧ / ٢٣١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه الأعمال الكاملة

يُنظر إلى عبد الرحمن الرافعي على أنه جبرتي مصر الحديث . فقد عكف طوال عمره على كتابة التاريخ المصري فبدأه بتاريخ الحركة القومية في عصر المماليك والحملة الفرنسية . . حتى ثورة ٢٣ يوليو في سبع سنوات . وإلى جانب هذه الحقبة التاريخية نجده يكتب أيضاً مؤلفات أخرى هامة .

وكتابات الرافعي تتسم بالصدق والدقة والحيدة . . فهو يبدأ بذكر أسباب الحادث ثم سرده ثم رأيه فيه . . ومن ثم فإن فكر الرافعي يسود هذه المؤلفات ويعبِّر عن كفاح الشعب المصري في مواجهة القوى المختلفة والملابسات التي أحاطته . .

ودار المعارف تقدم هذه الأعمال الكاملة للقارئ العربي . . حتى يقف على تاريخ وطنه العظيم . . وكفاحه المشرف . . ومطالبته الدائبة بالحرية والحق والديمقراطية .

١٦٩٩١/٠٢

جـ ٥